

الجيش المصري في العصر الإسلامي

من الفتح العربي إلى معركة المنصورة

دكتور عبد الرحمن زكي

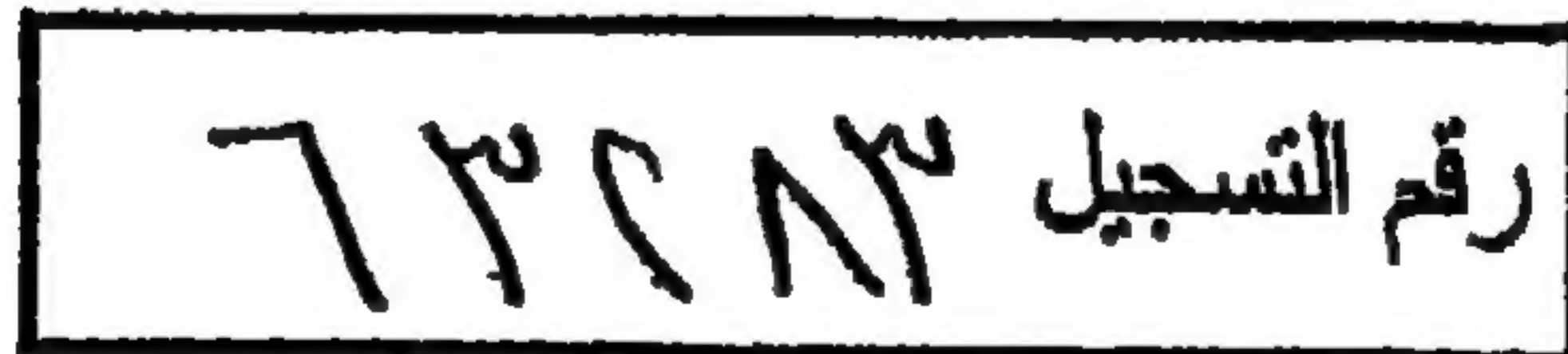
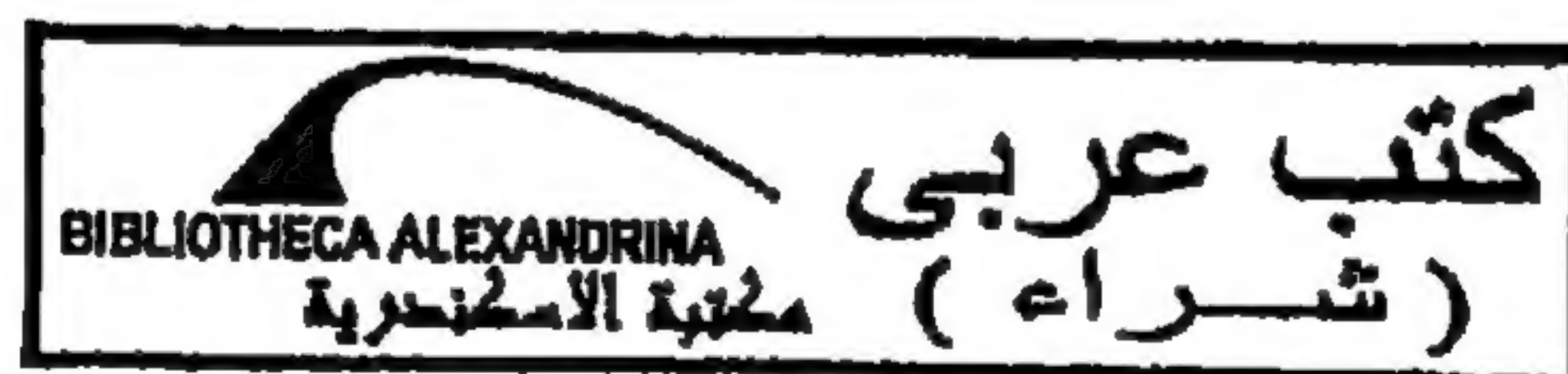


مُؤَسَّسَةُ الْجُيُوشِ الْأَسْلَافِيَّةِ

الجيش المصري في العصر الإسلامي

من الفتح العربي إلى معركة المنصورة

دكتور عبد الرحمن زكي



الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد بالقاهرة
مكتبة الاسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

يَحْيِيهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْمَصْرِي

1

2

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جرت العادة أن يكون للكتاب مقدمة يوجز فيها المؤلف محتوى كتابه ، ويوضح فيها هدفه من تأليفه . وموضوع هذا الكتاب « الجيش المصرى فى العصر الإسلامى (٦٤٠ — ١٢٥٠ م) » ، وهو الجزء الأول من موسوعة الجيوش الإسلامية يتناول تاريخ مصر الحربى منذ الفتح العربى إلى معركة المنصورة (١٢٥٠ م) . ففى خلال تلك الفترة ، حكم مصر فى المرحلة الأولى ولاية وفدوا من المدينة أودمشق أو بغداد ، ثم جاءت من بعدهم أسرة الطولونيين ، فالإخشيديين ، ثم الفوالم ، فأسرة الأيوبيين التى أسسها فى مصر صلاح الدين يوسف الأيوبى .

ففى الفصل الأول تحدثنا عن الجيش ، وأنظمتة فى أيام الولاية العرب ، وتناولنا فى الفصل الثانى الحديث عن الجيش المصرى الإسلامى ومعاركه فى أيام الطولونيين ، وتحدثنا فى الفصل الثالث عن الجيش ومعاركه فى عصر الإخشيديين ، ثم تكلمنا فى الفصل الرابع عن الجيش فى العصر الفاطمى (٩٦٩ — ١١٧١ م) — عناصره وأسلحته ومعاركه التى خاضها ضد القرامطة الذين اعتدوا على مصر ، والبيزنطيين (الروم) أعداء الدولة العربية عامة ، والصليبيين الذين احتلوا القدس وساحل فلسطين . وفى أيام الفوالم كانت مصر دولة كبرى تزعم بنفوذها المنطقة برىاً وبحرياً ، كما تنافس بغداد فى الشرق ، وقرطبة فى الغرب . وتناولنا فى الفصل الخامس الكتابة عن نظم الجيش وأسلحته ومعاركه الظافرة على أيام السلطان صلاح الدين ، ومنها معركة حطين الحاسمة ، وتحرير القدس بعد إنزال الهزيمة بالصليبيين . وفى الفصل السادس تكلمنا عما كان عليه جيش مصر الأيوبى فى أعقاب وفاة البطل صلاح الدين على أيام إخوته وأحفاده عن تولوا الحكم . وفى الواقع يعتبر النصر الأيوبى فترة الجهاد الحربى ضد

البيزنطيين والصليبيين وغيرهم في جبهات الصراع الكثيرة في مصر وسورية وشبه الجزيرة العربية حتى أقصى شمال الجزيرة .

تلك هي محتويات الجزء الأول من كتابنا . وجدير بالملاحظة أن المقاتل المصري منذ العصور القديمة ، وفي العصر الإسلامي خاصة ، لم يتجاوز حدود بلاده الأصيلة إلا لتأمين مصر نفسها من خطر عدو خارجي . ذلك لأن سياسة مصر العسكرية منذ القدم وهي سياستها التقليدية ، كانت سياسة دفاعية وليست هجومية . وينبغي هنا أن نقول بأن مصر وسورية كانتا في معظم العصور الإسلامية تؤلفان وحدة سياسية باستثناء بعض الفترات القصيرة .

وجدير بالملاحظة أيضاً ، أن تاريخ بلادنا الحربي لم يكتب بعد كتابة فنية ، فقد اعتاد مؤرخونا على أن يدمجوا الأحداث العسكرية ضمن الأحداث السياسية التي مرت بالبلاد ، ولذلك فإنهم لم يتناولوا بطريقة مفصلة دراسة تاريخ البلاد من الناحية العسكرية ، فلم يبحثوا تطور جيوشها ، وتطور صناعات أسلحتها وأساليب قتالها وتحليل معاركها ، وأسباب ظفرنا أو هزيمتنا... الخ مثلما نقرأه عن الجيوش الفرية الأحداث من عهداً ، بل وحضارة... مع أن تلك الدراسة من أهم ما يجب علينا معرفته في أثناء مراحلنا التعليمية والثقافية . ولزاماً علينا أن نعي تاريخ جهودنا النضالية ، وأن ندركه حق الإدراك . إذن ، فلنقرأ في هذه الصفحات القليلة ، هذا التاريخ الناصع ، للإفادة من دروسه وعبره الكثيرة .. نعم للإفادة من التجارب الظافرة أو الحن الحزينة ، وليس من أجل التسلية وقتل الوقت ...

في هذا الزمن الذي نعيشه ، ينبغي أن نعيد الثقة إلى أنفسنا ، وإلى أبنائنا ، وخاصة إلى المقاتل المصري الباسل الذي يحارب كما قاتل أجداده فوق تراب بلادنا أو في بلاد أخرى دفاعاً عن أمن وطننا ، تماماً كما يدافع اليوم ببسالة وثقة وإيمان في الجبهة . ولا شك أن أولئك المقاتلين يعرفون ويؤمنون بأن لهم

تاريخنا حريياً مجيداً يمتد إلى آلاف السنين الغابرة ، فقد أسهم أجدادهم كما قلنا
في مئات من المعارك التي خاضوها دفاعاً عن الوطن الكبير ، فإذا أعيدت الثقة
إلى نفوسهم وأدوا واجبهم بإيمان وإخلاص ، لاستطاعوا أن يرفعوا شأن وطننا
ليقتبوا مكانته السامية . وسيحققوا هذا الهدف قريباً بإذن الله ...

إننى لمدين حقاً لجميع المؤرخين الأفاضل الذين استعنت بمؤلفاتهم في تدوين
هذه الصفحات ، فلولاً جهودهم العلمية السابقة لما استطعت أن أسجل حرفاً .
غلهؤلاء جميعاً خالص الشكر وجميل العرفان .
وقفنا الله دواماً ، إنه مجيب الدعوات .

عبد الرحمن زكى

القاهرة : يوليو ١٩٧٠

الفصل الأول

الجيش في عصر الولاة العرب

مصر العربية

بزغ نجم الإسلام في الجزيرة العربية ، وتدقت الجيوش العربية إلى الشرق والشمال والغرب . . وكانت عدة قبائل عربية مهدت لها السبيل من قبل فاستوطنت مشارف البلاد العربية .

فتح العرب الشام ، ولما عرض القائد عمرو بن العاص على الخليفة عمر ابن الخطاب ، فتح مصر ، وافق على رأيه وطلب منه أن يجعل الأمر سراً ، وأن يسير بجنوده إلى الجنوب سيراً هيناً . فسار عمرو ليلاً في جيش صغير من الفرسان حتى صار عند رفح ، وفي أثناء وجوده فيها ، أتت رسل الخليفة تحمل رسالة منه للقائد العربي . فظن عمرو إلى ما فيها ، وظن أن الخليفة ربما قد عاد إلى الشك والخوف من الإقدام على هذا الفتح . ولكنه أحس أن جيش العرب إذا دخل مصر كانت عودته عنها خذلاناً للمسلمين . وعلى ذلك أرسل كتابه ، وطلب من عمرو أن يعود إذا كان في فلسطين ، فإذا كلن دخل أرض مصر ، فليسر على بركة الله ، ووعد أن يرسل له الإمداد .

لهذا لم يأخذ عمرو الكتاب من الرسول حتى عبر مهبط السيل الذي ربما كان الحد الفاصل بين أرض مصر وفلسطين ، وبلغ بسيره الوادي الصغير الذي عند العريش^(١) وهناك أتى بالرسالة ، قرأها . ثم سأل من حوله : أنحن في مصر أم في الشام ؟ فأجيب : « نحن في مصر » ، قرأ على الناس رسالة الخليفة ، ثم قال : « نسير في سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين »^(٢) . هكذا دخل العرب سيناء وصاروا

(١) لاسمها القديم « رينوكورورا » أي مجذوم الأنف ، قامت على أنقاضها العريش وهو الاسم الذي أطلقه عليها العرب ، وهي أول الثغور المصرية في الشرق . وقد شيدت فيها قلعة بعد الفتح العثماني ، كانت أنقاضها باقية حتى الحرب العالمية الأولى وما بعدها بقليل .

(٢) بتل وترجمة محمد فريد أبو حديد . فتح العرب مصر ، ص ١٧٣ — ١٧٥ .

أمام العريش ، وكانت خلواً من جيش البيزنطيين ، مع أنها كانت مدينة محصنة ، وكانت أسوارها لا تزال منها بقية مائلة بإزاء البحر المتوسط .

أقام الجيش العربي عيد الأضحى في العاشر من ذى الحجة من عام ١٨ هـ (١٢ ديسمبر ٦٣٩) ، ثم غادر العريش ، وسار في الطريق الساحلى إلى الغرب بعيداً قليلاً من البحر . . تلك الطريق القديمة التى شهدت مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقبيلز واسكندر الأكبر ، وأسرة المسيح ، ثم وطأها جيوش الفرس مرة أخرى . . وهى طريق القوافل والحجاج بين آسيا وأفريقيا .

وصل الجيش العربي مدينة الفرما ^(١) (بلوسيوم) ، تلك المدينة القديمة التى شاهدت عشرات المعارك الدامية ، وهى مفتاح مصر من الشرق ، وتشرف على هذه الطريق الهامة ، وتلك ناحية البحر ، ويجرى إليها فرع النيل البللوزى ولم يكن مع العرب شئ من عدد الحصار وآلاته ، وكان أمامهم إحدى وسيلتين : إما المهاجمة وفتح الأبواب ، أو التسلح بالصبر إلى أن يضطر الجوع أهلها أن ينزلوا إليهم . ولكن قوة العرب لصغرها كانت لا تقدر على حصار المدينة من جميع أجنابها ، فكانت حاميتها تهبط إليهم من حين وحين لقتالهم . واستمرت الحرب متقطعة مدة شهر أو أكثر ، ثم خرج إليهم جنودها مرة ليقاتلوهم . ولما عادوا إلى مدينتهم ، تبعهم العرب ، فملكوا الباب قبل أن يقتحموه . وكان أول من اقتحم المدينة من العرب « أسميقيع بن وعلة السبأى » ثم تبعه المهاجمون ، وبعد حصار دام قرابة الشهر ، فتحتها العرب في يناير ٦٤٠ وملكوها ، وصارت في أيديهم مقلًا ، تؤمن لهم الطريق المؤدية إلى بلادهم .

أدرك عمرو في الفرما أنه لا يستطيع التقدم للقاعدة العسكرية في بابليون ، ويتقدم منها إلى الإسكندرية عاصمة البلاد إلا إذا وصلت إليه الإمداد عن طريق

(١) الفرما ، ويبرآمون ، ويلوس وبلوسيوم كلها أسماء لمدينة واحدة هى الفرما . وكانت من أمنع المدن المصرية منذ القدم ، موقعها الأصلى على بعد ٢٣ ميلاً جنوب شرقى بور سعيد . ضاعت جميع معالمها وما تبقى منها بعد أن غمرتها مياه البحر المتوسط فى الشمال ، ومياه بحيرة البردويل من الشرق والمزلة من الغرب . كانت بها فى أيام القراعنة حامية عسكرية ، وقد عرفت آنذاك باسم برآمون أى مدينة آمون .

الفرما . إذ لم يكن معه من الجند من يقدر على أن يتركه في المدينة ليحرقها . .
وعلى ذلك قرر عمرو هدم أسوار الفرما وحصونها حتى لا يفيد العدو منها ،
لوعاد إلى تملكها ^(١) فضلا عن حراسة الطريق بين العريش والفرما ، وكان
مضى نصف شهر يناير (عام ٦٤٠) . ثم سار عمرو في طريقه بعد أن لحق به
الإمداد من العرب ، واتجه إلى السبخة التي حول الفرما ، إلى أرض تليها تغطيها
الرمال والأصداف البيضاء ، حتى وصل مدينة الجدول القديمة ، وهي في الجنوب
الغربي من الفرما . ثم اتجه إلى موضع يقع على « قناة السويس » مكانه الآن
مدينة القنطرة . ولعلمهم قصدوا بعد ذلك الصالحية أو في مكان يقع بالقرب منها ،
مخالفين في ذلك أكثر فاتحى مصر الأسبقين . ولكن في وقت فتح العرب ،
كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ما حولها ، فأصبحت الطريق من هناك
صعبة المسلك . ثم سار عمرو من الصالحية (أو القصاصين) إلى الجنوب ، فاجتاز
تلال وادي الطميلات في موقع قريب من التل الكبير . فلما خرج من الوادي
لم يبق أمامه إلا بلوغ بلبس . . التي سقطت في قبضته بعد شهر تقريبا . ثم اتجه
إلى مكان كان يعرف باسم أم دنين يقع على النيل (ضاحية المقس) . وقد لقي
صعوبة في الاستيلاء عليه ، ومن ثم عبر نهر النيل على رأس قواته متجهاً إلى
الفيوم ، وهي خطة جريئة حقاً .

وفي سادس يونيو ٦٤٠ ، وصل إلى عمرو جيش ثان قوامه ١٢٠٠٠ وكان
هدفه هليوبوليس (عين شمس) . ومن ثم اجتاز عمرو نهر النيل ثانية ليقود
هذا الجيش الكبير ، فيجد أمامه جيش البيزنطيين . وكان مصير هؤلاء الهزيمة
المنكرة في يوليو ٦٤٠ . وكان هذا النصر حافزاً لعمرو على أن يحاصر القاعدة
العسكرية الكبرى — بابلون ^(٢) (في مصر القديمة اليوم) . وبعد عدة محاولات
بذلها الطرفان في المفاوضات ، سقط الحصن العتيق في قبضة العرب في ٦ أبريل ٦٤١ .
شجع هذا الفوز المبين — القائد العربي ، على قيادة جيشه إلى الإسكندرية ،

(١) بثر : المرجع السابق ذكره . ص ١٨٨

(٢) يراد ببابلون ، المدينة القديمة والحصن الذي أقامه الرومان في أثناء حكمهم مصر ،
وما زالت بقايا الحصن باقية إلى اليوم في قصر الشمع في الطريق المؤدية إلى متحف الآثار القبطية .

وبعد مسيرة موفقة على حافة الصحراء ، تم حصار عنيد لأسوار العاصمة ، سلمت الإسكندرية للعرب في ٨ نوفمبر ٦٤١ بشرط أن لا يدخلونها إلا في ٢٩ سبتمبر ٦٤٢ . وقد قضى عمرو تلك الفترة — بين التسليم ودخول العرب الإسكندرية — في بناء العاصمة العربية الأولى — القسطنطينية ، شمال حصن بابليون ، وتشييد جامعته الكبير الذي كان أول مسجد شيد على الأرض الأفريقية .

وفى أعقاب تلك الأحداث ، استولى العرب على جميع أنحاء الصعيد ،
فدانت لهم مصر بالولاء والطاعة . وأصبحت منذ ذلك الحين ، أى فيما بين
٦٣٩ و ٩٦٨ ولاية خاضعة للخلفاء الأمويين والعباسيين من بعدهم ، حتى استقل
بها أحمد بن طولون .



مسير الجيش العربي من القسطنطينية إلى الاسكندرية

الجيش العربي في عصر الولاة

بعد أن تم للعرب بقيادة عمرو بن العاص ، فتح مصر (٦٣٩ — ٦٤٠) بقيت بها حامية عربية . وقد حرم الخليفة عمر على جنود هذه الحامية ، كما كان الحال في سائر الأقاليم المفتوحة ، الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض لئلا يركنوا إلى الكسل ، ويسيطر عليهم حب المال والتقاعد عن الحرب ، فيصعب عليهم الانتقال إلى إقليم آخر إذا دعوا لحمايته أو فتحه من جديد ، أو الدفاع عنه . وقد كتب الماوردي في ذلك قائلاً : « إن من واجبات أمير الجيش ألا يمكن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرف الاهتمام بها عن مصابرة العدو وصدق الجهاد » . فما هي إذن الأرزاق التي كانت تعطى للجنود وأسراتهم ، وبعبارة أخرى كيف كان التنظيم المالي للجيش العربي ؟ .

ينسب المؤرخون تدوين الدواوين إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين اتسعت رقعة الدولة العربية في عهده . فكان لا بد من ضبط الأمور وتقرير العطاء المفروض للجنود وأسراتهم ، إلى غير ذلك مما تتطلبه أمور الدولة بعد اتساعها ^(١) . كان في مصر ديوان للجنود تدوّن فيه أسماؤهم وأسراتهم لتقدير العطاء والأرزاق اللازمة لهم ، وأول من دوّن للجنود في مصر هو عمرو بن العاص ، ثم دوّن عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) تدويناً ثانياً ، ودوّن قرة ابن شريك (٩٠ — ٩٦ هـ) التدوين الثالث ، ثم دوّن بشر بن صفوان (١٠١ — ١٠٢ هـ) التدوين الرابع . وكان أهل الديوان يثبتون على حسب قبائلهم التي ينتمون إليها . ولسنا نعرف ما الذي كان يراعى في تقدير العطاء والأرزاق ، إذ أن المصادر التاريخية لا تذكر شيئاً من هذا . ولا نعرف منها سوى أن الوالي كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجنود وأسراتهم ، أو يطلب من أصحاب الكور إرسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان . ويذكر الماوردي ^(٢) أن تقدير العطاء كان يحىث

(١) الدكتور سيدة إسماعيل كاشف : الجيش والبحرية في مصر من الفتح العربي إلى بداية العصر الطولوني ، ص ١١ — ١٣ ، رسائل الثقافة الحربية رقم ٤٨ .

(٢) الأحكام السلطانية ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

يفنى المرء عن الاشتغال بخدمة أخرى تشغله عن القتال والحرب . وكان يراعى في تقدير العطاء ثلاثة أمور : أحدها عدد من يعوله الفرد من الذراري والرقيق ، والثاني عدد ما عنده من الخيل ، والثالث ظروف الموضع الذي يحل فيه من الغلاء والرخس . وإذا مات عربي من الديوان أو قتل قد يصبح عطاؤه إرثاً من بعده يأخذه ورثته .

اشترط على المصريين ضيافة الأجناد ، فمن نزل عليه جندي واحد أو أكثر وجبت عليه ضيافته ثلاثة أيام ، وهذا كان يوفر على الجند كثيراً من العناء وعند انتقالهم من جهة إلى أخرى في أنحاء مصر .

عنى الخلفاء بأمر حامية مصر وذلك لخطورة موقعها وعظم شأنها . فمصر تقع في منطقة يسهل منها التوسع جنوباً وغرباً وشرقاً ، وشمالاً عن طريق البحر المتوسط . فقد أصبحت قاعدة للفتوح العربية والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها . أما إذا تطرق إليها الضعف فيهددها الغزو من هذه الجهات . ولقد زادت حامية مصر بعد الفتح العربي زيادة ملحوظة . فقد كانت حامية الإسكندرية اثني عشر ألفاً بين عامي ٤٣ و ٤٤ هـ ، ولكن قائد هذه الحامية كتب إلى عتبة بن أبي سفيان وإلى مصر يشكو قلة من معه من الجند .

ونعلم أن في خلافة عثمان بن عفان ، خرج إليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو أفريقيه . كما خرجت في خلافة معاوية بن أبي سفيان لغزو أفريقية أيضاً . ولما استقر الأمر لبني أمية عاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر وتطلع الجنود نحو الغرب ولكنه توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) وخلفه إبنه عبد الله ثم عزله الخليفة معاوية وولى معاوية بن حديج الذي خرج بأمر من الخليفة على رأس جيش من حامية مصر سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) ، فهزم جيشاً بيزنطياً كبيراً نزل من البحر عند سوسة الحالية واستولى على حصن جلولا ثم رجع إلى مصر محملاً بالغنائم . وفي عام ٦٧٠ م بدأ فتح أفريقية فتحاً منظماً على يد عتبة بن نافع ، ثم تعاقبت الحملات حتى كللت حملة موسى بن نصير بالنجاح التام ، وكان ذلك .

أيضاً أهل منطقة البشرد (البشور) في شمال الدلتا^(١) ، لكنه لم يستطع القضاء على ثورتهم ، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه .

وبعد قيام الدولة العباسية ، تفادى القبط وخمدت ثورة البشوريين ، إلا أن المشكلة المالية لم تنته ، وعادت إلى ما كانت عليه في أيام الأمويين ، فلم تمض ثلاث سنوات على قيام بني العباس بمصر حتى ضوعف الخراج على القبط ولم ينفذوا ما وعدوا به من التخفيف عنهم^(٢) . ولكن حدث من ناحية أخرى أن قرر الخليفة السفاح أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الإسلام ويقيم شعائره ؛ فتغلب كثير من القبط الأغنياء أو الفقراء عن دينهم واعتنقوا الإسلام بسبب أعباء الجزية ، ولكن سرعان ما عاد القبط الذين بقوا على دينهم إلى الثورة . فنار قبط سمند في سنة ١٣٥ هـ (٧٥٢) في ولاية أبي عون الأولى على مصر ، فبعث إليهم جيشاً لمحاربتهم ، فهزموا وقتل أبو مينا زعيم الثورة . وفي ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة على مصر ثاروا ثانية في سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) وانضم إليهم أهل البشرد وبعض جهات الوجه البحري ، ولكن العرب هزموا أمام القبط (الخطط ج ١ ص ٧٩) ، وثاروا مرة ثانية بعد سنوات في ولاية موسى ابن علي اللخمي فهزمهم .

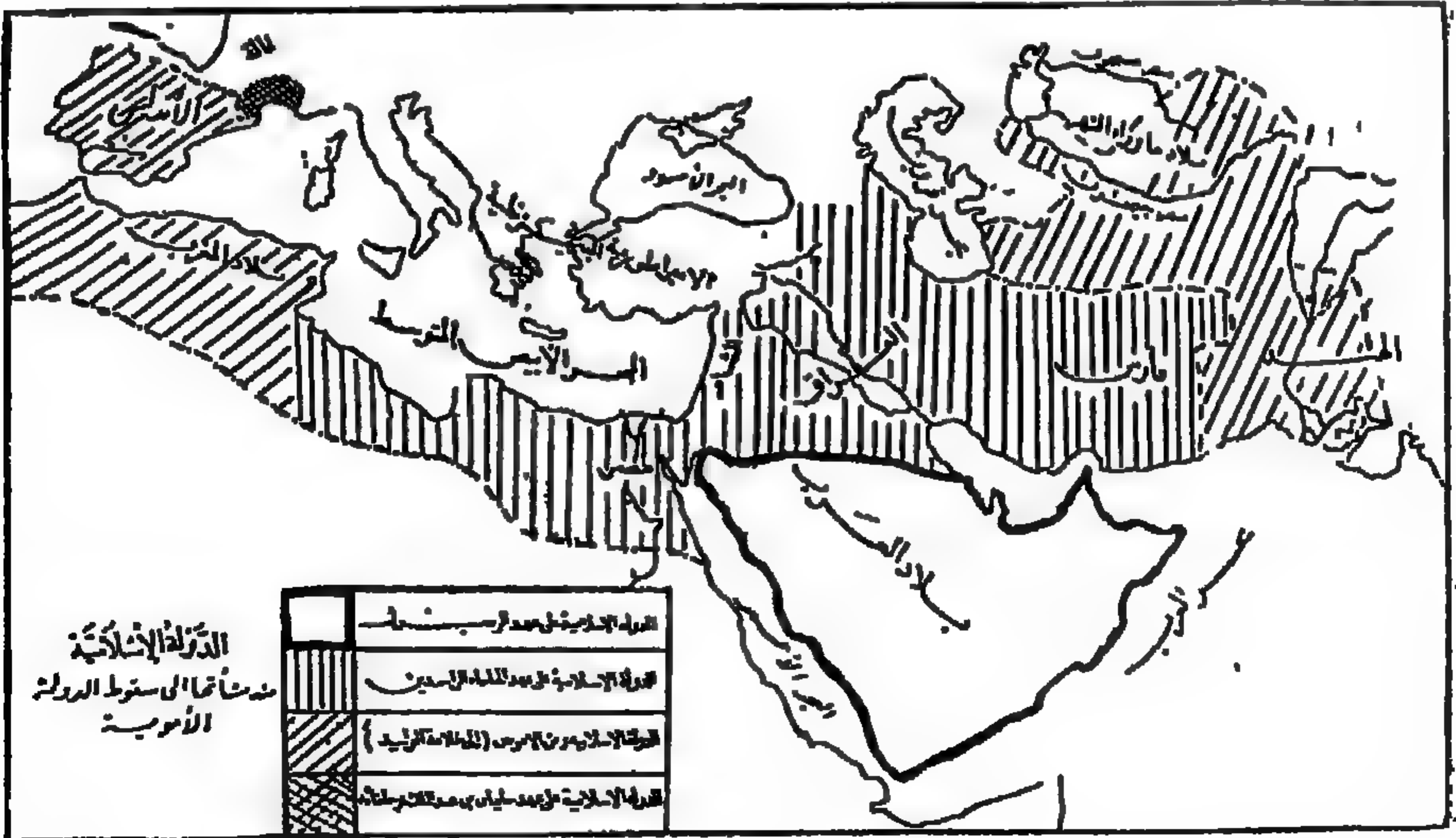
وتمدنا المؤرخة سيدة إسماعيل كاشف بمعلومات وثيقة عن ثورة القبط في أيام الخليفة المأمون ، فنقول : « كانت آخر ثورة للقبط تلك التي حدثت في سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) زمن الخليفة المأمون أثناء ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل المعتصم ، إذ ثار أهل الوجه البحري كلهم سواء في ذلك العرب والقبط ، فطردوا عمال الحكومة ، وقدم قائد المأمون من برقة لمحاربتهم ؛ فسار إلى الحوف وهزمهم ، ولم يستطع قائد أن يهزم أهل البشرد حتى جاء المأمون إلى مصر . وعما لا شك فيه أنه مما شجع هؤلاء على الثورة طبيعة المنطقة التي

(١) إقليم البشور هو المنطقة الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد وقد عرفت في التاريخ القديم باسم بيكولي (Bucolies) التي حدثت فيها حرب الزراع في عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس . سيدة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص ١٤٤ — ١٤٥ بالهامش .

(٢) ساويرس : سير الأبناء البطارقة ، ص ١٨٨ — ١٨٩ .

يعيشون فيها فهي رملية ، وتحيط بهم المستنقعات والأوحال التي تعيق حركة الجند ، وبالرغم من تحذيرهم فقد تمادوا في ثورتهم ، ورأى المأمون أن يأتي إلى مصر لإخماد حركتهم ؛ فجاء على رأس جيش وصحب معه البطريق ديونوسيوس بطريك أنطاكية .

حاول المأمون أولاً أن يخذ ثورة البشموريين باللين فأرسل إليهم البطريق أنبا يوساب والبطريق ديونوسيوس ووعدهم ألا يعاقبهم إن هم سلموا ولكنهم لم يطيعوا البطريقين ، فسير إليهم قائد قواته بجنده ولكنهم قاوموا جنده بشدة ، فلما علم المأمون بذلك سار إليهم بجيشه وركز جميع قواته ضدهم إلى أن سلم البشموريين فأعمل الجند فيهم السيف ، وهدموا بيوتهم وكنائسهم . وغادر الخليفة المأمون مصر بعد أن استتب أمور البلاد. وكانت هذه الثورة آخر ما قام به القبط في عهد الولاة العرب . ولم تكن هذه الثورات حركات قومية دائماً ، وإنما كانت في الغالب حركات غير منظمة لم يعرف القبط فيها كيف يوحّدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادات حكيمة . . .



الدولة الإسلامية منذ نشأتها إلى سقوط الدولة الأموية

الفصل الثاني

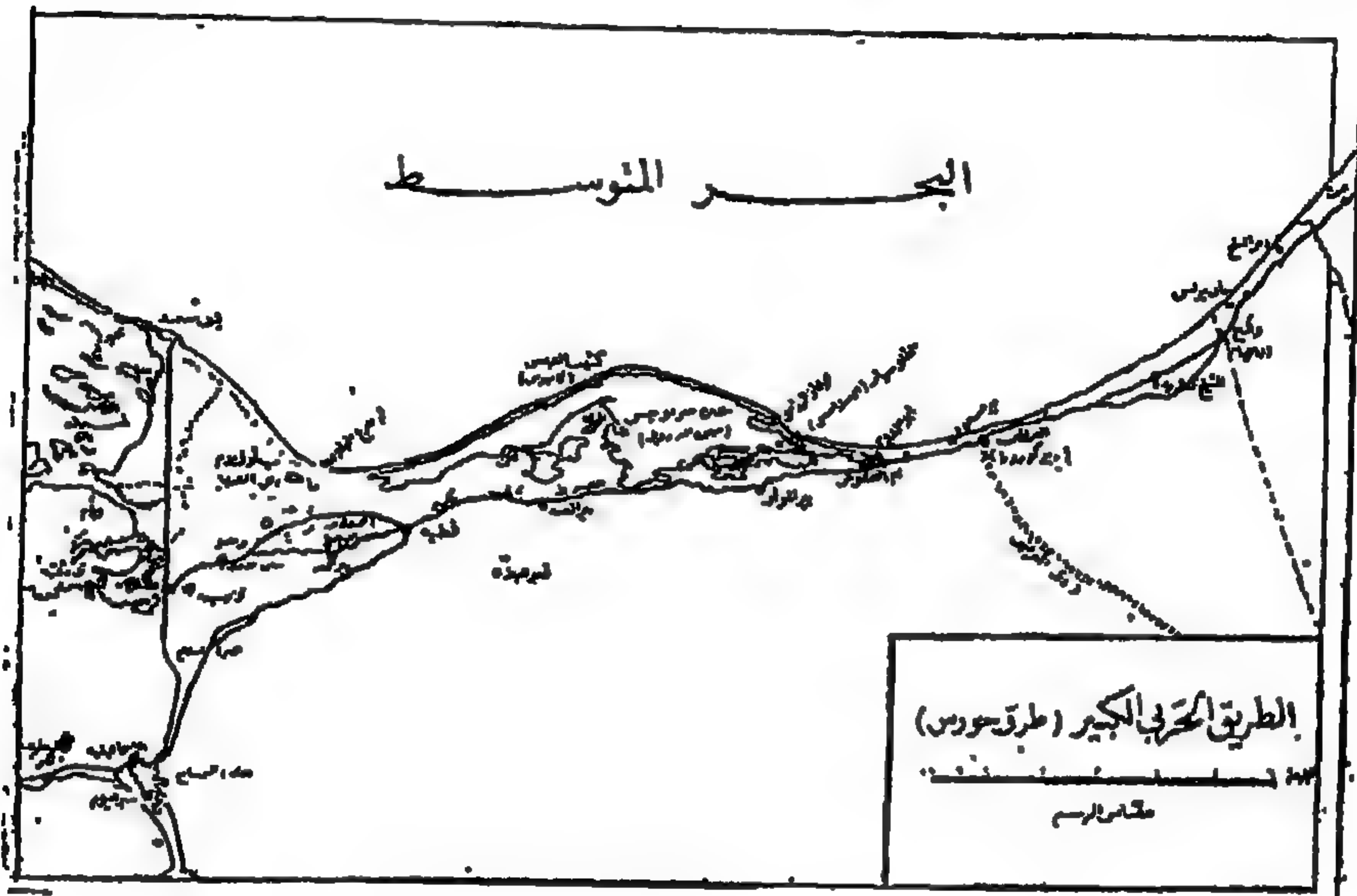
الجيش في عصر الطولونيين

(٨٦٨ - ٩٠٥ م)

أصبحت مصر بعد الفتح العربي قلب الأمبراطورية الإسلامية العربية وظلت جزءاً منها إلى أن ضعفت الخلافة العباسية ، وترك الخلفاء حكم البلاد . ومعالجة سياستها للوزراء والقواد غير العرب ، فاستأثروا بالسلطة ، وعمت القوضى أجزاء الدولة — وبدأت الحركات الانفصالية في بعض الولايات ومنها مصر حيث ظهر أحمد بن طولون :

قدم أحمد بن طولون الفسطاط قاعدة الدولة المصرية وعمره لا يتجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعاً لتسلم زمام السلطة العسكرية ، وسرعان ما ظهر نبوغه في الشئون الإدارية والحربية وبحلى نشاطه . أتى إلى مصر من قبل الخليفة ومات . تاركاً دولة قوية وجيشاً وأسطولا . وكان أحمد بن طولون طموحاً إلى المجد فعمل على استخلاص ملك مصر لنفسه من أول يوم وطأت فيه قدماه وادى النيل . وللمرة الأولى في تاريخ البلاد منذ الفتح العربي أصبحت مصر في أيامه دولة قوية مستقلة ، فغلب على مثيري الفتن في البلاد ، وأخضع ثلاث ثورات شبت في أنحاء مصر ، ثم سار إلى الشام واحتلها . ووصلت جيوشه إلى الفرات وحارب الروم ووحد تحت سلطته أمبراطورية مترامية الأطراف تمتد من برقة إلى حدود الامبراطورية الرومانية في آسيا الصغرى ، ومن نهر الفرات إلى شلالات النيل الأولى . واهتم ابن طولون بتحسين الفسطاط فأمر ببناء حصن على الجزيرة التي بين الفسطاط والجزيرة (جزيرة الروضة) كما أنه شيد داراً لصناعة الأسلحة والسفن . ولم يدم الحال طويلاً لأسرة الطولونيين ، فقد عادت مصر ثانية إلى سلطان الخليفة العباسي وأصبحت إحدى ولاياته التي يشرف عليها أحد أمرائه . ومع ذلك ..

فلم تنج مصر من هجمات الفاطميين بعد تأسيس دولتهم الجديدة في المغرب .
فأرسلوا جيشاً اخترق البلاد المصرية وعسكرت جنودهم أمام شاطئ النيل .
في الجيزة حيث حفر جيش الخليفة خناده بقيادة « ذكا الرومي » ، ولكن
انتهز المصريون عليهم وطردهم القواطم عام (٩٢٠ م) . وسنرى بعد ذلك
ما كان عليه جيش الطولونيين .



الطريق الحربي عبر شمال سيناء

الجيش الطولوني

أصبحت مصر بعد الفتح العربي عضواً في الدولة العربية الكبرى، إلى أن بدأ ضعف الخلافة العباسية على يد الجنود الأتراك، ومهد ذلك إلى تفكك أوصال الدولة .

وفي أثناء الخلافة العباسية بزغ نجم أحمد بن طولون ، فاستقل بولاية مصر ، بعد تغلبه على مثيري الفتن في أنحاء البلاد ، وأخضع عدة ثورات ، ثم اتجه إلى سورية واحتلها ، فوصل بجيوشه إلى طرسوس والفرات وحارب جيش الخليفة والبيزنطيين ، حتى تمكن من إنشاء دولة غنية قلبها مصر ، وجناحها عند الفرات و برقة ، وامتدت جنوباً إلى النوبة . ثم هذا بفضل الجيش المصري الفتى الذي أسسه أحمد بن طولون .

لم يلق ابن طولون صعوبة في تأليف هذا الجيش الوطني، لأسباب كان منها ضعف القوات التي كان يرسلها الخليفة العباسي إلى مصر ، وكانت الجنود الترك والمرتقة قد حلوا محل الجنود العرب منذ أيام الخليفة المعتصم بالله الذي عمل على إبعاد العنصر العربي عن إدارة الجيش وقيادته ، وقد نتج عن ذلك اختلاط الجنود العرب بالمصريين ، فتبادل العنصران المزايا العسكرية والإدارية ، مما كان له أثر حميد على الجيش الوطني الجديد .

ولا شك في أن أهم خطوات أحمد بن طولون في سبيل التمكن لنفسه وتحقيق أهدافه هي بناء الجيش المصري الذي لا يعتمد على الخلافة ، إنما يعتمد عليه ويدين بالولاء لابن طولون ، ويكون عدته في تنفيذ أهدافه . وكانت نواة جيشه ، مائة غلام كانوا حرساً خاصاً لعامل الخراج أحمد بن المدبر الذي سلب منه أحمد بن طولون السلطة بدهائه وقوة شكيمته . وتفصيل ذلك أنه لما وصل أحمد إلى مصر أهدى إليه ابن المدبر هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار ، فرأى الأول في بطانة ابن المدبر مائة غلام « لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس شديد ، وعليهم أقبية ومناطق ثقال وبأيديهم مقارع غلاظ ، على طرف كل مقرعة

مقمة من فضة ، وكانوا يقفون بين يديه في مجلسه ، فإذا ركبوا بين يديه فيصير له بهم هبة عظيمة في صدور الشعب » . فلما بعث ابن المدير بهديته إلى ابن طولون . ردّها إليه . فقال ابن المدير إن هذه هبة عظيمة من كانت هذه همته ، وعمل سرّاً على إبعاده ، فلم تكن غير أيام حتى بعث ابن طولون إلى ابن المدير يقول له : « قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ، فرددتها توفيراً عليك . ونحب أن نجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك ، فأنا اليوم أحوج منك » . فقال ابن المدير ، لما بلغت الرسالة ، هذه أخرى أعظم مما تقدم . ولم يجد بداً من أن يبعثهم إليه ، فتحوّل هبة ابن المدير إلى ابن طولون . تألفت من هذا الحرس الخاص ، النواة الأولى لجيش ابن طولون في مصر . وشاءت الأحوال بعد ذلك خدمة ابن طولون ، فتسلم أعمال الإسكندرية من إسحق بن دينار ، ثم أرسل إليه الخليفة ابن المتوكل العباسي يطلب إليه إخماد حركة عيسى بن شيخ الشيباني في الخروج عن طاعة بغداد قبل أن يستفحل أمره في فلسطين والأردن ، وأرفق الخليفة أوامره لابن المدير لكي يضع تحت تصرف ابن طولون ما يحتاج إليه من المال لإعداد جيش قوى إلى سورية ، فنزل ابن المدير عن سلطانه وأطاع أمر الخليفة مضطراً ، وهكذا تمكن ابن طولون من الإكثار من قواته وتكوين جيش قوى .

وصل ابن طولون إلى سورية دون أن يلحق به أذى ، وكان الخليفة قد بدأ يتحول عن رأيه ، ويكلف تلك المهمة للجنود العراقية ، لأنه خشى عاقبة انتصارات ابن طولون على خصمه ابن الشيخ ، بيد أن ابن طولون كان قد أنجز مهمته وعاد إلى القسطنطينية يحمل لواء النصر ، وأصبح من كثرة جنوده وآلات القتال بحال تضيق به محلاتهم الأولى ، فاخترق قصره العظيم وميدانه الفسيح في موضع قبور المسيحيين واليهود التي كانت عند سفح جبل المقطم فيما يلي القسطنطينية ، وأمر أتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله ؛ فبنوا ثكناتهم واتصل البناء بعمارة القسطنطينية ، ثم اختطت القطائع وسميت كل قطعة باسم من سكنها من السودانيين أو الروم ، وبنى الأمراء مواضع متفرقة لهم .

ذكر المقرئى أن ابن طولون كان أول من أدخل السودانيين في جيش مصر ، وذكر من هذه الطوائف السودانية : الفرحية والريحانية والميمونية والحسينية والنصورية^(١) ، وقد ذكر أيضاً أن عدد السودانيين كان قرابة ٤٠٠٠٠ جندياً و ٢٤٠٠٠ من الترك و ٧٠٠٠ حر مرتزق (المتطوعة) وقد ذكر الكندي أن الجيش الطولوني بلغ في أجمد أيامه مائة ألف مقاتل .

استفاد ابن طولون من التجربة التي عاشها في بغداد وما عرفه من غلبة الترك واستبدادهم ، فخاف أن يغلب على الجيش عنصر واحد يستبد بالأمر ، ولم يكن من القول أن يتخذ جنده كلهم من القبائل العربية التي استقرت في مصر منذ الفتح .

ومن أجل ذلك رغب ابن طولون في أن يكون جيشه خليطاً من عدة عناصر ، وكانت له سياسة مرسومة في السيطرة على هذه الطوائف ، فقد جعل ضباط هذا الجيش من الترك المقرئين إليه . ولكي يكون هؤلاء الجند على استعداد دائم كان يدرّبهم تدريجاً شاقاً ، ثم كانت فتوحه سبباً لفتح باب الأمل أمامهم في الثروة والجاه ، وعرف كيف يوفر أسباب الراحة لهم ، يقدق عليهم دون حساب ويدفع أعطيهم في حينها ، ولم تحدث في أيامه ثورة تنسب إلى التخلف في الفوز بالأجور ، وكان في بعض الأحيان يمنح راتب سنة منحة خالصة لهم^(٢) .

عنى ابن طولون بتحسين القساط وأمر ببناء حصن على الجزيرة التي بين القساط والجزيرة «جزيرة الروضة» ليسكون مقعلاً لأهل بيته وذخائره . ووزع أعمال البناء على أمراء الجيش ، وكان يتعهدهم بنفسه كل يوم حتى انتهى العمل منه . كما أنه أمر بتشييد دار لصناعة السفن والسلاح .

ولما خلف خمارويه والده ، لم تقل عنايته بالجيش عن عناية ابن طولون ، بل قد فاقها ، فزاد عدد الجند وأدخل عناصر جديدة إليه . واستكثر من الأتراك في الجيش ، وضم إليه طائفة من المصريين^(٣) ، كما أنه عنى بتجنيد

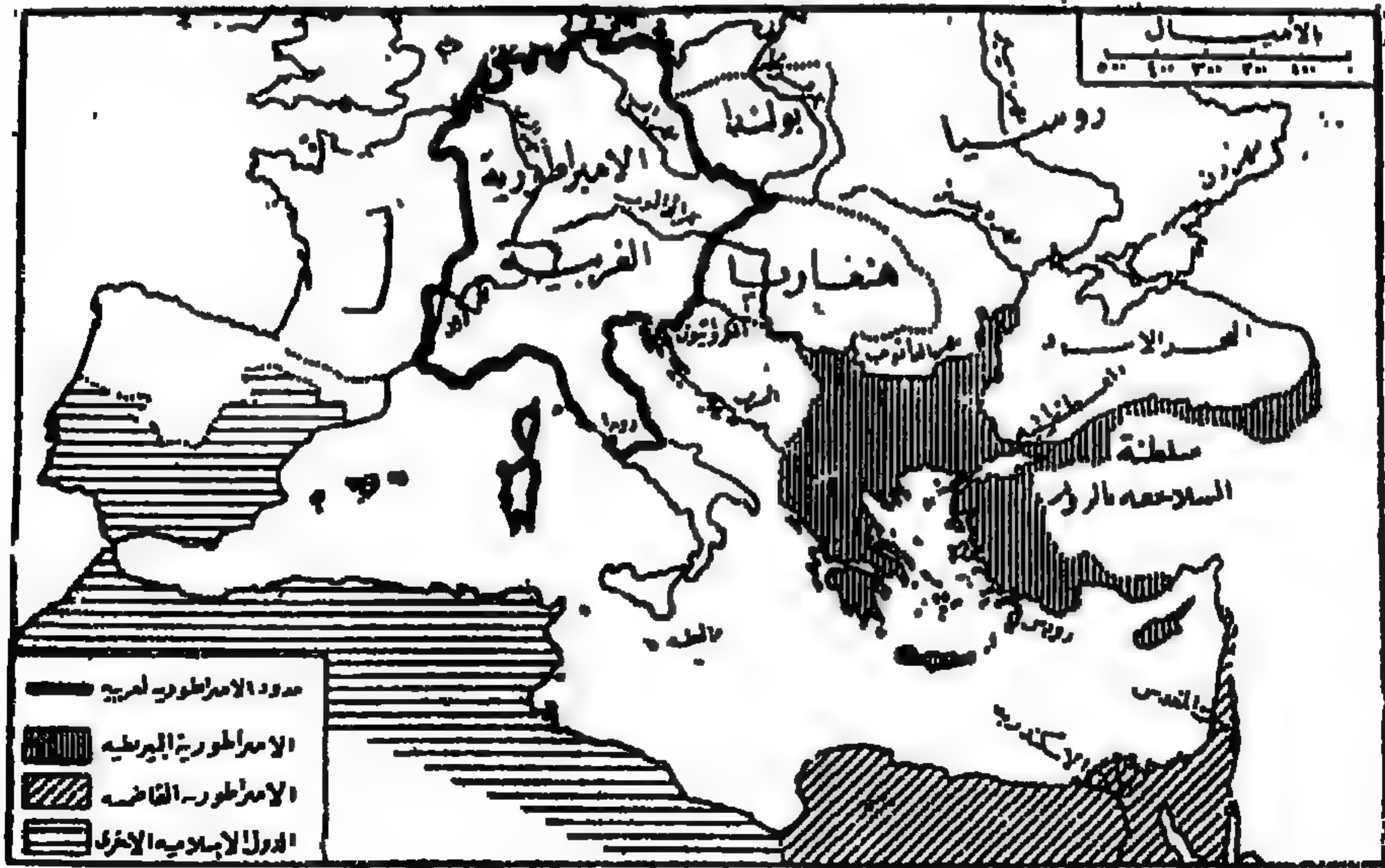
(١) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٢ ، ص ١٤ ، ١٩ ، ٢١ .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٣٦ .

(٣) أبو الفحسن : نجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٢ .

العرب ، فقد جند طائفة من العرب المقيمين في منطقة الحوف وغيرها ، وعنى بتدريبهم وتنظيمهم وتسليحهم وكون منهم فرقة أسماها « المختارة » ، فكانوا بمثابة حرسه الخاص . وقد أسرف خمارويه في عنايته بالجيش ، فقد ألبسهم الأقبية من الحرير والديباج ، وصاغ لهم المناطق وقلدهم السيوف ، وتجلت هذه العناية في مواكبه الرسمية التي كانت على أوفر ترتيب وتنظيم ^(١) وكان لكل عصبية في الجيش سلاحها وزيتها ، وكان يمنحهم أعطياتهم بانتظام ، ويوزع عليهم الهبات ، بالإضافة إلى ما كانوا يحصلون عليه من الأسلاب والغنائم . وقد وصف المقرئى أزياء « المختارة » وصفاً جيداً يمكن الرجوع إليه .

واتفقت معظم المراجع على أن عدد الجيش في أيام خمارويه قد بلغ حوالى ٤٠٠.٠٠٠ جندي ، وبلغت ميزانية الجيش في عهده قرابة ٩٠٠.٠٠٠ دينار . تولى الحكم بعد وفاة خمارويه ، سلاطين ضعفاء ، ولما مات شيبان انتهت الدولة الطولونية بعد حكم دام ٣٧ عاماً وبضعة أشهر ، وعادت مصر ثانية إلى أحضان الدولة العباسية .



الامبراطوريتان الفاطمية والبيزنطية والدولة الأندلسية
ودول شمال أفريقيا العربية

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٧ .

الفصل الثالث

الجيش في عصر الإخشيديين

(٩٣٥ - ٩٦٩ م)

نسبت الدولة الإخشيدية إلى الإخشيد ، وهو اللقب الذي منحه الخليفة العباسي الراضي بالله محمد بن طنج في سنة ٩٣٧ - ٩٣٨ . وكان هذا أكبر أولاد طنج الذي كان والياً على دمشق وطبرية . وقد أبلى محمد بلاء حسناً مع تكيين في قتال الفاطميين وتوثقت صلته به ، وكان يعينه في مناصب هامة في أثناء ولايته على مصر . ثم عينه الخليفة للمقتدر والياً على الرملة ثم دمشق وفيها وطد مركزه ، ثم طمع في حكم مصر قبل وفاة تكيين ، فولبها في عام ٩٣٥ وهو في دمشق آنذاك .

رأى الإخشيد أنه لن يستطيع دخول مصر إلا بالقوة ، فجمع جنوده وضم إليهم من استطاع جمعهم من القادة والجنود الذين وفدوا عليه من أنحاء سورية والعراق والبادية ، وزاد عدد هذا الجيش حتى صعب على الإخشيد تموينه . وكان الماذرائي يعمل ضده في الخفاء ، ويأبى عليه الولاية ، ويعاونه في ذلك أحمد بن كيغلف والي الموجود في مصر قبل ابن طنج .

ومرعان ما بعث أحمد والماذرائي جيشاً إلى حدود مصر الشمالية الشرقية . لينع ابن طنج من دخول القرما . وقرأ الماذرائي على أهل مصر كتاب الراضي الذي يفوض إليه تدير مصر ، ويقر ابن كيغلف على ولايتها ثم أوفد الرسل ومعهم صورة هذا الكتاب إلى محمد بن طنج ، فتابوه عند وصوله إلى القرما . ولما قرأ الإخشيد صورة كتاب الراضي طلب من الرسل أن يحملوها إلى الوزير الفضل بن جعفر وكان ينزل حينئذ في الرملة . ولما وصل الرسل إلى هذه المدينة قبض عليهم الفضل وظلوا في أسره ، وتقدم ابن طنج بجيوشه وخرج أحمد بن كيغلف على رأس جنده ومعه المغاربة بقيادة زعيمهم « حبشي » .

أرسل محمد بن طنج قسما من جيشه في أسطول بقيادة صاعد ، وأفاح هذا الأسطول في الاستيلاء على دمياط وتنيس ، ثم سارت سفنه في النيل . ولقيت مراكب الماذرائي وابن كيغلغ بقيادة علي بن بدر على مقربة من سمبود ، وكان النصر لأسطول ابن طنج في شعبان ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ ، ووصلت سفنه إلى جزيرة الروضة ، وأقامت بها أياما ثم انسحبت إلى الدلتا ، فأمر الماذرائي بشحن الجزيرة بالسلاح والرجال للدفاع عن القسطاط ، وما لبثت سفن ابن طنج أن عادت وأسرت من في الجزيرة ، واستولت على ما فيها من العتاد ، ولكنها لم تستطع أن تدخل القسطاط ^(١) .

أما ابن طنج ، فقد سار على رأس جيشه والتحم مع جنود ابن كيغلغ والماذرائي في معركة خسرها المصريون ، ثم نزل ابن طنج منية الأصبع (شمال القاهرة بالقرب من ضاحية الدمرداش) ، وأرسل كتابا إلى ابن كيغلغ لكي لا يمنعه عن تنفيذ أمر الخليفة . وكان هذا قد سئم استبداد الماذرائيين بتدبير الأمور في مصر ، فأقبل على تسليم البلاد لابن طنج ، واعتذر إليه بأن زمام الحوادث كان قد أفلت من يده وأن جند مصر قاوموه بغير إرادته . ودخل محمد بن طنج القسطاط في أغسطس ٩٣٥ وأشرف الجند منها على شاطئ النيل ، فانضم إليهم زملاؤهم الذين كانوا يقيمون في الجزيرة بعد الاستيلاء عليها . وسرعان ما غادر القسطاط حبشني ابن أحمد قائد الجند المغاربة في مصر وعلي بن بدر قائد أسطول ابن كيغلغ ، وغيرها من القواد الذين قاوموا ابن طنج .

أرسل الفواطم جيشا آخر لغزو مصر ، فأفاح ابن طنج في صده ، وهكذا دانت مصر لابن طنج ، ثم قدم إليها الفضل بن جعفر ومعه خلف الحمد بن طنج من قبل الخليفة الراضي بالله تثبيتا له على ولاية مصر . وبعد مدة غادر الفضل مصر ، فجمع الإخشيد جميع السلطات كما عمل أحمد بن طولون ، وتمكن من التغلب على جميع منافسيه في مصر وسورية وفي العراق أيضا . وقد توفي بدمشق في عام ٩٤٦ ، وكان قد عقد قبل وفاته لولديه أونوجور وعلي وقرر أن تكون

(١) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر في عصر الإخشيديين ص ٧ — ٧٤ .

الوصاية عليهما اغلامه كافور . ولما توفي علي وهو صغير في عام ٩٦٦ ، استقل كافور بالدولة ، فواجه في مبدأ حكمه المشاكل الداخلية والخارجية ، ثم قضى على ثورة قام بها أهل مصر ، كما أوقع بسيف الدولة الحمداني عند ما شرع في السير لغزو مصر ، وتمكن من صد جيش فاطمي قادم لفتح مصر .

توفي كافور سنة ٣٥٧ هـ - ٩٦٧ بعد أن ولى الأمور حوالي ٢٣ سنة ، استقل فيها بالملك سنتين وأربعة أشهر ، وخطب له على منابر مصر وسورية والحجاز والثغور ، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به . وخلفه أحمد حفيد الإخشيد وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشرة ، فعين الحسن بن عبيد الله بن طفج والى الشام وصياً عليه ، غير أنه لم يابث أن استبد بالأمر فسخط عليه المصريون ، واضطر إلى العودة إلى سورية ، وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمي هذا الاضطراب في مصر وضعف بغداد في الدفاع عنها ، لانشغالها بصد غارات البيزنطيين ، فبعث جيشاً بقيادة جوهر الصقلي لفتح مصر عام ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م ، فانتصر على الإخشيديين .



الفارس العربي

الجيش الإخشيدى

على أثر سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب (٩٠٥م)، عادت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية ، وكان ذلك فى أيام خلافة المكتفى بالله . وقد أحرق هذا القائد مدينة القطائع ونهب جنده القسطنط واستباحوا النساء وارتكبوا الفظائع والمنكرات ، ولما رحل محمد بن سليمان من مصر (٢٩٢هـ / ٩٠٤ — ٩٠٥) ، استصحب معه الأمير شيبان بن أحمد بن طولون . . . وبنى معه وأولادهم وأعوانهم ؛ ولم يدع أحداً من آل طولون فى مصر ؛ كما أنه أخرج قوادهم إلى بغداد . ثم آلت ولاية مصر إلى أبى موسى عيسى بن محمد النوشرى .

ولكن تمكن ضابط من الجيش الطولونى اسمه ابن الخليج أن ينفصل عن ركب محمد بن سليمان فى أثناء عودته إلى مصر ؛ والتف حول هذا الضابط عدد كبير من الجند والضباط الذين كانوا فى خدمة بنى طولون ؛ وعقدوا العزم على إحياء الدولة الطولونية ، وانضم إليهم أنصار كثيرون ؛ فهزموا قوات الخليفة فى الرملة والعريش والقرما ؛ وتتابع انتصاراتهم حتى دخلت قوات ابن الخليج القسطنط ؛ فاستعبلها الشعب إستقبالا حسنا ، وسرعان ما أفلح فى جمع الضرائب وفى دفع رواتب الموظفين والجند ، وما لبث أن استولى على الأسكندرية ، واستقر له الأمر فى العاصمة وفى الدلتا .

ولما علم الخليفة المكتفى بثورة ابن الخليج أرسل جيشا بقيادة أبو الأغر وكان فى الجيش الأمير أحمد بن كيغلق وهزم ابن الخليج هذا الجيش شر هزيمة فى أوائل المحرم سنة ٢٩٣هـ / ٩٠٥ وسرعان ما أرسل الخليفة جيشا آخر بقيادة فاتك المعتضدى ، كما أرسل جيشا ثانيا بقيادة دميانة ، وقد التقى فاتك بابن الخليج بالقرب من النورية (إحدى قرى بنى سويف) ، فاضطر ابن الخليج إلى التقهقر وتخلّى عنه كثير من أتباعه فباد إلى القسطنط واختفى عند صديق له ، ولكن خانه هذا الصديق وكشف أمره فقبضوا عليه فى رجب سنة ٢٩٣هـ — ٩٠٥ بعد

أن دام سلطانه قرابة سبعة أشهر وعشرين يوماً ، وأخذ ابن الخليج إلى بغداد حيث أمر الخليفة بقتله^(١) .

الخطر الفاطمي

وفي أعقاب وفاة عيسى النوشري (٢٩٧ هـ — ٩١٠ م) قام بالأمر من بعده ابنه أبو الفتح محمد إلى أن قدم الوالي الجديد أبو منصور تكين بن عبد الله من قبل الخليفة المقتدر . وكان أول ما فعله ، العناية إلى دفع الخطر الفاطمي في المغرب ، فجند جيشاً تولى قيادته أبو النضر أحمد بن صالح بعد أن ولاه علي بركة . وبعد أن استتب له الأمر مدة ، هزم ، فشجع ذلك الفاطميين على الهجوم على مصر ، فوجه اليها المهدي جيشاً بقيادة ابنه أبي القاسم سمنة (٣٠٦ هـ — ٩١٣) فوصل به إلى الإسكندرية والفيوم ، ولكن تمكن المقتدر بالله أن يرسل جيشاً على رأسه مؤنس الخادم من أعلام القواد العباسيين ، وأفلح هذا الجيش في صد القواطم وإرغامهم على الجلاء عن مصر . ومع ذلك فقد عاد جيش فاطمي آخر في العام التالي بقيادة حباسة بلغ عدده حوالي مائة ألف ، وقد جاء هذا الجيش بطريق البحر ، وسقطت الاسكندرية دون مقاومة ، ولكن قدمت الجيوش من المشرق مدداً لتكين والتقت جيوشه بالفاطميين على مقربة من الجزيرة ، فانتصر المصريون وفر حباسة بقلوب جيشه إلى المغرب ، فقتله المهدي .

صعد نفوذ مؤنس وتمكن من عزل تكين عن ولاية مصر ، وأمره بالرجيل منها وأقام مؤنس في مصر يدير أمورها إلى أن عين الخليفة والياً جديداً محل تكين ، هو ذكا الأعور ، وغادر مؤنس البلاد مع جيشه .

عاد جيش الفاطميين إلى مصر مرة أخرى (٣٠٧ هـ — ٩١٩) ، وسقطت الاسكندرية في أيديهم ، ثم استطاع أبو القاسم قائد هذا الجيش احتلال الفيوم والأشموين وجزءاً كبيراً من الصعيد . أما ذكا الأعور (الأعور) فكان مقيماً في القسطنطينية يعمل على الاستعداد لقتال الجيش الفاطمي ويهيئ في حشد جنوده .

(١) الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في عهد الأخشيدين ، القاهرة ١٩٥٥

ولكن عدداً كبيراً منهم كان يأبى الخروج للقتال ، واستطاع ذلك أن يخرج بجيشه إلى الجيزة بلد جهده ، وكان صاحب الخراج حينئذ الحسن بن أحمد الماذرائي . وقد قام بتوزيع العطاء على الجند فأرضاهم . وجد ذلك في التأهب للحرب وأمر ببناء حصن على الجسر الغربي بالجيزة وحفر خندقاً يحيط بمعسكره حتى لا يفاجأه العدو . وما زال ذلك جاداً في القتال حتى مرض وتوفي بالجيزة (٩١٩) م . ولما توفي عهد الخليفة المقتدر بولاية مصر إلى تكين للمرة الثانية . وكان الخليفة قد أرسل جيشاً آخر إلى القسطنطينية ضد الفاطميين ، فأبهم بعث إليه بأسطول على رأسه ثمل الخادم . والتقى الأسطولان الفاطمي والعباسي عند رشيد في شوال ٣٠٧ هـ - ٩١٩ وكانت سفن العباسيين غنية بالنفط وعلية القتال ، فانتصروا على الفاطميين وطيف بسلامة الخادم ويعقوب الكتامي قائد الأسطول الفاطمي مقيدتين ومعهم رؤساء السفن . وبالرغم من هذه الهزيمة ، فقد كانت جيوش الفاطميين تحتل الفيوم وجزءاً من مصر الوسطى ، بيد أن الأمراض وصعوبة التقدم عطلت تلك القوات عن العمل ، وعندما تحركت لقتال تكين في معسكره بالجيزة ، كان النصر حليف الوالي العباسي ، وغاد الفاطميين إلى مصر الوسطى ، وعاد تكين بجيوشه إلى القسطنطينية .

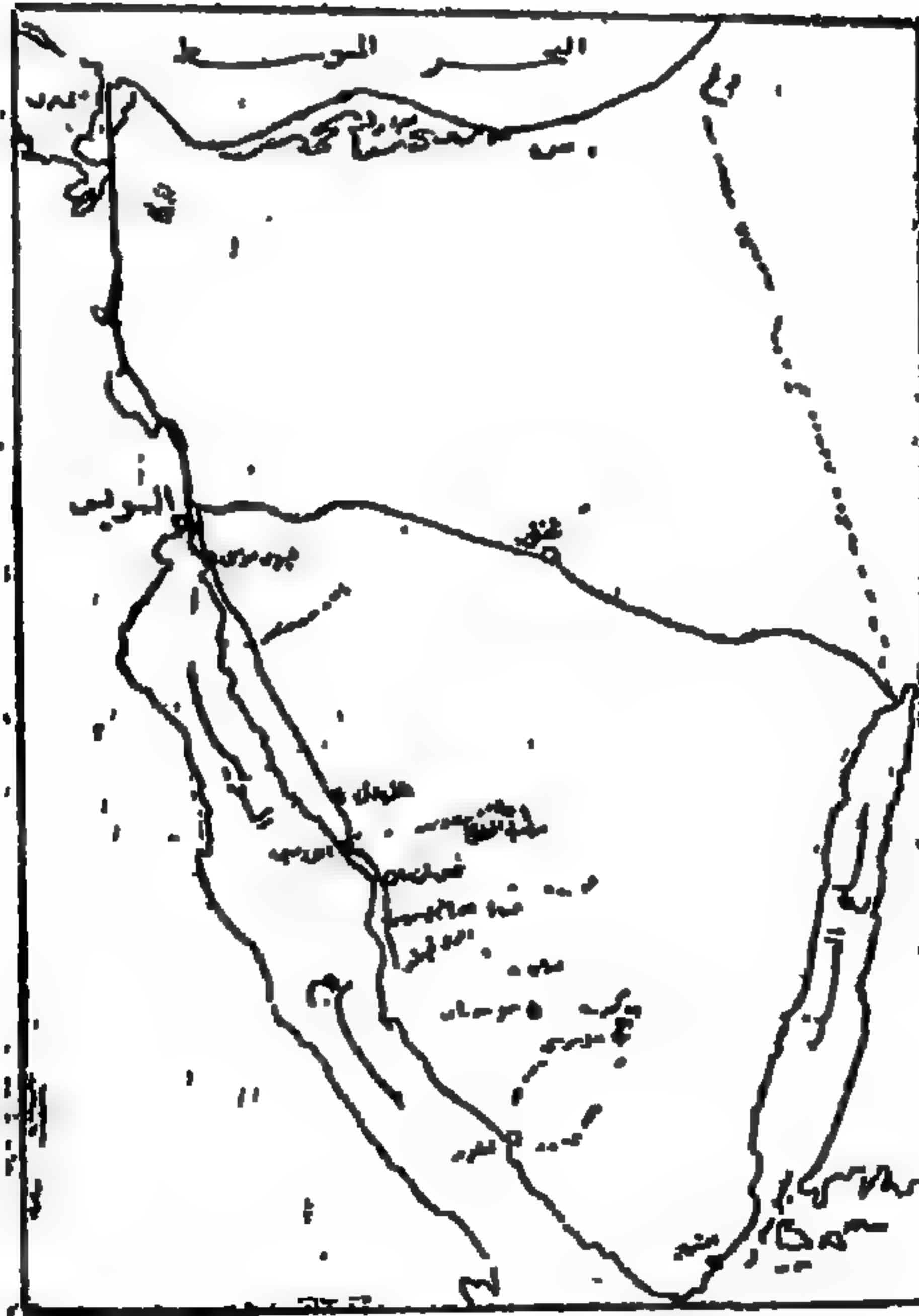
لم يرض الخليفة بتلك النتيجة ، فبعث إلى مصر مدداً قوامه ثلاثة آلاف جندي على رأسهم مؤنس الخادم ، ولكن لم يستطع مؤنس أن يفعل شيئاً ، فأرسلت نجدة ثانية من العراق بقيادة جني الخادم المعروف بالصفواني وسارت الجيوش العباسية إلى الفيوم بقيادة مؤنس وتكين وجني الخادم وأوقعت بالفاطميين عدة هزائم ، وفرت فلول جيشهم إلى برقة .

أدت تلك الحروب المتتالية في البلاد إلى اضطراب الأحوال المالية ، مما دعا محمد بن علي الماذرائي العامل على الخراج إلى الكتابة إلى بغداد ينبهها إلى كثرة الجيوش في مصر وما تحتاج إليه من النفقات الطائلة .

عزل تكين من ولاية مصر وجاء هلال بن بدر بديلاً عنه ، كما استدعى الخليفة القائد مؤنس إلى بغداد ، فخرج من مصر ومعه الجيوش العباسية . ولم تهدأ البلاد في أثناء ولايته ، فعزل الخليفة وأرسل والياً جديداً ، هو أحمد

ابن كيلج ، ولكن الجند ثاروا مطالبين بعباءاتهم ، ولم يستطع أن يكبح جماحهم ، فعزله الخليفة وأرسل تكين للمرة الرابعة (٩٢٤) ، ولما قتل المقتدر وبويع أخوه القاهر ، أقر تكين على ولاية مصر ، ولكن لم تطل ولايته ، بعد ذلك ، فرض ومات (٩٣٣) وكانت البلاد قد استقرت أحوالها . بالرغم من سيطرة الماذرائيين على معظم مرافق الإدارة في مصر .

ونلاحظ أن مقاليد الأمور بمصر في الفترة الواقعة بين الدولتين الطولونية والأكشيدية كانت في أيدي ثلاث قوات : الخوارج ، وقواد الجيش العباسي في مصر ، وأسرة الماذرائيين التي تزح كثير من أفرادها إلى مصر ، فتقلدوا المناصب الإدارية والمالية الكبرى عدة سنين حتى تمكن محمد بن طنج الأكشيد إلى الحشد من نفوذهم .



سيناء مفتاح مصر

الفصل الرابع

الجيش في عصر الفاطميين

(٩٦٩ - ١١٧١ م)

لما نجح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في تأسيس دولته بالمغرب ، عزم على فتح مصر ، فرتب خطته العسكرية وأعد حملته ، ثم سير عليها قائده جوهر الصقلي على رأس مائة ألف من جنوده مستهلا السير من مدينة القيروان في ١٤ ربيع الأول عام ٣٤٨ هـ (٥ فبراير ٩٦٩ م) . فسار جوهر حتى وصل بجيوشه إلى طروجه بالقرب من الإسكندرية وأرسل إلى أهل مصر فأجابوه بطلب الأمان . فأجابهم جوهر إلى ذلك وكتب لهم العهد . فلما علم الإخشيدون بذلك توجهوا لقتاله عند الجيزة ، فوصل جوهر إليها ووقع القتال بينهما حتى سقطت مصر في ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩ م) ، بعدما سار أحد قادة جوهر إلى منية الصيادين (ميت النصارى) وعبر مخاضة منية شلقان (شلقان) الواقعة شرقي القناطر الخيرية في حركة بارعة .

دخل جوهر في اليوم التالي إلى القسطنطينية ثم نزل بالمناخ ، وهو موضع القاهرة اليوم ، واختط المدينة التي أصبحت فيما بعد عاصمة البلاد ، وحفر أساس القصر في نفس الليلة ، وكتب إلى مولاه المعز يبشره بالفتح ويهنئه . وبقي جوهر حاكما على مصر حتى قدم إليها المعز لدين الله ، وجعلها عاصمة دولته الكبرى ، التي امتدت في أثناء حكم الفاطميين من نهر العاصي بالشام شرقا إلى الجزائر غربا ، وشمال السودان الغربي . وقد طغى نفوذهم الروحي بلاد فارس . كما تملكوا عدة جزر في البحر المتوسط ، بفضل نشاطهم البحري مدة قرنين .. وفي ذلك الحين ، وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، أخذ الصليبيون في تحقيق أمنيتهم للاستيلاء على الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين . بيد أن الأمراء المصريين في الشام استطاعوا مقاومتهم بعض الوقت : من هؤلاء عماد الدين زنكي ، والسلطان المجاهد نور الدين محمود .

ولم يستطع الفوالم لضعفهم في أخريات أيامهم مقاومة تلك الحملات الصليبية ، فاستنجدوا بالأمير نور الدين سلطان دمشق .

وفي أوائل يناير ١١٦٨ ، وصل أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي من قبل نور الدين إلى مصر لنجدها ضد جيوش أمريك ملك الفرنج في سورية . فحاول شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمي أن يستميل شيركوه بالمداينة ، فلم يفلح . فقبض عليه صلاح الدين ، ثم أمر الخليفة بقتله ، لما علم باتصاله بأعداء مصر . فاختار العاضد بالله القائد شيركوه ليكون وزيره الأول ، ولقبه بالملك المنصور . غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام ، فاستوزر من بعده — القائد صلاح الدين وجعله أميراً لجيوشه ، ولقبه بالملك الناصر .

وانتهز صلاح الدين فرصة وفاة العاضد ، فقفى على دولة الفوالم في مصر ، وأعاد كلمة العباسيين إلى البلاد مرة أخرى ، ثم أنشأ أسرة الأيوبيين ، وجعل على

الوزارة « بهاء الدين قراقوش » الذي شيد قلعة الجبل . ومن ثم أبدل صلاح الدين نظم الجيش الفاطمي فأزال من صفوفه : السود ، والعرب ، والأرمن ، وجعل الجيش من الأكراد والترك ، ثم ضم إليهم المصريين .



مقاتل عربي

زعيم عربي

الجيش الفاطمي

قامت الأسرة الفاطمية بشمال أفريقيا ، ودانت بظهورها لأبي عبد الله الشيعي في أوائل القرن العاشر بالقيروان ، وما لبث أن عمل عبد الله المهدي على التخلص منه بالقتل ، فأثار الحادث أهالي بلاد المغرب ، غير أن عبيد الله تمكن من إخماد الثورة ، ووجه عنايته إلى إخضاع قبائل صنهاجة بالمغرب الأقصى ، والقضاء على نفوذ أسرة الأدارسة في عاصمتهم فاس ، ثم شيد حاضرة المهديّة على بعد ١٠٧ كم جنوب القيروان لتكون قاعدة ملكه الجديد ، ونادى بنفسه خليفة ، معارضا بذلك الخلافة العباسية ببغداد (٩٠٩ م) ، واستولى على الجزائر وتونس وطرابلس ثم بركة . ومن ثم عمل على توسيع ملكه فهاجم مصر مرات عدة ، لكنه ارتد على أعقابهِ وتوفي عام ٩٢٣ وفي أيام الخليفة اسماعيل المنصور تم الاستيلاء على صقلية في عام ٩٤٦ . وبعد وفاته (٩٥٢) آلت خلافة الفواطم إلى المعز لدين الله الذي فتح مصر بقيادة جوهر الصقلي عام ٩٦٩ ، وأسس مدينة القاهرة ، واتخذها عاصمة للدولة الفاطمية بعد نقلها إلى مصر التي ازدهرت في أيامه ، وبنيت المساجد وأهمها : الأزهر لتدريس المذهب الشيعي والدعوة له . وفي أثناء حكم المعز استولى على غرب بلاد العرب وفلسطين وسورية .

والمعروف أنه كان للفاطمين في أوائل حكمهم في مصر ، جيش كبير جاءوا به من أفريقية ، يتكون من مائة ألف رجل^(١) فكان أكبر جيش عرفته منذ أيام اسكندر الأكبر ، ولكن هذا العدد الكبير انخفض في أواخر الحكم الفاطمي ، كما جاء بالمقريري ، الذي روى أن عدد من كانوا في جداول الديوان في عهد الوزير رزيك بن صالح (٥٥٦ هـ / ١١٦٠) يبلغ أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل .

ومن أهم مراجع الجيش الفاطمي بمصر ما ذكره الرحالة ناصر خسرو والذي زار مصر فيما بين ١٠٤٥ ، ١٠٥٢ في الأعوام الأولى من حكم الخليفة المستنصر

(١) المقريري : المخطط ج ١ ص ٣٧٨ . أنظر أيضا ج ١ ص ٩٤ .

بالله^(١) وقد وصف لنا بدقة في كتابه « سفرنامه » الجيش الفاطمي في أثناء الاحتفال بفتح خليج النيل . وكذلك ما أمدنا به أسامة بن منقذ الفارس العربي . الذي زار مصر في سنة ١١٤٤ وذلك في كتابه « الاعتبار »^(٢) .

أضف إلى هذين المرجعين المعاصرين ، ما جاء في كتاب الخطط للمقريزي . (القرن ١٥) وقد جمعت فيه المعلومات الكثيرة عن النظم الإدارية والعسكرية . والمالية والمعمارية . . إلخ^(٣) .

* * *

كان هناك ثلاثة دواوين تشرف على الجيش ، أولها « ديوان الجيش » ، ويهيمن على الجنود واعدادهم . ثانيها ديوان « الرواتب » ويشرف على تسجيل عطاءات الجنود وجميع موظفي الدولة ، وكان جزء كبير من الدخل ينفق على الجيش . فكان الديوان يشمل أسماء المرتزقين من الجنود ومن استجد منهم أو من مات دون أن يشتمل على أسماء المتطوعة أو البدو . وقد تغير هذا العطاء عدة مرات في أيام الفواطم ، وكان يتناسب مع درجة كل جندي . وقد ذكر ناصر خسرو أن عطاء كل جندي في عهد المستنصر بالله ، بلغ عشرين ديناراً في كل شهر . وثالثها « ديوان الاقطاع » ويختص بما هو مقطع للجنود حيث كانت الدولة تقوم بمنح الاقطاعات إلى الأجناد لقاء قيامهم بالواجبات العسكرية .

كان قائد الجيش يسمى في العصر الفاطمي « اسفهلار العسكر » أي قيادة العسكر ، وكان يضطلع بالقيادة الحربية فقط ، أما أمور الإدارة العسكرية فلم تكن من اختصاصه ، وكان للجيش قادة من الأمراء يتميز بعضهم عن بعض .

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب . مطبوعات معهد اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٤٥ .
(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، حقه وعلق عليه الدكتور فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ .
(٣) دكتور عهد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥ . راجع الفصل الخامس في الجزء الأول : النظم الحربية . ١٩١ — ٢٢٩ .

بعلامات يحملونها في الأعياد الرسمية ، ومن هؤلاء^(١) مرتبة الأمراء وينقسمون إلى ثلاثة أنواع :

(أ) الأمراء الكبار ، ويتحلون بأطواق الذهب في أعناقهم ويسمون « الأمراء المطوقين » ، ويقود كل منهم ألف جندي ، وهم كمقدمي الألوف في أيام الدولة المملوكية .

(ب) أمراء القضب ، وهم يركبون في مواكب الخليفة حاملين في أيديهم قضب من الفضة ، وهي رماح فضية يخرجها لهم الخليفة من « خزانة التجميل » ، ويقود كل منهم مائة جندي وهم كباراء الطبلخانة في الدولة المملوكية .

(ج) أدوان الأمراء ، وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات في العصر المملوكي ، وكانوا يحملون سلاحاً من نوع أقل قيمة من الرماح .

٢ — مرتبة خواص الخليفة ، أو حرسه الخاص وهم ثلاثة أنواع :

(أ) طائفة صبيان الحجر : وكان المعز لدين الله أنشأ سبع حجر وجعلها مكاناً لجماعة من الجيش الفاطمي مؤلفة من الصبيان ممن يختارون من أبناء وجهاء الناس وتتوافر فيهم صفات خاصة . وقد وصل عدد هذه الجماعة إلى خمسة آلاف نسمة وكان القادة والأمراء يختارون من بينهم . وكان لكل حجرة من تلك الحجر اسم خاص تعرف به ، كالفتح والمنصورة ، وأنشئ لخدمة هذه الطائفة اسطبل يقابل حجرهم بجوار باب الفتوح وقد استمرت مبانيها إلى ما بعد عام ١٣٠٠/٥٧٠٠ حينما عمرها بالبيوت .

(ب) صبيان الخاص : وهم أولاد الأمراء والعساكر وعبيد الدولة الذين يقومون بالخدمة الخاصة بالخليفة ، وكان يعنى بتدريبهم على الفروسية وكانت لهم مساكن خاصة بهم

(ج) الأساتذة : يؤلفون فرقة من العبيد البيض والسود ، وخصيان وغير خصيان وغالبيتهم أجنب الأصل . عرفتوا بالأستاذين المحنكين . وأكثرهم حنكة قربوا إلى الخليفة وهم خاصته الذين يطلعون على أسرارهم . ويعين منهم

(١) الفقه شندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٧٦ — ٤٧٧ .

«متولى شد التاج» ، وزم الأقارب ... وكان راتب الواحد منهم مائة دينار في كل شهر^(١) وكانت ملابس الأستاذين تختلف بحسب طبقاتهم ، فالخنكون لهم كسوة مذهبة ، أما غير الخنكين فليس لهم الحق إلا في بدلة حريرية^(٢) . وبالإضافة إلى الطوائف التي ذكرناها ، كانت هناك مجموعة من الأجناد السود يبلغ عددهم خمسمائة رجل ، ومناتهم من الفرسان ، يقومون بحراسة قصر الخليفة والمرور حول أسواره أثناء الليل . وكان لقب مقدمهم «سنان الدولة» . ومن واجباته نفخ البوق ودق الطبل والصنوج بعد صلاة العشاء ، ثم قفل باب القصر وتثبيت سلسلة لمنع المرور بين القصرين ، وترفع عندما ينفخ البوق مرة ثانية في الفجر^(٣) .

٣ — والمرتبة الثالثة هي طوائف الأجناد .

كانت تنسب كل طائفة إلى خليفة من الخلفاء القواطم . الحافظية ، الأمرية . أو إلى وزير من الوزراء كالوزيرية (يعقوب بن كلس) والجوشية والأفضلية . وقد تنسب إلى قبيلة أو جنس كالديلم والمصامدة أو السودان . وهناك أيضا حملة السلاح أو الركابية أو صبيان الركاب ومهمتها حمل السلاح حول الخليفة في المواكب وكان لهذه الطائفة اثنا عشر مقدما (قائد) . ألقاب القادة :

وكان للأمراء القواطم ألقاب ، منها الاسفسهلاز وزعيم الجنود ، وعون العساكر (لقب من ألقاب ناظر الجيش) ، ومدير الجيش ، وثقيب الجيش ، والناظر (خاص بالأموال) والمقر . وجميعها من وظائف أرباب السيوف .
مرتبات الجند :

خصص القواطم ثلث المال الذي يتحصل من الخراج للانفاق على العساكر وكان مرتب صاحب ديوان الجيش أربعين دينارا في كل شهر . وكان يهيمن

(١) مشرفه : نظم الحكم في مصر ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) عبد المنعم ماجد : نظم القاطميين ج ٢ ص ٥٥ .

(٣) عبد المنعم ماجد : نظم القاطميين ج ٣ ص ٣ .

على إدارة الجيش ثلاثة دواوين ، أولها ديوان الجيش وكبيره بعرض الجند ولا يستطيع تغيير مخصصاتهم إلا بأمر من السلطان ، وكان يشرف على نقباء الأمراء الذين يعرفون أحوال الجند ، وديوان الرتب ، وديوان الاقطاع المختص بما هو مقطع للجنود (نصيبهم من الأرض) .

ويذكر شمس الدين بن ظهير الحنفى الحموى^(١) ان مرتبات الجيش (فى القرن التاسع الهجرى) تعطى باعتبار ما يحتاج اليه كل واحد منهم لنفسه وأولاده وأرقائه ودوابه من طعام وكسوة باعتبار غلاء المعيشة ورخصها مع زيادة عن ذلك بمقدار احتياطى لماعسى أن يولد له من أطفال وكل ذلك لمدة سنة ، ويعطون هذا المرتب فى وقت معين عن السنة . وإذا أراد أمير اخراج جندى من ديوانه فلا يجوز له ذلك الا اذا ظهر منه ما يوجب الطرد أو حدث عذر يقتضيه . وإذا أراد الجندى أن يستقيل من الخدمة العسكرية وأن ينقطع عنها جاز له ذلك اذا لم تكن لديوان الجيش به حاجة .

وإذا امتنعت طائفة من الجيش عن مقابلة العدو فإن مرتباتهم واستحقاقاتهم تسقط ان كانوا أكفاء لذلك العدو ، وان كانوا أضعف منه وإن عددا فليس للأمير اسقاط مرتباتهم .

ولما تحدث ابن ظهير عن كتابة ديوان الأموال قال :

لا يتم نظام الدولة إلا بالأمن والأجناد ، ولا يتم أمر الجيش إلا بالأموال . وقال إن أكبر موظفى هذه الإدارة يسمى صاحب الديوان أو كاتب بيت المال . وموارد بيت المال هي :

الجزية — الخراج — العشور — الأجور — الزكاة — الأمان —
القياسات — الغنيمة — الفىء .

(١) كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب لشمس الدين بن ظهير ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة .

عناصر القوات الفاطمية

استمد الفاطميون قواتهم الحربية من عنصرين أساسيين : العنصر المغربي ،
والعنصر الشرقي . فالتجارة وهم من البربر ، أما المشاركة فهم من عناصر الترك
والفرس والكرد، وقد أدخلوا في أيام الخليفة العزيز لموازنة نفوذ البربر بوساطة
برجوان . وكان من أهم قبائل البربر التي مدت الجيش برجالها : طوائف
الكتامية^(١) ، والباطلية والمصامدة والجودرية (نسبة إلى قائدهم جودر) وزويلة
التي جاءت مع جوهر من المغرب .

لما جاء الخلفاء الفاطميون إلى مصر ، شرعوا في تكوين طوائف من
العسكر ، تكون في قبضتهم ، ومن أجل هذا ، شرط المعز على ولاية الأعمال ،
البحث عن يظهرون مهارة حربية من بين أولاد الناس ، وأقر المعز لهم
« حجراً » في قصره يعلمون فيها فنون القتال ، وسماهم بسبب سكنهم في هذه
الحجر باسم « صبيان الحجر » أو غلمان الحجر ، ويجعل القريري هذه الحجر
في القاهرة بجوار دار الوزارة ، قريباً من باب النصر^(٢) . وكان هؤلاء المجندون
يخضعون لنظام دقيق ، فجعل لكل مائة قائد يسمى « زمام » ، وقسموا إلى
قسمين « الحجرية الكبار » و « الحجرية الصغار » . وقد كان على هؤلاء
المجندين أن يتعلموا امتطاء صهوة الجواد بمهارة ، ولذلك أعد لهم اصطبل لدوابهم ،
عرف باسم « اصطبل الحجرية » .

وكانت هناك ، طوائف أو فرق من الجيش تنسب إلى الخلفاء أو إلى
الوزراء أو حتى إلى بعض أفراد حاشية الخليفة . ونذكر على سبيل المثال :
الأمرية نسبة إلى الخليفة الأمر ، والحافظية نسبة إلى الحافظ ، وطائفة الوزيرية
التي يرجع الفضل في تأليفها إلى الخليفة العزيز الذي سمح لوزير ابن كلث
بتكوين حرس خاص به ، ينتسب إليه . ثم ازدادت طوائف جند الوزراء
ولا سيما في عهد وزراء السيف ، لاعتمادهم عليها لدعم نفوذهم ، فنذكر منهم

(١) كان الكتامية عصب الدولة الفاطمية وقوتها في مصر ، ومن زعمائهم أبو محمد
الحسن بن عمار

(٢) المخطط ، ج ١ (ص ١٤٣ - ١٤٤) انظر أيضاً صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٧٢ ، ٥٠٨ .

« الجيوشية » نسبة إلى الأمير بدر الجمالي أمير الجيوش ، والأفضلية نسبة إلى ابنه الأفضل ، والبرقية التي أنشأها الوزير طلائع على اسم المكان الذي أنت منه هذه الطائفة من برقة .

وإلى جانب هذه الطوائف : اليانسية ، على اسم يانس وزير الحافظ ، أو يانس الخادم الذي كان من خدام العزيز والحاكم ، والعطوفية على اسم عطوف الذي كان في خدمة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله .

وعلى مر الأيام ضم الجيش الفاطمي عدة عناصر ، فمنهم السود^(١) من عبيد الشراء ، وقد زاد عددهم في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، وتضاعفوا على أيام المستنصر ، الذي كانت أمه سوداء ، وقد بقيت هذه الفرقة حتى آخر أيام الفواطم ، وقد زاد خطرهم على أمن الدولة في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله .

وكان يضم الجيش الفاطمي في وقت الحرب والسلم ، عناصر غير نظامية من البدو ومن قبيلة لواته البربرية ، كما أنه ضم أيضاً عناصر أجنبية كتلك التي وفدت بصحبة شيركوه وصلاح الدين ، كالأكراد والغز والأرمن والروم والفرنج والجيل (سكان جيلان جنوب بحر قزوين) والترك . ومن العناصر الأوربية الصقالبة وهم السلاف .

ظهر أمر الترك في عهد العزيز بالله فاستكثر منهم وقربهم إليه وأصبحوا منذ ذلك الحين عنصراً هاماً في الجيش الفاطمي وكانوا ينافسون السودانيين ولا سيما في عهد المستنصر بالله فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة . ولما ضاق بهم ذرعاً ، اضطر سنة ٤٦٦ هـ أن يبعث إلى بدر الجمالي وإلى عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدابير شئون دولته ، فاشترط أن يجلب معه الجند الذين يختارهم وكانت غالبيتهم من الأرمن^(٢) .

(١) بدأ ظهور السودانيين في مصر منذ أيام كافور الاخشيدى . ولم يعمل كل من المعز وابنه العزيز على استخدامهم في الجيش .

(٢) عرف الأرمن بالمعارقة تمييزاً لهم عن الاتراك والبربر والسودان وقد تفاعلوا في الإخلاص لأميرهم بدر الجمالي واحتفظ كثيرون منهم بالمسيحية ثم آثروا الإقامة بتمصر على العودة إلى بلادهم

وهذا اليوم أعظم الأعياد في مصر ، ويسمى « عيد ركوب فتح الخليج » .
حينما يقترب هذا الموسم ، ينصب للسلطان على رأس الخليج سرادق عظيم
التكاليف من الديباج الرومى ، وموشى كله بالذهب ، ومكمل بالجواهر ،
ومعد أعظم إعداد ، وهو من الكبر بحيث يتسع كله لمائة فارس . وأمام هذا
السرادق خيمة من البوقلون وسرادق آخر كبير .

وقبل الاحتفال بثلاثة أيام يدقون الطبل ويتفخون البوق ويضربون
الكثوس في الإصطبل ، لتألف نخل هذه الأصوات .

ويسير في ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهب ،
وأطواق وألجم مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلون ،
نسجت لهذا الغرض خاصة ، فلم تفصل ولم تخط ، وطرزت حواشيها باسم سلطان
مصر ، وعلى كل حصان درع أو جوشن ، وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع
الأسلحة الأخرى . وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هودج مزينة ، وبغال
عمارياتها (هودجها) كلها مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة بالؤلؤ . وإن
الكلام ليطول إذا ذكرت كل ما يكون في يوم فتح الخليج » .

في ذلك اليوم ، يخرج جيش السلطان كله ، فرقه فرقة ، وفوجاً فوجاً ،
ولكل جماعة اسم وكفية .

فرقة تسمى « الكتامين » وهم من القىروان ، أتوا في خدمة المعز لدين الله
وقيل إنهم عشرون ألف فارس . وفرقة تسمى « الباطليين » . وهم رجال من
المغرب ، دخلوا مصر قبل مجئ السلطان إليها وقيل إنهم خمسة عشر ألف
فارس . وفرقة تسمى « المصامدة » وهم سود من بلاد المصامدة ، قيل إنهم
عشرون ألف رجل . وفرقة تسمى « المشارقة » وهم ترك وعجم ، وسبب هذه
التسمية أن أصلهم ليس عربياً ، ولو أن معظمهم ولد في مصر ، وقد اشتق اسمهم
من الأصل ، قيل إنهم عشرة آلاف رجل وهم ضخم الجثة . وفرقة تسمى
« عبيد الشراء » وهم عبيد مشترون ، قيل إنهم ثلاثون ألف رجل . وفرقة تسمى
« البدو » وهم من أهل الحجاز . وكلهم يجيدون حرب الرماح قيل إنهم

وفرقه تسمى « الأستاذين » كلهم خدم بيض وسود ؛ أشتريا للخدمة ؛ وهم ثلاثون ألف فارس . وفرقة تسمى « السرائيين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ؛ ولهم قائد خاص ؛ يتولى رعايتهم ؛ وكل منهم يستعمل سلاح ولايته ؛ وعددهم عشرة آلاف رجل .

وفرقه تسمى « الزنوج بحاربون بالسيف وحده ؛ قيل أنهم ثلاثون ألف رجل » ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندي منه مرتب شهري على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال ، ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ؛ وتصرف أرزاق الجند من الخزانة في وقت معين ؛ بحيث لا يرهق وال أو أحد من الرعية بمطالبة الجند . وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا لمصر من أطراف العالم ، ولا يعدون من الجيش ، ومن بين هؤلاء أولاد خسرو دهل . وقد أتت أمهم معهم ؛ وأولاد ملوك الكرج (جورجيا) ، وأبناء ملوك الديلم ، وأبناء خاقان تركستان .

قادة الفواطم في مصر

جوهر أبو الحسن (الرومي الصقلي)

أول القادة الفواطم الذين عرقهم مصر . ولد في بلاد الروم ثم أحضر إلى القيروان . اشترى وبيع عدة مرات ثم انتقل إلى الخليفة المنصور فجعل منه تابعه الخاص . أعتقه المعز لدين الله ابن المنصور وخليفته ، وسرعان ما ارتقى من منصب الكتابة إلى الوزارة ثم أصبح أميراً في الجيش ، وبرز في القيادة فأصبح من أعظم القادة الفاطميين . كانت حملته على المغرب (٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م) أول عمل حربي كبير قام به ثم دان له المغرب بأسره . قاد حملة فتح مصر وتغلب على الأخشيديين (٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م) ومن ثم شيد القاهرة وبني الجامع الأزهر وكل فتح الشام إلى جعفر بن فلاح فاستولى على دمشق (٣٥٩ هـ) ، ولكن نجح القرامطة في التغلب عليه ، فارتد إلى القاهرة وخلق به القرامطة عند أبواب

الاستمر القتال بين الطرفين حتى انتصر إنتصاراً تاماً أمام أسوار القاهرة (٨٣٦١ — ٩٧١ م) . أخذ المعز لدين الله يغير من قائده ورأى فيه تهديداً لسلطانه . استعاد جوهر مكانته بعد وفاة المعز حينما تولى الحكم العزيز ، فأرسله لمقاتلة أفتكين التركي في دمشق . لم يستطع التغلب عليه في الميدان بل أنه أفلح في الحصول من أفتكين على ضمان له بسلامة الارتداد ، فرجع إلى مصر وتوفي في ٢٠ ذى القعدة عام ٨٣٨١ — يناير ٩٩٢ . أنعم العزيز على حسين بن جوهر بلقب أبيه وجعله في رتبته ثم قبض عليه في أيام الخليفة الحاكم وأمر بقتله .

بدر الجمالى أمير الجيوش

كان مملوكاً أرمنياً لجمال الدولة بن عمار ، ولذا عرف بالجمالى . تنقل في عدة مناصب أظهر فيها الكفاءة حتى ولاه الخليفة المستنصر بالله الفاطمى إمارة دمشق (٨٤٥٥ — ١٠٦٣ م) ثم تقلد نيابة عكا . ولما ساءت الأحوال بمصر ، استدعاه المستنصر ليكون المتولى لتدبير دولته ، فاشترط أن يجلب معه من يختارهم من الجند ولا يبقى أحداً من عسكر مصر ، فأجابه المستنصر إلى طلبه . قدم إلى القاهرة (٨٤٦٥ — ١٠٧٢ م) ، فتهياً له أن قبض على جميع أمراء الدولة وتخلص منهم بالقتل . خرج إلى الوجه البحرى ، فأسرف في قتل مدبرى الفتن واستصفى أموالهم ، ثم نزل بالأسكندرية فحاصرها أياماً إلى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كانوا بها ، ثم فعل بالصعيد مثل ما فعله في الوجه البحرى ، فأصلح أحوال البلاد . جهز الجند لمحاربة الثائرين في الشام ولكنه لم يقض عليهم . توفي (٨٤٨٧ — ١٠٩٤ م) بعد أن تحكم في مصر واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط ، وعمر البلاد وأصلحها بعد خرابها . وكان له يوم وفاته حوالى الثمانين سنة بعد أن حكم البلاد إحدى وعشرين سنة . ومن آثاره بالقاهرة تجديده أبواب زويلة ، والنصر بالفتوح ، وقام من بعده ابنه شاهنشاه الملقب بالأفضل

السِّلَاحُ فِي الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ

عرفت مصر منذ القدم شتى أنواع السلاح ، ومن أهمها السيف . وكان له -
نصل مستقيم وقصير لا يزيد طوله على ثلاثة أقدام ، له حدان وطره مدبب -
يستخدم كالخنجر ، وكانت قبضته بسيطة الصنع ومقعرة في الجانبين لسهولة القبض .
عليه ، وترصع أحيانا بالأحجار النفيسة أو المعادن القيمة وكان النصل من البرونز
السميك أو المتفتح قليلا عند الوسط وقد تمتد على طوله شطبة .^(١)

وعند ما دخل العرب مصر ، كان الفاتحون يحملون السلاح العربي المعروف .
في شبه الجزيرة كالسيوف المستقيمة والرماح والقسى . ولا تتحدث المصادر
العربية الأولى عما إذا كان قد احتاج الأمر بعد الفتح العربي إلى العناية بصناعة
السلاح في الوطن الجديد ، أم أن الفاتحين كانوا يستوردونه من بلادهم ، أو
كما كان يقع غنيمة في أيديهم ، وذلك بعد أن إزداد عدد الجيوش التي تتطلبها
الفتوح المتواصلة ، ولا سيما أن مصر كانت قاعدة للجيوش التي وجهتها الحكومات
لفتح المغرب .

وصلت إلينا نصوص كثيرة عن السلاح الفاطمي ومنها ما ذكره المقرئ .
نقلا عن ابن زولاق ، أنه لما استقر الخليفة المعز لدين الله في القاهرة (٩٧٢ م) .
مثل الأشراف والزعماء وكبار الموظفين بين يدي الخليفة وقدمهم إليه جوهر القائد ،
وبعد ذلك تقدم قليلا إلى الإمام ، وأرى الحضور هديته التي أعدها لمولاه المعز
وكانت تتألف من مائة وخمسين فرسا مسرجة ملجعة بعضها مذهب وبعضها
مرصع والبعض الآخر معتبر ... كما اشتملت على أربعة صناديق يرى ما بداخلها
وجعل فيها أواني الذهب والفضة ، وكان في الهدية مائة سيف محلاة بالذهب
والفضة ودرجان من فضة مخرقة فيها ثمين الجواهر والشيشان المرصعة بالجواهر ،
وغير ذلك من مئات الأواني التي اشتملت على طرائف مختلفة انتقاها له القائد

(١) الشطبة هي القناة التي تحفر في متن السيف لجعله أكثر امدانة ويقال سيف مشطوب
وتجمع على شطب

جواهر من ذخائر مصر . ولم يعرف أحد صفات تلك السيوف، وهل كان القائد قد أمر باستيرادها من سورية أو فارس أو قد صنعها السلاحون في مصر .

أفاض مؤرخو العصر الفاطمي في وصف ثروة مصر، ونقل عنهم المقرئ وابن ميسر وقد وصف هذا — الكنوز التي خلفها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وصفا شائعا، كما أنه وصف الهدية النفيسة التي أرسلها إليها البساسيري إلى مصر (٤٥٠ هـ - ١٩٥٨) حين أقام الخطبة باسم الخليفة المستنصر الفاطمي على منابر بغداد . وكان مما بعث به البساسيري ثلاثين ألف قطعة كبيرة من البلور وخمسة وسبعين ألف ثوب من الحرير الخسرواني، وعشرين ألف سيف محلي بالذهب^(١) أما شكل تلك السيوف وزخارفها ونقوشها بالدقة، فأمر ما زال يخيم عليها الغموض، لأنه لم يصل إلينا منها شيء . البتة والظاهر أنه افتقدت في خلال الثورات العديدة التي حلت بمصر في أواخر حكم الفواطم .

أضف إلى هذا أن خزائن القصور الفاطمية كانت عامرة بأنواع السلاح النادرة وكان من بينها السيف العربي المستقيم المسمى بسيف ذي الفقار ومصصامة (سيف) عمرو بن معدى كرب الزبيدي، ذلك السيف الذي اعتبره العرب أمضى السيوف عندهم ونسبوه إلى بلاد العرب الجنوبية، وسيف عبد الله بن وهب الراسبي^(٢) وسيف كافور الأخشيدي، وسيف المعز ودرعه وسيف أبي المعز الحسن بن علي بن أبي طالب، ودرقة حمزة بن عبد المطلب . كما احتوت هذه الخزانة على آلاف الخوذ والدروع والتجايف والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والسيوف الحديدية وصناديق النصال وجناب السهام الخللنج وصناديق القسي والرماح والزرذ والبيض^(٣) .

عتاد الجيش الفاطمي

كان الفاطميون لا يدخرون وسعا في تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج إليه من السلاح والعتاد، ويتضح لنا ذلك فيما جاء في الخطط عن خزائن السلاح الفاطمية^(٤)

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٢٥٣ .
(٢) نسبة إلى راسب وهي قبيلة من بني أسد الذي اشتهروا بصناعة النصال
(٣) جمع بيضة وهي الخوذة أو المنفر وسميت كذلك لأنها تشبه البيضة في شكلها .
(٤) المقرئ . الخطط، ج ٢ ص ٣ ، صبح الاعشى - ج ٢ ص ١٣٨

وكانت خزانة السلاح الرئيسية تقع في القاعة التي كان يطلق عليها اسم « الإيوان الكبير » ، وهي القاعة ذات العمدة ، التي كان يجلس بها الخلفاء في استقبالهم الأسبوعية ، كل اثنين وخميس ، ولكن فيما بعد ، في أيام الخليفة الآخر (١١٩١ — ١١٣٠) ، نقل جلوس الخليفة إلى القاعة المعروفة بقاعة الذهب ، وتحول الإيوان الكبير إلى مستودع السلاح وسمى « خزان السلاح » . وكانت تحتوي على أنواع شتى من الأسلحة التي استعملها الجند ، منها السيوف على اختلاف أصنافها ، والرماح الزان المسماة « القطيمية » ، والأسنة الطويلة المسماة « القنا » والرماح الخشبية « القنطاريات » ، وجعاب السهام ، والدروع وسهام الخنج ، والنشاب ذات الذراعين المثلثة الأركان ، والكرغندات المبطنة بالحديد أو القطن (لوقاية الذراعين) ، والدروع العربية ، والفارسية ، والزررد (الجواشن) ، والزرديات السابلة (الفضفاضة) والتجايف وهي درع الخيل ، وأنواع القسي . مثل قوس اليد التي تشد باليد ، فتخرج السهام التي تشبه الجراد لصغر حجمها ، دفعة واحدة في جهات متعددة ، وقوس الرجل أو القدم التي تشد بدفعها من الرجلين ، وقوس الركاب التي تشد من ركاب الخيل ، وقوس اللولب التي تشد بواسطة لولب ، وقسي تقذف قارورات النقط ، والمنجنيقات ذات الأجسام المختلفة والأبراج والستائر ... الخ .

وهناك خزائن البنود (الأعلام) ، والخيام ، والسروج التي تعد للدواب في زمن الحرب . وكان الجيش الفاطمي يكثر من استعمال الرايات البيضاء ، وقد كانت الرايات الفاطمية تحمل عادة اسم الخليفة والقاب مطرزة على أطرافها ... وكان في الجيش الفاطمي ، طائفة تسمى « النفاطين » ^(١) مهيأة خصيصاً لرمي النفط في القوارير ، أو بآلات الحصار كالمنجنيقات ، أو بالنشاب ، أو في قدور النفط أو من على الجياد .

(١) المتريزي : الخطط ، ج ١ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ — ٣٨٨ ...

السياسة الدفاعية في عصر الفاطميين

١ — أسوار القاهرة وأبوابها

حينما فتح القائد جوهر مصر، اختط القاهرة وسرعان ما حفر أسس أسوارها، كان ذلك في يوم السبت ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م). كان سور القاهرة الخارجى من اللبن وعلى شكل مربع، طول كل ضلع من أضلاعه قرابة ١٢٠٠ ياردة، وكانت مساحة الأرض التى حدها هذا المعقل (الحصن) المربع ٣٤٠ فداناً، منها قرابة سبعين فداناً بنى عليها القائد جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبستان الكافورى، ومثلها للميادين، والباقي وقدره مائتا فدان هو الذى وزع على الفرق العسكرية وعددها قرابة عشرين خطة بجانبى قصبة القاهرة. فاتخذت قبيلة زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم، واختطت جماعة من برقة حارة البرقية، واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر (١).

كان هدف القائد جوهر من إنشاء القاهرة على هذا النمط أن تكون معقلاً حصيناً لرد القرامطة من مدينة مصر «الفسطاط» ليتجنب القتال فيها، فأدار السور اللبن على خطط قواته، وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً، وحفر خندقاً من الجهة الشمالية لمنع اقتحام جيش القرامطة للقاهرة ثم لمصر من ورائها، وكان للقاهرة ثمانية أبواب فى كل جانب من أجنابها بابان، ولم يبق من آثار هذا السور الأول شيء. ومن السهل أن نعرف امتداد القاهرة التى شيدها جوهر إذا تصورنا نقطتين هامتين، وهما أن باب الفتوح الحالى ومعه جامع الحاكم وباب زويلة ومعه جامع المؤيد، يقعان خارج المربع الأسمى للقاهرة المعزية بمسافة قليلة، وكان عرضها ممتداً من باب الغريب خلف الجامع الأزهر من ناحية الشرق إلى الخليج المصرى من جهة الغرب، بالقرب من حى بين السورين (الموسكى). من هنا نرى أن موقع القاهرة قد اختير لغرض عاجل وهو ستر الأماكن القريبة من المدينة الثلاثية: «الفسطاط والعسكر والقطائع»، ووقايتها وحمايتها

(١) أنظر مخطط القاهرة فيما بعد.

من غارات القرامطة الذين كان يهددون مصر على أول أيام الفواطم ، وتنفيذاً للخطة الدفاعية التي كلف جوهر القيام بها أمر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشر أذرع . وقد سجل لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة ، إحداهما في ربيع الأول ٣٦١ هـ والأخرى في ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، وقد تمكن القرامطة من عبور الخندق في الغارة الأولى ولكنهم مع ذلك لم يستولوا على القاهرة .

السور الفاطمي الثاني

يستفاد مما ذكره المقرئ عن سور القاهرة الثاني أن الذي بناه أمير الجيوش بدر الجمالي في عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وقد زاد فيه من الشبالي الزيادة التي بين بابي القوسين اللذين أنشأهما جوهر القائد في سور القاهرة الشمالي وبين السور الحالي الذي يقع فيه باب النصر وباب الفتوح الحاليان ، ومن الجنوب الزيادة التي فيما بين بابي زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر في سور القاهرة الجنوبي ، وبين السور الذي فيه باب زويلة الحالي ، وجعل أكتاف الأبواب من الحجارة وكذلك الجزء الواقع بين بابي الفتوح والنصر فقد شيد بالحجارة . وعلى جانبي زويلة بنيت كذلك بالحجارة على مسافة ١٢٠ متر تقريباً من كل جانب . وقد زالت آثار الأسوار التي بناها بدر الجمالي باللبن ، وأقام صلاح الدين في مساكنها بعض أجزاء منها قطعاً أخرى بالحجر .

وتعتبر أعمال بدر الجمالي (وهي الأبواب الثلاثة) ذات أهمية بالغة لأنها تعتبر معالم بارزة في العمارة العسكرية لعصور ما قبل الحملات الصليبية وهي باقية إلى اليوم في قلب القاهرة القديمة . وسنتكلم عنها بقدر من العناية .

باب النصر

يقع في الجزء الشمالي الشرقي من السور الشمالي ، ويشتمل على برجين ، عرض كل منهما ٨٢٥ م ، وكلاهما مبدآن إلى نحو ثلثي الارتفاع . ويتوسط البرجين مجاز بديع معقود ، عرضه ٧٦ م وارتفاعه ٤٧ م . ويحيط به بعد عمر يمتد مسافة حوالي ١٠٧٧ م وسعته ٨١٧ م ، يعلوه عقد متقاطع الشكل .

ويقوم خلف البرج الشرقي ، برج كبير مستطيل الشكل يحتوي على درج

الولبي ، عرضه ١٦٥ م ويعتبر أجمل نموذج شيد في العمارة العسكرية ، وهو يؤدي إلى الإفريز الذي يعلو مدخل الباب . فإذا صعدنا إلى المر العلو ، بواسطة الدرج لأشرفنا على الثلث الأخير من الأبراج وشاهدنا خصائصها المعمارية الأساسية ، ونلاحظ خمس فتحات في أرضية المر خلف دروة السور ، وتلك الفتحات تحكم جيدا الوجه الخارجى لباب النصر .

وللأبراج ثلاثة طوابق ، يشتمل بناء الطابق الأول على ١٦ مدماكا من الحجارة الملساء . ويلاحظ أن المدماك السابع يشتمل على حلقات دائرية متجاورة تبعد الواحدة عن الأخرى بنحو ١٨٥ م . وهذه تبدو في الوجوه الخارجية للأبراج وبرج الدرج والسور . . . وهذه الدوائر هي أطراف العمد المثبتة في الجدار كرباط بين أجزاء الحجارة الداخلية والوجوه الخارجية للحجارة المصقولة . لهذا فإن هذه العمد قد أقيمت لغرض معمارى هام ، وقد أشار إليها المقرئ في كتابه السلوك^(١) .

والطابق الثانى للباب محلى ببعض الدروع ، منها ما هو دائرى الشكل ومنها ما هو مستدير فى أعلاه فقط ، مذهب الطرف فى أسفله على نمط الدروع النورمانية التى تشاهد فى قطعة نسيج بايو (Bayeux Tapestry) التاريخية . ويوجد على قمة هذا الطابق النقش الكتابى الذى يؤرخ لإنشاء الباب ، وهو عبارة عن شريط من الكتابة الكوفية ، ويعلوه إفريز من الحجر .

والطابق الثالث يعلو مصطبة ، يعلوها برجان منفصلان ، ارتفاع الواحد منهما ٧٦٥ مترا ، وفى كل برج غرفة مربعة ٣٨٠ × ٣٨٠ مترا ، يعلوها قبة غير عميقة التكور من الحجارة ، وتنهض أطراف القبة للذكورة على مثلث كروى وتحوى كل غرفة مزاغل لرمى السهام ، وخلف كل غرفة درج يؤدي إلى المصطبة .

ومما يزيد جمال باب النصر الكورنيش المقوس والإفريز الرشيق الذى تزيينه الكتابات الكوفية المزخرفة . وهذه الكرائيش تمشى مع واجهة

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٥٢٦ ، ج ٢ ص ١٠ - ١٢ .

الباب ، وعلى الأوجه الداخلية للبرجين المربعين العظيمين اللذين يحيطان بالبواب إلى منتصف ارتفاعه .

وداخل العقد وفوق عتبة الباب ، نقشت لوحة مستطيلة من الحجارة ، وكتب عليها بالكوفية :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله على ولي الله » .

وتحت هذه اللوحة ، وعلى العقد المبنى فوق العتبة أضيفت هذه العبارة :
« صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما أجمعين » .

أما الكتابة المنقوشة على الإفريز ، والتي اكتشفها مستر هـ . ك . كاي . عام ١٨٨٢ ، والمنقوشة على وجه مدخل الباب ، فقد قرأها بشيء من التحريف :
« الله العزيز الجبار مباني الإسلام تنشأ لمعاقل الأسوار ، أنشأ هذا بابا لمدينة معزية القاهرة المحروسة حماها الله بأمر مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين أنشأ هذا » .
وتستمر الكتابة على الجانب الداخلي والأمامي للبرج الشرقي كما يأتي :
« أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإيمان كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين أبو الجهم بدر المستنصر عضد الله به الدين وأمتع طول بقائه أمير المؤمنين . سنة ثمانين وأربعمائة .

وعلى البرج الغربي كتبت آية الكرسي بكاملها .

ونقشت على الحائط الغربي لباب النصر عبارة كتبت بعد بنائه ، لم يقف أحد المؤرخين على تاريخها بالضبط ، وهي مكتوبة بخط النسخ ، وتحتمل كتابتها في عصر المماليك وهي :

« بحسب ما رسم نائب السلطنة المعظمة المقر العالي سودون السيفي من عراقة الجمال ، بأن يؤخذ على كل جمل خمسة ، وملعون من يأخذ أكثر من ذلك أو يحدث مظلمة في أيام الدولة العادلة » .

ومنصب « نائب السلطنة هذا كان يلي منصب السلطان ، لكنه بمرور

السنين ضعفت سلطته ، فلم تتجاوز شراء الطعام والوقود للقصر ، ثم ألغى ذلك .
المنصب أثناء حكم السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢ — ١٣٩٩) وكان سودون
آخر من تولى هذا المنصب ، ويمكن تحديد تاريخ الكتابة المذكورة بين .
١٣٨٢ ، ١٣٩٠ م .

سور القاهرة الشمالى

يمتد الجزء الأول من سور القاهرة الشمالى نحو ٢٨٩١ متراً ، ابتداء من .
الواجهة الغربية لباب النصر إلى أن يصل إلى الواجهة الشرقية للبرج الأول .
ويبلغ ارتفاع ممشى السور ١٠ر٦٩ متراً فوق العتبة الجرانيتية لباب النصر ويبلغ
عرض هذا الممشى ٣ر١٤ متراً . وللجانب الخارجى للمشى دورة مسننة تغانثها
٤٨ سنطيمترا . وفى وسط الجانب الخارجى للسور مرحاض يرتكز على خمسة .
كوابيل من الحجارة المزخرفة . ويقوم وراء السور فى اتجاه باب النصر درج
مؤلف من ٢٣ درجة ، ثم ٢٩ درجة تفصلها بسطة ، وعرض كل درجة نحو
٤٠ سنطيمترا وارتفاعها نحو ٢٥ سنطيمترا .

ويمتد القسم الثانى من السور الشمالى حوالى ٤٩ر٠٦ متراً ، وتصل فى نهايته .
إلى البرج الثانى الذى يبلغ عرضه خمسة أمتار ، ويبرز حوالى ٤٧٠ متراً ،
وهو أقل ارتفاعاً من البرج الأول . ولذلك يمر ممشى السور فوقه بعد صعود
ست درجات . وفى البرج قاعة داخلية مساحتها ٢ر٣٠ × ٢م٣٦٨ يغطيها سقف
معقود نصف مستدير ، وفى كل حائط من خيطانها الأربعة مزغل سهام . ويدخل
إلى القاعة من قاعة كبيرة ذات سقف معقود أيضاً . وتمتد هذه القاعة طويلاً فى .
داخل السور إلى برج الدرج ، إلى ما وراء باب الفتوح . وفى الحائط الخارجى
للقاعة (سمكه ١ر٠٨ متراً) مزاغل سهام ، وفوقها فتحات مستطيلة للتهوية ،
أبعادها ٤٤ × ٣٠ سنطى .

البرج الكبير :

إذا عدنا إلى ممشى السور ، وسرنا فى اتجاه البرج المربع الكبير الذى
يعد حوالى ٤٩ر١٣ متراً من البرج الذى انتهينا من وصفه ، وجدنا أنه ليس .

برجاً بالمعنى العادى لكلمة برج ، لأنه تكون فى ظروف عارضة . فباطنه يتألف من السور الشمالى لمسجد الحاكم الذى تقوم عليه مأذنة . ولما شيد سور بدر الجمالى اتصل بالحائط الشمالى للمسجد المذكور ، وبوصول السور إليه اضطر البناء إلى أن يلتف حول اليمين بحوالى ٦٩١م ثم يدور إلى اليسار ليتجه بمحاذاة واجهته ، ثم يدور ثانية إلى اليسار ثم إلى اليمين ليستمر أخيراً فى الاتجاه نحو الغرب على خط لينحرف ثلاثة أمتار إلى الجنوب . وقد لف البناء حول البرج القائم حينذاك وأضاف قطعة من البناء على شكل حرف L انتهت أمام السور الغربى لمسجد الحالم . وهذا الجزء قطعة صماء من البناء ، أما الجزء الآخر فجوف ، لأن الرواق الذى يمتد فى السور يجرى فى داخله . ويبرز البرج نحو ٦٩١متر على الجانب الشرقى ، وحوالى ٩٧٦متر على الجانب الغربى . ويبلغ امتداد واجهة البرج ٢٤٨٠متر . ويقوم على مسافة ٢٥متراً منه باب الفتوح

باب الفتوح

هذا الباب مثل باب النصر يتكون من برجين ، بينهما طريق معقود مرتد قليلاً ، ثم يمر له سقف ذو عقد صليبي ومغطى بقبة غير عميقة التكور من الحجارة المنحوتة ، وهى ترتكز على مثلثات كروية مثلثة لها درجة التقوس نفسها . وأما الأبراج فمستطيلة الشكل ولها واجهة مستديرة ، وهى ليست مقسمة من الخارج إلى طوابق . وأبعاد البرجين ٢٢ر٨٥متر عرضاً و ٢٢ر٣٣متر ارتفاعاً و ٢٥ر٢٢متر عمقاً . والمصطبة التى تعلو المدخل تصل إليها بوساطة درج يصعد بمحاذاة الواجهة الداخلية للسور الكبير إلى الشرق ، وعرض البرج ٧ر٥٨متر . وبرز الأجناب المستقيمة للبرج يبلغ حوالى ٧ر٥٨متر من واجهة السور .

ويفضى الدرج إلى الممشى ، أمام المدخل الشرقى للمصطبة الكبرى فوق المر ، ثم يعبر باب فى جدار سمكه نحو ٢ر٠٥متر ، يؤدى إلى المصطبة من الجانب الغربى

برج الدرج الكبير

إذا غادرنا مصطبة باب الفتوح وبعد بضع خطوات بمحاذاة السور الكبير، فإننا نصل إلى برج مستطيل كبير يبلغ عرضه ٢٦ر٣٩ متراً وعمقه ٢٢ متراً وارتفاعه ١٧ متراً . وفي داخله درج جميل البناء يقوم في ركنه الجنوبي الشرقي، ويدخل النور إليه من منافذ، وتطل على الشرق والجنوب . وفي أعلى الصعدة الأولى من الدرج نجد بايين يفتيان إلى قاعتين كبيرتين سقفيهما مقبي، وهما يشغلان بقية البناء من الداخل، وأبعاد القاعة الخارجية ١٨ر٥٥ × ٨ر٢٣ وارتفاعها ١٠ر٦٦ متراً إلى نفقها المقوود وفيها خمسة مداخل مهام، وأبعاد القاعة الأخرى ١٢ر٦٥ × ٥ر٩٣ متراً يداخلها الضوء من ثلاثة منافذ .

البرج المستدير

وعلى مسافة قرابة ٥٢ر٥٠ متراً من البرج الأخير نصل إلى برج يختلف شكله عن الأبراج الأخرى، فله مؤخرة مستطيلة الشكل — عرضه ١١ر٦٣ متراً ولها واجهة ثلاثة أرباعية الاستدارة، ويبلغ ارتفاع هذا البرج نحو ٢٣ متراً، وهو أصم البناء إلى مستوى ممشى السور الكبير، ويعلو حوالى ٨ر٤٨ متراً فوق الممشى، وفي داخل البرج قاعة مقبأة نصف مستديرة عرضها ٥ر٦٩ متراً وطولها ١١ر١٦ متراً وارتفاعها ٥ر٤٥ متراً، وفيها خمس فتحات لمزاغل السهام .

باب زويلة (المتولى)

يشبه باب زويلة باب الفتوح، ويتألف من بوابة كبيرة، لها عقد عرضها ٨ر٤٤ متراً، يقوم على جانبيها برجان مستطيلان، واجهتهما مستديرتان . ويبعد أحدهما عن الآخر مسافة ٩ر١٧ متراً وللبوابة ممر معقد، ويعلوها قبة غير عميقة التكور، تقوم على مثلوثات كروية . وتستند عليها المصطبة الكبيرة التي تمتد عبر الواجهة الخلفية للبرجين معاً . وهذه البلاطة تتصل بها من الجانب الجنوبي بثلاثة عقود . العقدان الخارجيان منها : يتصلان بالقاعات التي توجد في الثلث العلوي من الأبراج . أما العقد الأوسط، فيتصل بالشرقة المقبأة

«Vaulted loggia» فوق البوابة . وهناك مصطبة ثانية فوق الغرفتين والشرفة المقبأة تتوجها شرفات ويتصل بها سلم ذو درج .
وهذا الباب مشيد بالحجارة الجيدة ، وأهم ما نلاحظه وجود سلسلة من الدوائر ، وهي أطراف العمدة المثبتة وسط البناء لتدعيمه ، وتقويته وربطه .
أما أبراج الباب فمستديرة الباب فمستديرة الشكل .

السور الجنوبي

لا يزال جزء صغير من أسوار القاهرة الفاطمية في الجنوب باقياً إلى اليوم .
ويختفي هذا الجزء خلف بعض الدور في حي الدرب الأحمر . ويمكن مشاهدة هذا الجزء إذا صعدنا على سقف مسجد الصالح طلائع أمام باب زويلة . وقد اضطر الأستاذ كريسويل عالم الآثار إلى دخول أربع أو خمس دور ليرسم تخطيطات ما تبقى من السور ، فوصل إلى برج كبير تبلغ واجهته قرابة ٨٢٢ متراً يقع شرقي باب زويلة ، ويبرز البرج المذكور نحو الجنوب حوالي ٧٩٧ متراً ،

وبعد مسيرة حوالي ١٦٣٨ متراً
قابل كريسويل برجاً صغيراً آخر
تبلغ واجهته حوالي ٤٢٠ م
متراً . ثم التقى ببرج آخر بعد
١٩ متراً ، واجهته ٤١٩ م
الأمطار . وقد لاحظ الأستاذ
كريسويل وجود الشرفات
الحجرية في أعلى أجزاء السور
المذكورة ، ويبلغ امتداد هذا
الجزء من السور حوالي ٧٥
متراً تقريباً .



باب زويلة

الأصول المعمارية في الأسوار الفاطمية

في أعمال بدر الجمالي

١ — الأبراج المربعة على جانبي الأبواب^(١)

لا يقابلنا في ناحية العمارة العسكرية في الأبواب الثلاثة والسور الفاطمي شيئاً جديداً من الأصالة. حتى إذا وصلنا إلى الأعمال التي تمت على أيام صلاح الدين لاحظنا تطوراً حثيثاً في هذا الحقل ، وعلى سبيل المثال :

المسفل — المر (entrance-passage) الذي يتصل أولاً يتصل به ممرات على شكل زوايا قائمة . (entrance passage with one or more right angle turns ان الأبراج التي تحمي جانبي الباب عرفت في العمارة منذ آلاف السنين ، كذلك الأبواب التي كانت تتخللها ، ومع ذلك فقد سبقت الأبراج المربعة — الأبراج المتعددة الأضلاع وشبه المستديرة (semi circular) تلك التي توضح تقدماً من ناحية النظر الاستراتيجية . والأمثلة المعمارية في المباني القديمة عديدة ، ونلاحظها بكثرة في حصون آشور القديمة (١٥٠٠ ق . م) ، ولم يعرف هذا الأسلوب في مصر القديمة إلا في قلعة سمنا الغرب التي بنيت في أيام الأسرة الثامنة عشرة (١٦٠٠ — ١٤٠٠ ق . م) في مصر القديمة .

ويبدو أن الانتقال من الأبراج المربعة أو المستطيلة إلى الأبراج المستديرة حدث في أيام الامبراطورية الحيثية في سنجري ، حيث تقابل أسوار المعبد الخارجية التي شيدت حوالي عام ٩٠٠ ق . م لها أبراج شبه مستديرة (Semicircular) . وبعد مضي ثلاثة قرون نلاحظ الأبراج المستديرة في الحصون الإخمينية ولا سيما في سوسه^(٢) ومع ذلك فإنه يشك في أمرها . وإذا صح لإثبات وجود هذه الخصيصة المعمارية فلا بد أنها تكون نتيجة تأثير حيثي . وقد عثر

(١) Square flanking towers

(٢) Dieulafoy. L'acropole de Susa, pl. II.

آندريا الأتارى المعروف فى السور الخارجى لمدينة الحضر البارثية على مثال طيب منه . وفى أيام الساسانيين (٢٢٤ — ٦٣٢ م) سارت الأبراج المستديرة هى القاعدة التى تتبع .

شاع استخدام البرج المستدير فى العمارة الرومانية بالشرق قبل استخدامه فى الغرب ، ففى الولايات الشرقية منذ أيام هادريان (٩٨ — ١١٧ م) كانت المعسكرات الرومانية الكبرى التى كانت يؤلف منها خط من المخافر الحربية تمتد من خليج العقبة إلى دمشق ، ومن دمشق إلى تدمر . . كانت لكلها أبراج بارزة وتكاد جميعها تكون مستديرة . مثال ذلك « اللاجون وأدرع » . وهما يرتدان فى الغالب إلى أيام هادريان (١٠٦ م) . والضمير Odrub (١٦٢ م) وقصطل (القرن السادس) . ولدينا فى مصر باب قصر الشمع فى مصر القديمة (الحصن بابليون) وقد بنى قسم منه فى أيام هادريان . وكان يستعمله الناس خلال عبورهم ومرورهم إلى أيام ابن دقناق عندما ألف كتابه فى القرن الرابع عشر^(١) .

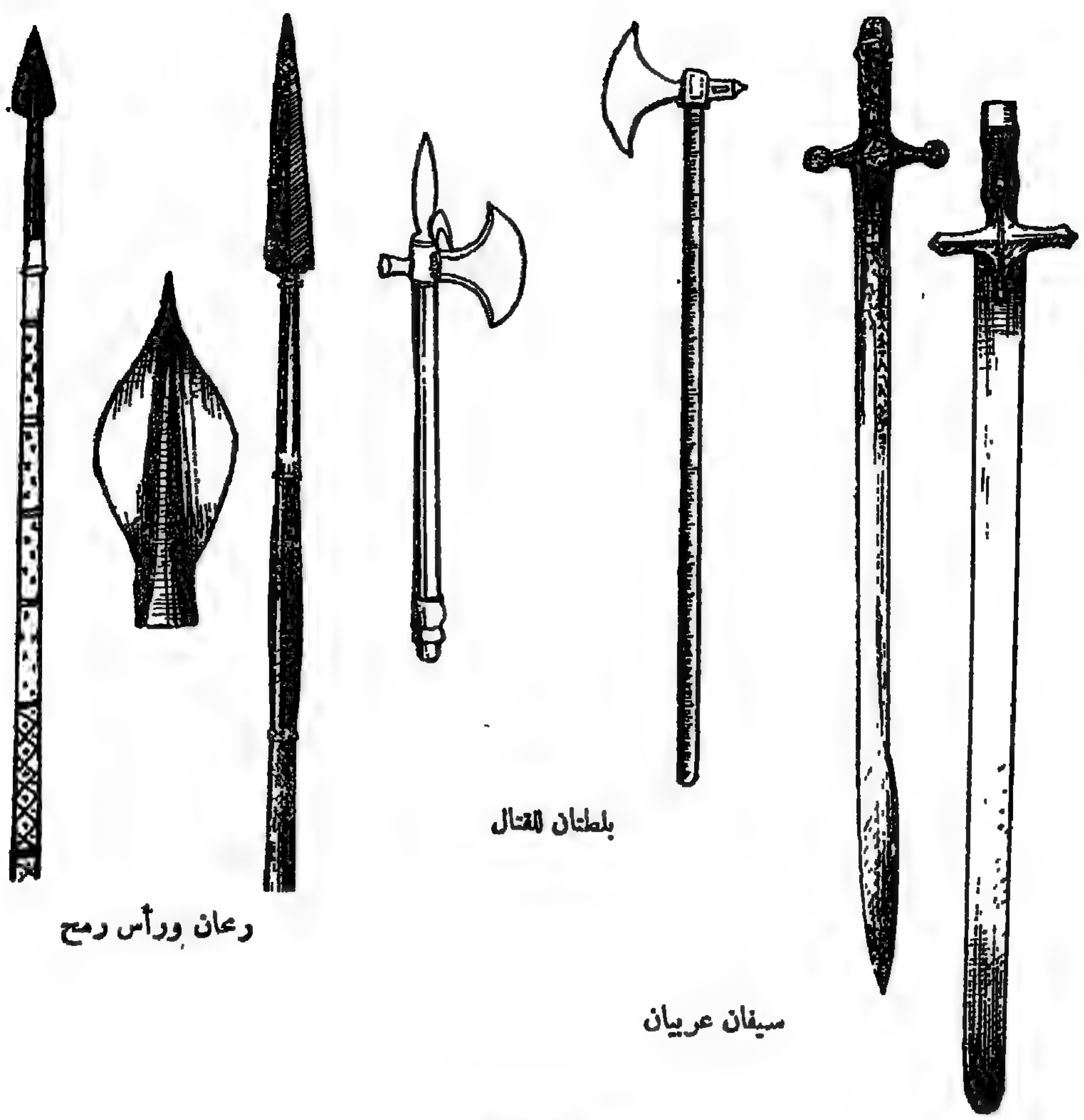
ولما كان مشيدوه هذه الأبواب الثلاثة (النصر — الفتوح — زويلة) هم الأخوة الثلاثة الذين جاءوا من الرها ، فمن المتوقع أن تصل معهم بعض الخصائص والأساليب المعمارية من شمال سوريا وشمال الجزيرة .

ولما كان ما وصلنا من أعمال العمارة العسكرية الإسلامية التى شيدت قبل الحروب الصليبية قليلا ونادرا . فينبغى أن ندرس ما وصلنا منها بعناية تامة ، ولا سيما تلك التى نراها أمامنا اليوم^(٢) .

(١) Butler : Ancient Coptic Churches. I.P.178.

: The Arab Conquest of Egypt. 243-4.

(٢) من أعمال العمارة العسكرية الإسلامية قبل الحملات الصليبية : قصر الحير (١١٠ هـ ٧٢٩ م) والرقا (١٥٥ هـ — ٧٧٤ م) والخبصر (١٥٩ هـ — ٧٦/٧٧٥ م) ورباط سوسة (٢٠٦ هـ — ٢٢٢/٨٢١ م) وقصبة المريدة (٢٢٠ هـ — ٨٣٥ م) وأسوار سوسة . (٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) . انظر كرنزويل ج ٢ ص ٧٢١ — ٢٧٣ . انظر كرنزويل : ج ٢ ص ١٩٧ — ٢٠٠ .

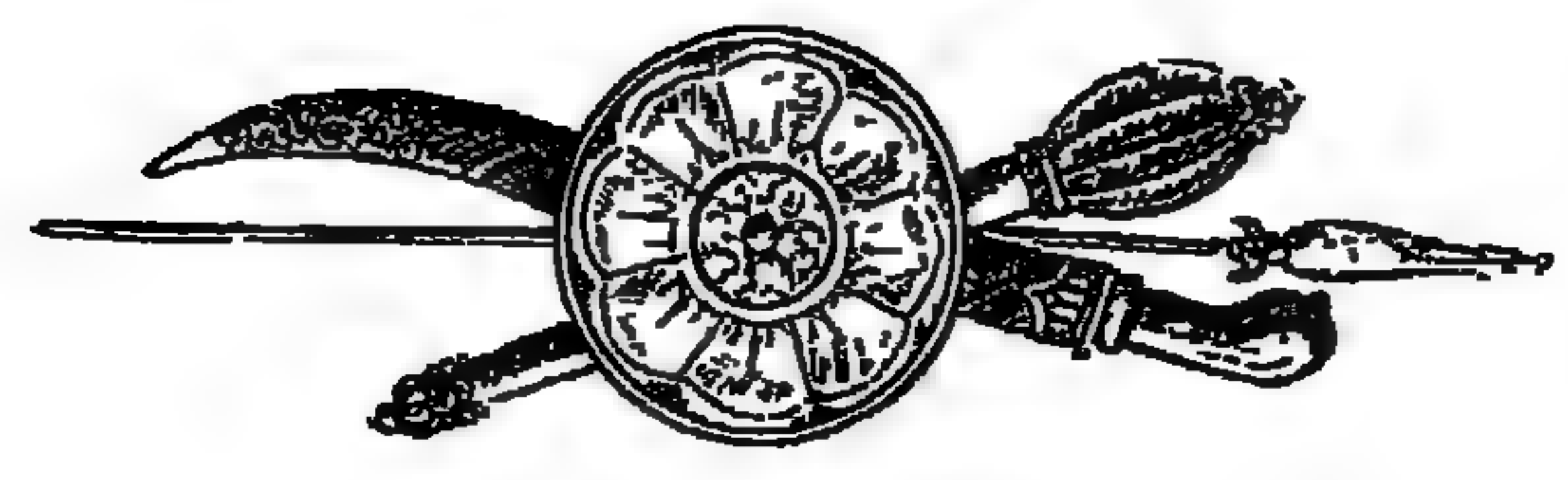


رعان ورأس رمح

بلطتان للقتال

سيفان عريان

درقة مستديرة



أسلحة عربية

٢ — المثلوثات الكروية المثلثة : (Srherical triangle pendentives)

كانت تلك المثلوثات التي في كنيسة أباصوفيا (٥٣٧ م) أقدم الأمثلة المعروفة لدينا لهذه الخصيصة المعمارية . وكان يعتقد أن تلك الخصيصة اختراع بيزنطى ، ولكن لم يعد لهذا الرأي أهمية اليوم . لأن في عمان وجد ضريح يعرف باسم قصير النويجس ، وفي حمامات مدينة جرش كما يوجد في ضريح آخر في سماريه عشر عليه رايزنر . ويمكن أن نضيف اليوم مثالا أقدم آخر ، وهو غرفة مربعة الشكل طول ضلعها ٦٠ ر٤ مترا في حمامات البتراء ، ويرجع تاريخ بنائها إلى أواخر القرن الأول أو أوائل القرن الثاني . وتقابلنا في جميع تلك الأمثلة ظاهرة واحدة مشتركة وهي أن الساف (المدماك) العلوى للمثلوث قد أعد بأسلوب واحد وذلك بأن سطحه العلوى والسفلى تجعلهما غير متوازيين ، وطرفا الطابوق (قالب الطوب) يتسعان نحو الخارج .

وتقابلنا ظاهرة المثلوث الثلث الكروى في العمارة الإسلامية في سوريا في وقت مبكر . ومثال ذلك قصير عمره (حوالى ٧١٥ م) ، وفي حمام الصرخ (حوالى ٧٢٥ م) ، ثم لا تقابلنا بعد ذلك في أى مبنى خلال ثلاثة قرون وربما أكثر^(١) .

وأصبح استخدام المثلوث شائعا في أرمينية حيث كان يبنى من الحجر المنحوت في القرن السابع . ولا يزال مثال له موجودا إلى اليوم في كاتدرائية تاليش (Talysh) التي شيدت حوالى ٦٦٨ م^(٢) ، وتوجد أمثلة متتالية في كاتدرائية تالين (٧٨٣ م) وكنيسة القديس جريجوى في كوشة فانك التي بنيت في (٩٨٥ م) .

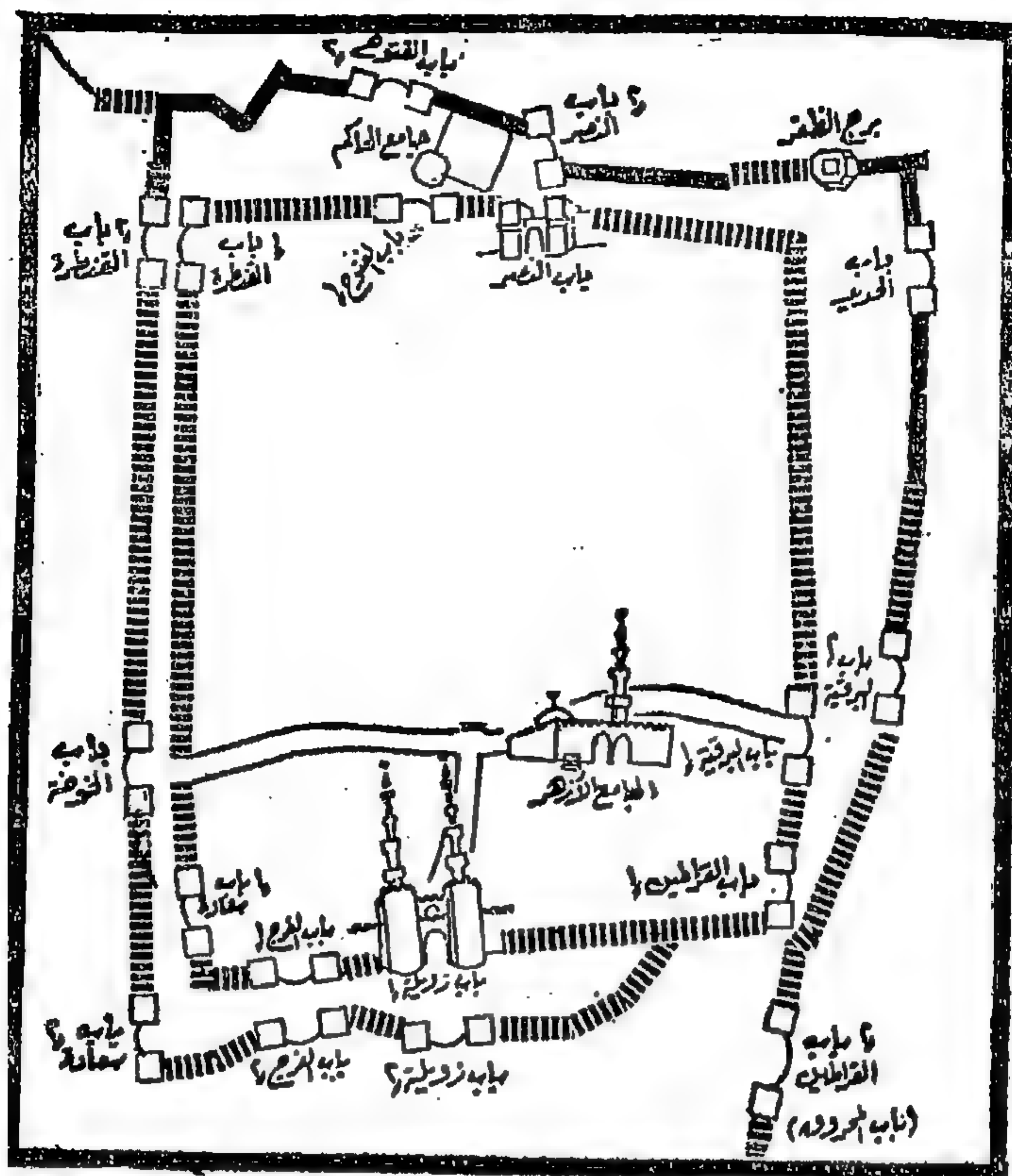
وتقابلنا أخيرا تلك الظاهرة في أبواب بدر الجمالى ، وذلك لأجل حمل القبة التي تغطى مجاز المدخل (entrance - passage) في باب الفتوح وباب

(١) كرىزوبل : الجزء الأول ص ٢٥٧ و ص ٢٧٤ واللوح ١٠١ و ١٠٢ .

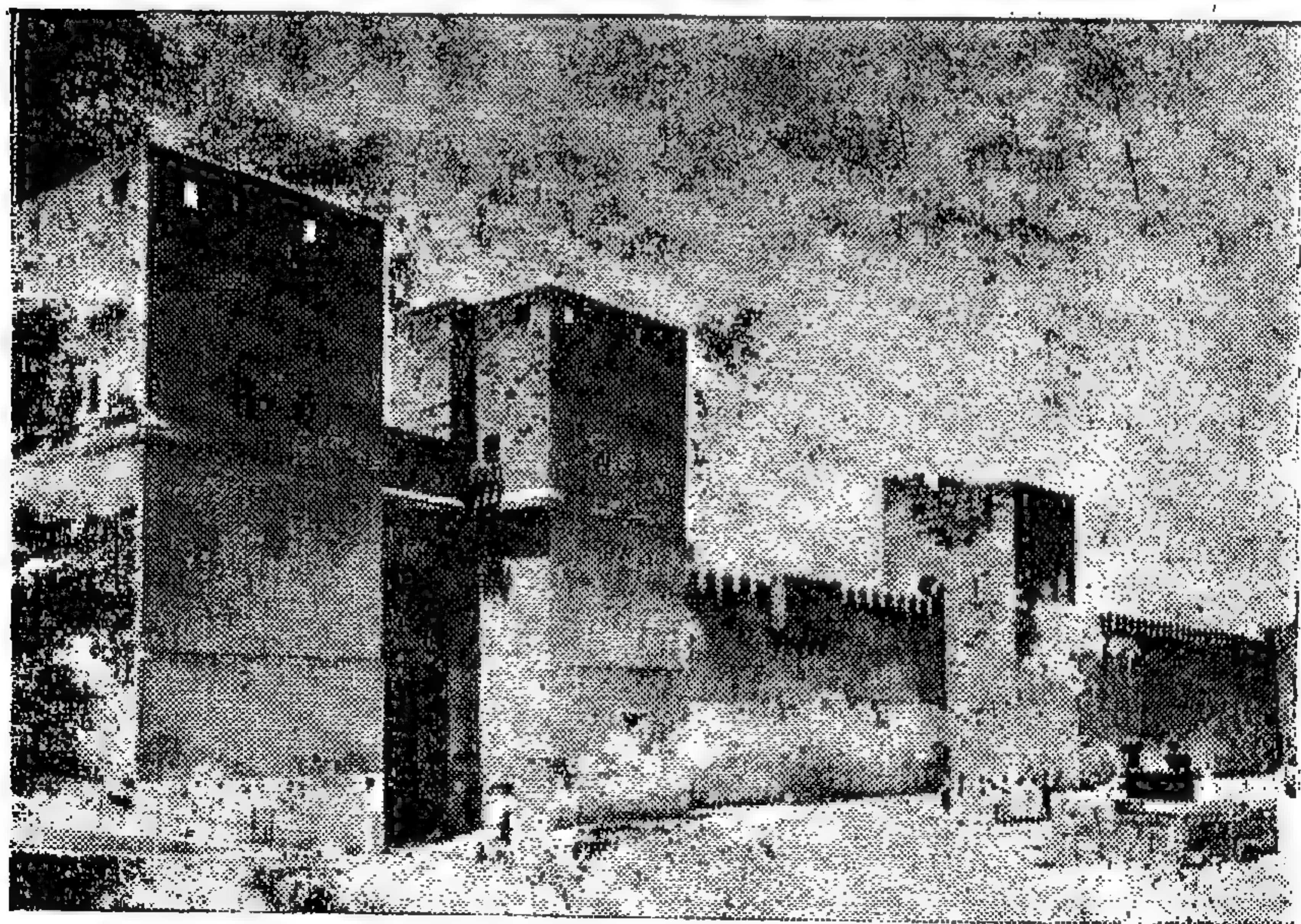
(٢) Strzygowshei : Die Baukunst der Armenien

1, H. 190 - 93.

واللوح ١٤ .



أسوار القاهرة وأبوابها في زمن الفواطم والأيوبيين



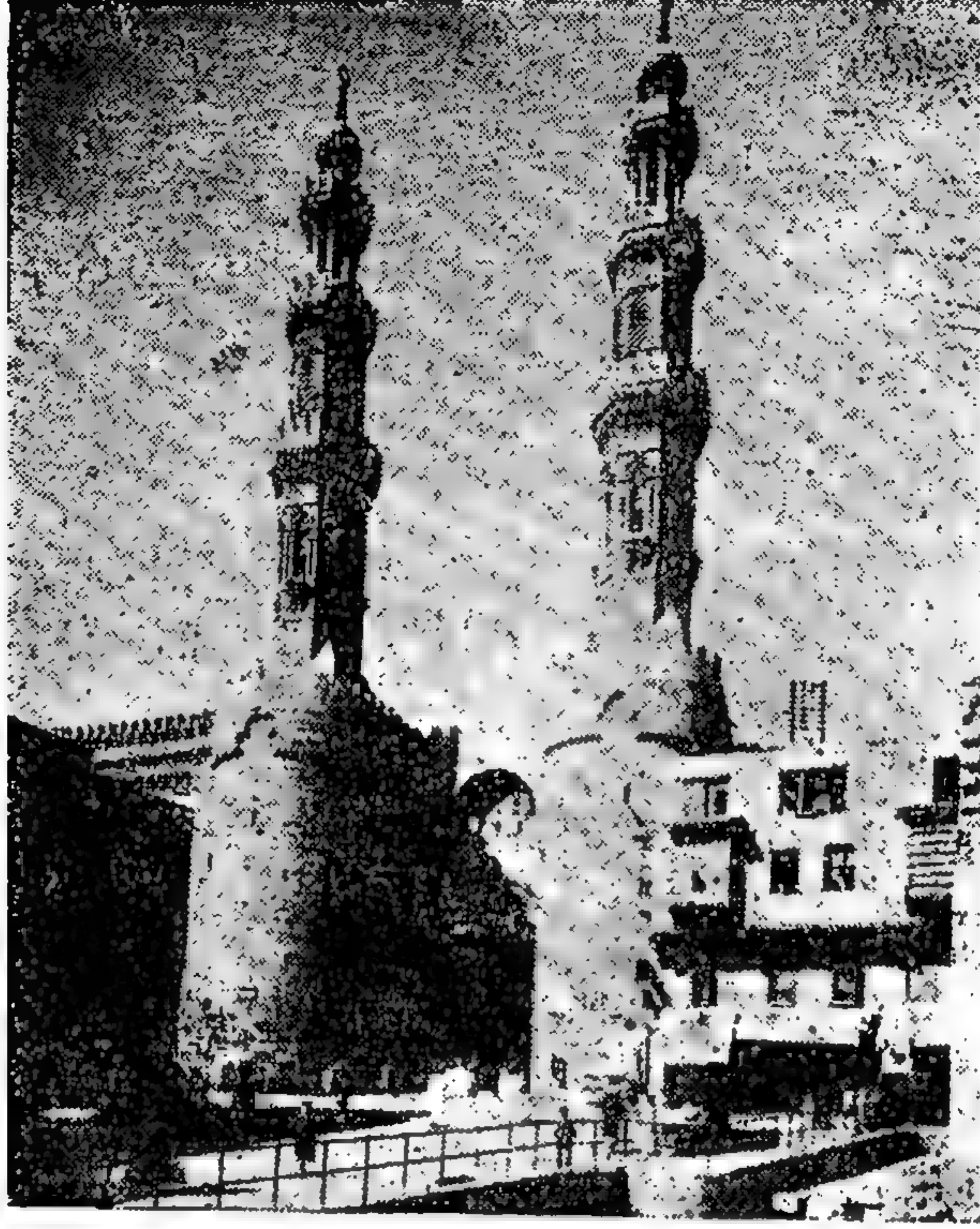
سور القاهرة وباب النصر

زويلة ، ثم القاعة التي تشغل القسم العلوى لبرجى باب النصر ، وجميع تلك .
القباب غير مرتفعة ولها نفس التقوس الذى للثلوث ، وجميعها متفقة من ناحية .
جمال نحت الحجر . ونلاحظ أيضا أن كل قبة قد أغلقت من الوسط بحجر
مستدير ، ومما نلاحظه بوضوح أن فى قبتى باب الفتوح وباب زويلة نشاهد .
مقابلنا فى أمثلة الثلوث القديمة وهى أن المدماك الأخير فيه تميل جوانب طابوقه .
(طوبته) إلى الخارج ولا يتوازى وجها سطحه .

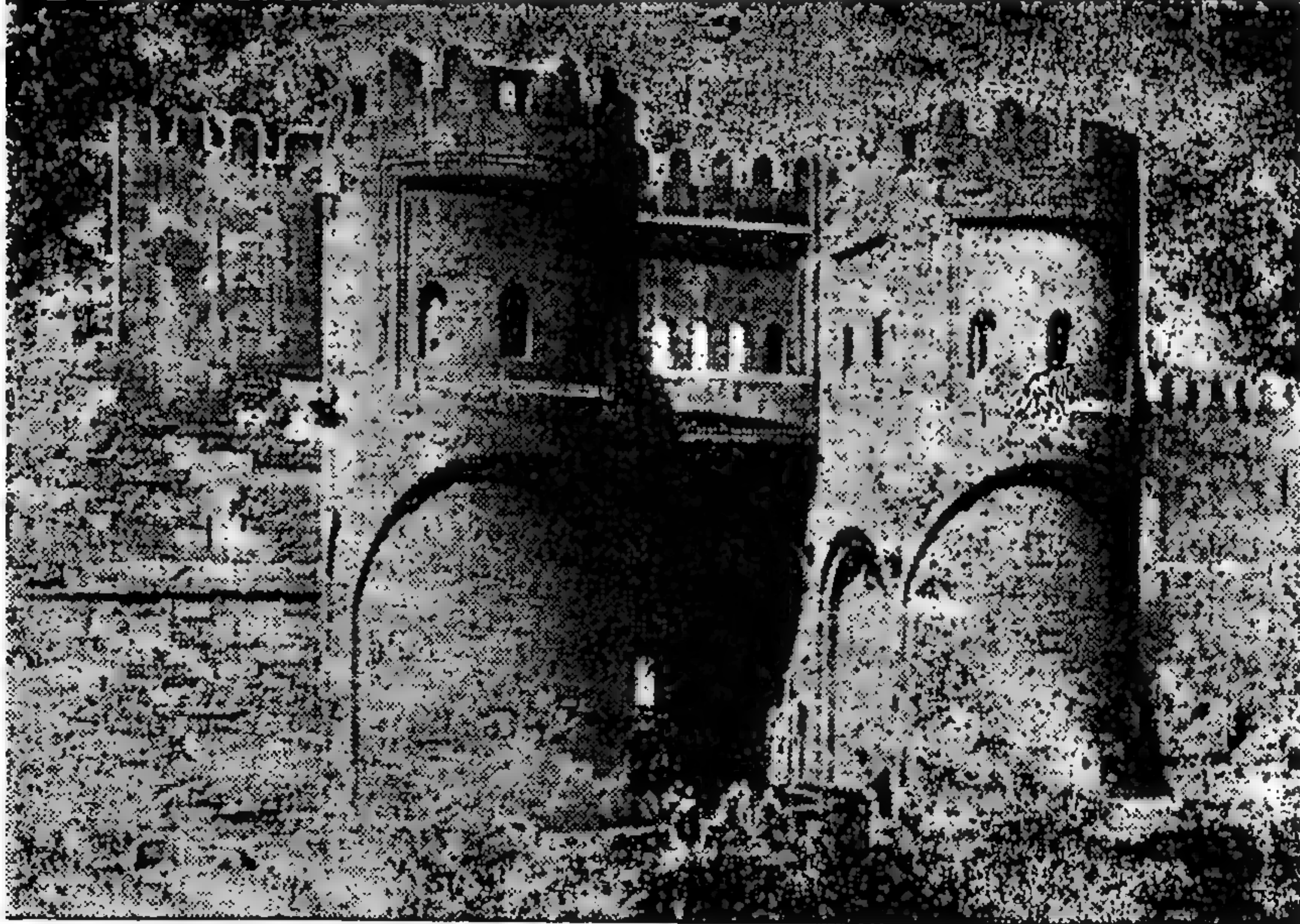
يؤيد كل هذا القول بأن تلك الأبواب الثلاثة قد اشترك فى بنائها بناءون .
من أرمينية ، وتقابلنا هذه الظاهرة المعمارية فى مصر منذ القرن الحادى عشر
إلى الفتح العثمانى فى العماثر الآتية :

- ١ — المسجد الأحمر (٥١٩ هـ — ١١٢٥ م) .
 - ٢ — باب صلاح الدين فى برج الظفر (٥٧٢ هـ — ١١٧٦/٨٩ — ٩٣ م) .
 - ٣ — البرج التالى الذى يقع إلى شماله وفى باب المدرج بالقلة (٥٧٩ هـ — ١١٨٣/٤ م) .
 - ٤ — مسجد يبرس الأول (٦٦٥ — ١٢٧٦/٥٨ — ٧٠ م) .
 - ٥ — باب قصر منجق السلحدار (٧٤٧ — ١٣٤٦/٥٨ — ٧ م) .
 - ٦ — جامع وضريح برقوق وفرج (٨٠٣ — ١٤٠٠/٥١٣ — ١٠ م) .
 - ٧ — مدرسة وضريح قانى باى أمير أخور (٩٠٨ هـ — ١٥٠٣ م) .
 - ٨ — جامع الغورى فى المنشية (٩٠٦ — ١٥٠٢/٥٢٢ — ١٦ م) .
- وتقابلنا الأمثلة الكثيرة فى عماثر العصر العثمانى فى القاهرة .
- ٣ — الأعمدة المستخدمة كرباط لدعم المبانى

إن أقدم ذكر لتلك الظاهرة جاء فيما كتبه المقدسى الجغرافى ، فقد قال إن جده .
أبو بكر البناء كان نديه ابن طولون لبناء حاجز الأمواج فى عكاء (٢٦٤ — ٨٥/٧٨٧ — ٩ م) .



باب زويلة (المتولى) فى سور القاهرة الجنوبي



باب الفتوح فى سور القاهرة الشمالى

وأقدم مثل باق ومعروف إلى اليوم يقابلنا في قطعة من أسوار ميناء المهديّة-
التي شيدها المهدي أول خلفاء القواطم، وقد تم عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ — ١٨ م .
ولا نعرف أمثلة أخرى لهذه الظاهرة حتى وصل الصليبيون إلى سوريا وما بعد
ذلك في ساجيت (Sajette) وعسقلان وسلمية وشيزر وجبيل وبصرى
ودمشق^(١) واللاذقية وطرابلس (برج السباع) وصيداء وبيروت . وقد استخدم
أيضاً في حلب بجامع قبقان وفي مأذنة المسجد الأبيض بالرملة (٥٧٨٨—١٣١٨ م) .
وفي أسوار القدس (١٦ م) . كما يقابلنا في برج بديار بكر (٦٣٤ هـ — ١٢٢٦ / ٧ م) .
وتقابلنا هذه الظاهرة بعد أسوار القاهرة نادراً . مثال ذلك في مسجد
الصالح طلائع (٥٥٥ هـ — ١١٦٠ م) ومسجد بيبرس (٦٦٥ — ٨٨ / ١٢٦٧ —
٧٠ م) وربما استخدم أيضاً في أسوار الاسكندرية قبل تخریبها .

٤ — العقد شبه المستدير : (Semi - Circular)

هذا النوع من العقود — والعقد الأفقي يعتبر خروجاً عن القاعدة المألوفة .
لأنه لم يكن معروفاً ، إذا استثنينا نوافذ مسجدى الأزهر والحاكم ، ومع أنه
كان قد استخدم في سوريا قبل الإسلام ، ولكنه لم يستخدم بعد الإسلام .
وهذا ما يعتقده الأثريان دى دفوجه وبتلر

استخدم العقد المدبب (pointed arch) قبيل الإسلام في قصر ابن وردان
عام ٥٦١ — ٢ م^(١) وبعد انتشار الإسلام استخدم هذا النوع في المسجد
الكبير بدمشق (٨٨ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ١٥ م) وفي قصر عمره (٩٣ — ٩٦ هـ /
٧١٢ — ١٥ م) وفي حمام الصرخ وفي قصر الخيرو وفي مشق وفي قصر الطوية
(١٢٥ — ١٢٦ هـ / ٧٤٣ — ٤ م) ، وفي صهريج الرملة (٧١٢ هـ — ٧٨٩ م) .
ثم مرت حوالى ٢٤٠ سنة تقريباً إلى أن تقابلنا العقود المدببة قليلاً (pointed arches :
Slightly) في المسجد الأقصى كحوامل للقبّة . وعلى العقد الشمالى تاريخ منقوش
هو ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) .

(١) Van Berchem and Fatio : Voyage en Syrie, 1, p. 108, 179,
105, 106, 290.

(٢) كريزويل ، الجزء الأول ص ٢٧٦

ولكن العقد شبيه المستدير (Semi cirenlar) الذي نحن بصدده كان شائعاً في أرمينية إلى عصر بناء حصون القاهرة . ويقابلنا مثل هذا العقد في أثر إسلامي معاصر تقريباً وهو مسجد آني ، والتاريخ المنقوش عليه ذو القعدة ٤٦٥ هـ (يوليو ١٠٧٣ م^(١)) وهكذا نرى أن استخدامه هنا هو شاهد آخر على التأثير الأرميني .

٥ - الأعتاب المنحوتة من كتلة واحدة أو العقود المنحوتة من الحجر هذه الحقيقة شائعة كثيراً في مباني تلك الحصون القاهرية ، وهي من الأعتاب المستخدمة بوفرة في العمارة المسيحية في شمال سوريا ، وقد أمدنا بتل الأثرى بأمثلة كثيرة في كتابه « العمارة وفنون أخرى » عن مبان شيدت في القرن الرابع الميلادي^(٢) ولبيان أخرى شيدت في القرن الخامس (مشبك وسرجبله) ، ولبيان أخرى شيدت في أثناء القرن السادس في خربة حسين ودار كيتا ، ولدينا مثال لمبنى مسيحي شيد في القرن السابع في كنيسة القديس سرجيوس وتاريخه ٦٠٩ / ١٠ م^(٣)

٦ - الأحجار المشقة - المتداخلة : (Joggled voussoirs)

مع أن هذه الخصيصة لم تستخدم بكثرة ، فقد عرفت في عصر الإمبراطورية الرومانية من قرطبة إلى حدود القرات^(٤)

٧ - تقاطع العقود المقبأة المرتفعة

يتضح هذا الأسلوب المعماري في بج الدرج الكبير ، وفي الدرج الموصل إلى مسطبة باب النصر ، وفي درج صغير آخر يصل من نفس المصطبة وممشى السور ، وقد دخل هذا الأسلوب إلى سوريا من بيزنطية في القرن السادس ، حينما يقابلنا في قصر ابن وردان

(١) Diez : Die Kunst der Islamischen Volker p. H4. Wiet Repertoired' Epigraphie arabe VII, p. 189.

(٢) Butler : Architecture and other Arts

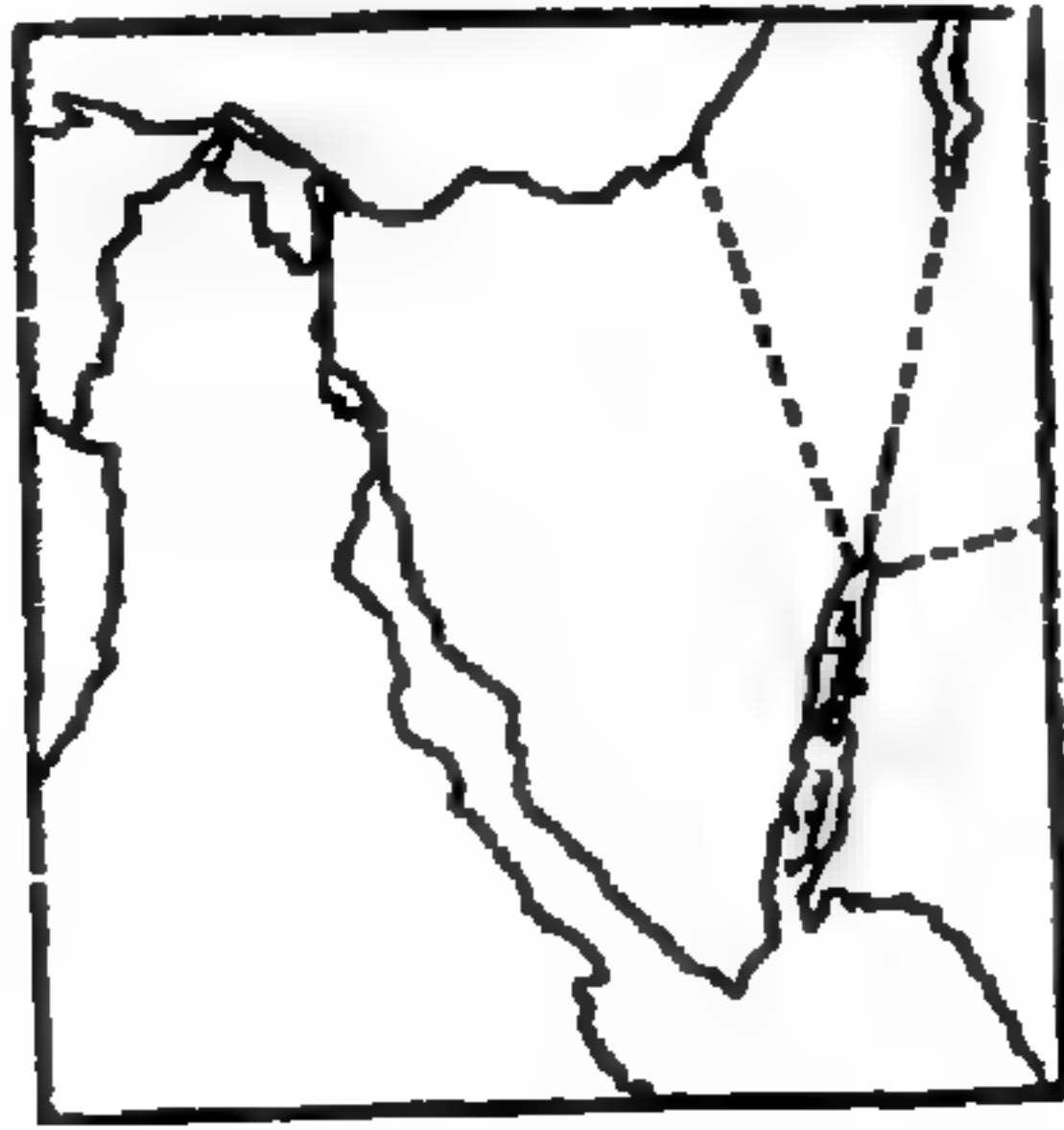
(٣) Butler : Ancient Architecture in Syria, part 1. Northern Syria, 111, 179

(٤) Creswell : vol. 1. p. 343-345

٨ — وسادة العقود المعشقة في باب الفتوح (Cushion Vouassior)

هذه الخصيفة من أقدم الأمثلة المعروفة في مصر ويحيىء بعدها خمسة نماذج أخرى في سوريا ، ثم نلاحظ أنها لا تتكرر فيما بعد في مصر ثانية لمدة قرنين ، ثم تظهر أربعة أمثلة في العهد الذي قوى فيه التأثير السورى ، ويعتقد الأستاذ كريزويل أن وسادة العقود المعشقة التى فى باب الفتوح ، وفى كنيسة القيامة بالقدس ، (وهذه أقدم الأمثلة فى سوريا) كلاهما مقتبس من أمثلة سورية سابقة . ونوضح فيما يلى بعض الأمثلة السورية :

- ١ — كنيسة سنت أن فى القدس (حوالى ١١٣٠ م) .
 - ٢ — كنيسة القيامة (المدخل الرئيسى والمدخل الغربى ربما تم تشييدها حوالى عام ١١٤٩ م)
 - ٣ — معمدانية كنيسة جبيل فى خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر .
 - ٤ — مأذنة المسجد الأبيض فى الرملة ٥٧١٨ هـ — ١٣١٨ م .. الخ .
- أما الأمثلة الرابعة الأولى فى مصر التى تجيىء بعد باب الفتوح فهى :
- ١ — المدخل الرئيسى لمسجد الظاهر بيبرس .
 - ٢ — مأذنة ضريح السلطان قلاوون (٦٨٣ — ٥٤ / ١٢٨٤ — ٥) .
 - ٣ — مأذنة مدرسة سالار وسنجر الجاولى بالقاهرة .
 - ٤ — خاتمه السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٦ — ٥٩ / ١٣٠٦ — ٩ م) .
 - ٥ — ضريح على بدر القرافى (حوالى ٧٠٠ — ٥١٠ / ١٣٠٠ — ١٠) : الخ .



أرض المارك

مَعَارِكُ الْجَيْشِ الْفَاطِمِيِّ

كان للفاطميين أعداء كثيرون منذ قدموا إلى مصر : من هؤلاء البيزنطيون ، والقرامطة ، والسلاجقة ، والصليبيون ، أضف إلى هؤلاء أهل العراق . وقد بدأ النزاع بين قرامطة بلاد البحرين والفاطميين منذ استولى الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق .

(١) القرامطة (١)

طالب الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الملقب بالأعصم الذي ولى أماره القرامطة سنة ٣٥٩ / ٩٦٩ هـ بالإتاوة التي كان يدفعها الأخشيديون لحكومته لكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الإتاوة ومن ثم أعد جيشاً واتجه إلى دمشق سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ ليقتل على نفوذ الفواطم في الشام . أما جعفر فإنه بعث في طلب الحملة التي كان أرسلها إلى أنطاكية لإجلاء الروم (البيزنطيون) عنها ، وسرعان ما اشتبكت قوات القرامطة بقوات الفواطم في ناحية الدكة على مقربة من دمشق حيث نشبت معركة انتهت الأمر فيها بهزيمة جعفر وقتله وكثير من أتباعه سنة ٩٧٠ م وبذلك استولى الحسن القرامطي على دمشق . وترجع هذه الهزيمة إلى عدم استعداد جعفر للملاقاة خصمه الأقوى منه ولعدم اتصاله بالقائد جوهر في مصر لتجدته ولما وافته في توطيد الحكم الفاطمي بالشام .

رحب الشاميون بالقرامطة وذلك لأنهم كانوا من السنيين المتطرفين في عدائهم للشيعة والعلويين . وأدرك الحسن بن أحمد أنه من المناسب أن يسير إلى الرملة ليقتل على ما بقي للفواطم من سلطان بالبلاد الشامية ، فاستولى عليها بسهولة لفرار حاكمها إلى يافا ، وسرعان ما استولى على كثير من مدن الشام

(١) أصحاب دعوة انتشرت في بعض البلاد الإسلامية عام ٩٠١ م بزعامه أحد الاسماعيليين ، زعزعت العالم الاسلامي ثم انتهت أمرها حينما اصطدمت بالحملة الصليبية واستقرت الدعوة باليمن وقتاً قصيراً ومع ذلك فقد استقرت مبادئها في بعض أنحائها إلى وقت قريب

وأصبح فتح مصر ميسوراً ، فزحف جيشه إليها في أواخر سنة ٩٧٠/٢٦٠ هـ فهاجم مدينة القلزم ودخلها وأمروا حاميتها ولم يلبث أن تابع سيره في الأراضي المصرية في أوائل سنة ٩٧١/٢٦١ هـ فاستولى على عين شمس ثم تقدم إلى القاهرة^(١) استعد القائد جوهر لصد زحف القرامطة فأعد جيشاً قوامه المغاربة والمصريون ، كما خصّ القاهرة بخندق حفره أهلها (الخطط ، ج ٢ ص ١٣٧-١٣٨) . فلما هدد القرامطة هذه المدينة في ربيع الأول سنة ٢٦١ هـ (٩٧١ م) ، أبدى الجنود المصريون شجاعة فائقة ، فصمدوا ودافعوا بجرارة ، ومن ثم تقهر الحسن ابن أحمد بجنده ورحل إلى الإحساء بعد أن قبض جوهر على كثير من الأسرى . انتهز جوهر الصقلي فرصة انسحاب القرامطة فأنفذ جيشاً إلى يافا فتمكن من إعادتها إلى الفواطم ، على أن الحسن بن أحمد ما لبث أن وجه اهتمامه إلى استرداد نفوذه ببلاد الشام ، ثم أخذ في التآهب للمسير ثانية إلى مصر ، فأعد حملة بحرية أرسلها إلى تنيس وسواحل مصر ، كما أعد جيشاً ضم إليه عدداً كبيراً من العرب (المقريزي : اتعاظ الخنفا ، ص ٢٥٠) .

ولما وصل المعز لدين الله الفاطمي من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م واتخذ القاهرة قاعدة لخلافته ، وجه عنايته إلى مناهضة نفوذ القرامطة حتى يتيسر له توطيد أركان دولته في مصر والشام ولجأ إلى الأساليب السياسية والتهديد ، لكنها لم تفلح مع الحسن بن أحمد .. الذي استمال إليه العباسيين وأمدوه بالعون . زحف الزعيم القرمطي إلى مصر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) وتوغلت جنوده في أراضي مصر كما تقدمت القوة الرئيسية من جيشه نحو القاهرة وعسكرت بالقرب من السور الشرقي والخندق الذي حفره القائد جوهر ولما علم المعز بنبأ وصوله هاله كثرة قواته ، فأشار عليه نصحاؤه بالسعى في تفريق كلمتهم ، فعمد إلى استمالة حسان بن الجراح الطائي رئيس جند العرب الذين يعدون أقوى عناصر جيش الحسن بن أحمد ، واتفق معه على أن يدفع إليه مائة ألف دينار

(١) د . محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١٢٣-١٢٤ ، القاهرة ١٩٦٧ .

على أن يتظاهر بالهزيمة أمام جند الفواطم . وكان هذا المبلغ كافياً لحمل بنى طي .
على الإنصراف عن حليفهم الحسن بن أحمد . فلما نشب القتال بين الفريقين تفهقر
حسان بن الجراح أمام قوات المعز ؛ فأدى ذلك إلى هزيمة الحسن بن أحمد
وارتداده إلى الشام وأسر الفواطم نحو ١٥٠٠ من القرامطة .^(١)

أدرك المعز رغم نجاحه في صد هجمات القرامطة عن مصر أن ينفذ حملة
بقيادة أبي محمود بن جعفر بن فلاح لمطاردة جيش القرامطة في الشام حتى لا ينجى .
ثانية ، فالتقت بهم في أطراف الشام (أذرعات) . أما الحسن فإنه بعد أن وصل
إلى دمشق ، ترك أحد رجاله والياً عليها ورحل مع بعض رجاله إلى الإحساء
واستطاع المعز بعد ذلك بدهائه وحسن سياسته أن يستعيد سلطان الفاطميين على
بلاد الشام^(٢) ومع ذلك فقد ظل الحكم الفاطمي فيها ضعيفاً ، مما مهد السبيل
إلى دخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين^(٣) بلاد الشام واستمرارهم بها .
وبذلك واجه الفواطم عنصراً جديداً في مقاومة نفوذهم في هذه البلاد .

(٢) الفاطميون والبيزنطيون :

واجه الفواطم منذ وطأت أقدامهم بلاد الشام صعوبات كثيرة من ناحية
البيزنطيين ، فقد أخذ هؤلاء يهددون حدود سورية الشمالية بغاراتهم المتتالية .
فزحفت قواتهم إلى أنطاكية سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩) ثم دخلوا حلب ، وأرغموا
حاكمها على عقد صلح معهم . بيد أن القائد جعفر بن فلاح نجح في استعادة بعض
المدن من البيزنطيين ، لكنه لم يوفق في استعادة أنطاكية لإشغال الفواطم بصد
القرامطة والقضاء على ما بقى لهم من نفوذ في الشام . وفي عام ٩٧٥ م تقدم الامبراطور
حناز مسكيس من أنطاكية إلى حمص فبعلبك ، واضطرت دمشق إلى التسليم .

(١) د . م جمال الدين سرور : المرجع السابق ذكره ، ص ٢٣١

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ، ص ٩٠ .

(٣) بدأ أفتكين عهده في خدمة معز الدولة أحمد بن بويه وما زال يترقى في المناصب
حتى ولى قيادة جند الأتراك في بغداد في أيام عز الدولة بختيار أمير بني بويه بالعراق (٣٥٦ هـ — ٣٦٣ هـ)

مردفع الجزية له ، كما سلمت له طبرية وقيسارية ويبروت وصيداء . ولما حاول الاستيلاء على طرابلس أوقعت حامية المدينة بمعاونة أسطول فاطمي الهزيمة بقواته ثم عادت جيوش بيزنطية إلى أنطاكية وعاد الإمبراطور إلى القسطنطينية حيث توفي (٩٧٦) .

استمر النزاع قائماً بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية حتى عام ٩٨٧م حينما طلب الإمبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ — ١٠٢٥م) عقد الصلح بين الدولتين فاشتراط الخليفة العزيز عدة شروط ، ومع ذلك فلم يكن للهدنة التي ارتبط بها الطرفان أى أثر في وقف تيار الحرب الفاطميين والبيزنطيين . فالتقت قوايهما على ضفاف نهر العاصي ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين (٣١ هـ - ٩٩١م) ، ثم عاد القائد الفاطمي منجو تكين إلى دمشق لتنفيذ الأتوات . ومن ثم أرسلت إليه المؤن وأمر بأن يفتح حلب .

فلما رأى باسيل الثاني الخطر الذي يهدد بلاده ، عول على السير إلى حلب فاستولى على حصن شيزر ثم فتح حمص وأخذ يتابع سيره حتى وصل طرابلس ، ولما تعذر عليه فتحها عاد إلى القسطنطينية سنة ٣٥٨ هـ (٩٩٥م) بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام . ثم فشلت استعدادات الفاطميين البحرية والبرية لاستعادة نفوذهم في الشام وتوفي الخليفة العزيز بالله (٣٨٦ هـ - ٩٩٦م) .

وفي أيام الحاكم بأمر الله ؛ أرسل برجوان الذي كان يلي إذ ذاك الوصاية على هذا الخليفة ، حملة كبيرة بقيادة جيش بن الصمصامة السكتامي ، كما أرسل بعض سفن الأسطول المصري إلى مياه صور . فحوصرت المدينة من البر والبحر ونشبت بين الفريقين معارك شديدة إنتهى الأمر فيها بسقوط صور في أيدي القوات الفاطمية وهزيمة البيزنطيين وحليفهم الأمير علاقة الذي أرسل إلى القاهرة حيث قتل ، وواصل جيش ابن الصمصامة سيره إلى أفاميا ، وهناك التقى بالبيزنطيين فتغلب عليهم وأخذ يطاردهم حتى أبواب أنطاكية ، وفي أعقاب تلك الحوادث تم إبرام هدنة قمعاهدة صداقة بين مصر والدولة البيزنطية ولكن سرعان ما قطعت العلاقة مرة أخرى بين الدولتين .

ولم يلبث البيزنطيون أن تقضوا هذا الصلح بعد أربع سنوات (٤٢٢ هـ) / (١٠٣١ م) وانضموا إلى بعض أمراء العرب بالشام الذين كانوا يعادون الفواطم. واستطاع هؤلاء أن يستولوا على قلعة الرملة ويأسروا كثيراً من أهلها .

تحسنت العلاقات بين الفواطم والبيزنطيين في أوائل أيام المستنصر بالله واستمرت بعض الأعوام فانتعشت الأحوال الاقتصادية في مصر . ولما تولت الحكم الامبراطورة تيودورا ساءت العلاقة ثانية وعول الخليفة المستنصر على محاربتها . فجهز حملة تحت قيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم ، وما لبث هذا القائد أن نزل بالقرب من أفياميا ثم تجول في أعمال أنطاكية ، فأنفذت الامبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة وأسره وكنيز من جنده سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يهدد للقاضي أبي عبد الله القضاعي بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين ، فلم تحفل الامبراطورة بوجوده ، على حين رحبت برسول السلطان طغرل بك السلجوقي^(١) .

وفي أعقاب ذلك ازداد التوتر بين الفواطم والبيزنطيين وعاد العداء سيرته الأولى ، وظل كذلك حتى وجه الصليبيون حملاتهم إلى الشام ، وأسسوا بها أمارتي أنطاكية وبيت المقدس ، وصاروا يشتبكون من وقت لآخر في معارك مع القوى الإسلامية بتلك البلاد وبخاصة في أيام نور الدين محمود أمير حلب .

ولما أخذت الأخطار تواجه الفرنج بيت المقدس من جراء ازدياد نفوذ نور الدين محمود بالشام وطموحه إلى بسط نفوذه على مصر ، بعث أموري ملك بيت المقدس يستنجد بملوك أوروبا لوقف الخطر الذي يهدد الإمارات اللاتينية بالشام ، لكنهم شغلوا عنه . ولذلك لم يبدأ من الاستعانة بالامبراطور البيزنطي مانويل الذي رحب بمعاونته واتفق معه على المسير بحراً إلى مصر ، وأنفذ إليه أسطولاً يماونه حملة من الفرسان والمشاة مزودة بالثون والعتاد^(٢) . وتوجهت هذه الحملة إلى دمياط حيث أحاطت بها براً وبحراً في صفر سنة ٥٦٥ هـ

(١) د . محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق . ص ١٥٥ — ١٥٧ .

(٢) د . حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٨٢ — ٨٤ .

١١٦٩ م) ، وكان الامبراطور البيزنطى يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى التوسع ، فتصبح مصر من بين الأقطار الواقعة فى محيط نفوذه . فلما بلغ صلاح الدين وزير الخليفة الفاطمى العاضد بالله وكان بمصر مسير قوات الفرنج والبيزنطيين إلى دمياط ، عول على النهوض لصدّها ، فأرسل جنده عن طريق النيل وبعث إلى نور الدين يطلب الامداد ، فأجاب طلبه ، كما حرص الخليفة على مده بالمال .

ظل الصليبيون والبيزنطيون يحاصرون دمياط حوالى خمسين يوماً ولم يقدموا على التوغل فى داخل البلاد المصرية ، وأخيراً قرروا العودة بجيوشهم إلى بلادهم ، بسبب ما بلغهم عن شروع نور الدين محمود فى الإغارة على الإمارات اللاتينية بالشام ، فضلاً عن وقوع خلاف بين قادتهم ، وبذلك عجزت الحملة الصليبية الأولى التى عاونها البيزنطيون عن تحقيق أطماعها فى مصر .

(٣) الفاطميون والصليبيون

أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة على نشر نفوذهم فى الشام إلى عدم استقرار الأمور فى هذه البلاد وضعف الجبهة الإسلامية أمام الغزو الصليبي ، فقد زحف الصليبيون على أنطاكية بقيادة بوهيمند النورمندى فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ورأوا أن يستغلوا الفرقة بين الأمراء المسلمين فى الشام ، فأرسلوا إلى أميرى حلب ودمشق يطلبون منهما عدم التعرض لهم ، كما ادعوا بأنهم لا يقصدون غير البلاد التى كانت بيد البيزنطيين . ولما وقف رضوان أمير حلب على رغبة الصليبيين فى إثارة النزاع بين القوى الإسلامية لتيسر لهم تحقيق هدفهم ، سارع إلى نجدة أمير أنطاكية وانضم إليه سقمان بن أرتق وقوات من شيزر (شمال حماة) وحماه وحمص . غير أن المحاولات التى بذلها أمراء المسلمين بالشام لإتقاذ أنطاكية فشلت وسقطت المدينة الهامة فى يد الصليبيين سنة ٤٩١ هـ (٣ يونيو ١٠٩٨) ولما وصل إلى الحكومة الفاطمية فى القاهرة نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية رأت أن تبذل

جهداً لمنع زحفهم على القدس ، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨) ، سفارة إلى الصليبيين للتفاوض معهم في عقد اتفاق يتضمن أن ينفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية في أداء شعائهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وإلا يدخلوها بسيوفهم .

لم تنجح هذه السفارة وكان من أثرها أن وقف الصليبيون على مدى الخلاف السائد بين الفواطم والسلاجقة بالشام . ومن ثم استقر رأيهم بعد استيلائهم على انطاكية على إرسال حملة لفتح القدس . وقد استولى الصليبيون في أثناء سيرهم إلى هذه المدينة على معرة النعمان كما عمل أمير شيزر على تأمين طريقهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه درءاً لخطرهم^(١) .

بيت المقدس

كان القدس في الوقت الذي تقدم فيه الصليبيون لمهاجمتها خاضعاً للفواطم . وعلى حكمها نائب من قبلهم يدعى افتخار الدولة . وفي يوم الثلاثاء ٧ مايو ١٠٩٩ بلغ جو دفرى الصليبي المدينة المقدسة فاشتدت عزائم رجاله . لقد فوجئ افتخار الدولة بمقدم جموع الصليبيين وأدرك ضعفه عن مقاومتها وأخرج النصاري من المدينة وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودان .

أما الصليبيون فقد قسموا أنفسهم أقساماً حتى يكون حصارهم للمدينة من جميع منافذها^(٢) فلا يتمكن المسلمون من الاتصال بالخارج ، وشرعوا في الهجوم على القسم الجنوبي من القدس ، فانهارت الأسوار الأولى أمام هجومهم العنيف ولسكنهم قاسوا كثيراً من نقص الذخيرة وقلة الماء وحرارة الطقس وشدة المحصورين في دفاعهم عن بلادهم المقدسة . وأدرك الصليبيون أنهم يواجهون خصماً يرى أن في فقد بيت المقدس فقداناً لهيئته السياسية وانتهاكاً لحرماته

(١) د . محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية . ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٢) د . حسن حبشي : نور الدين والصليبيون . ص ١٣٥ — ١٣٩ .

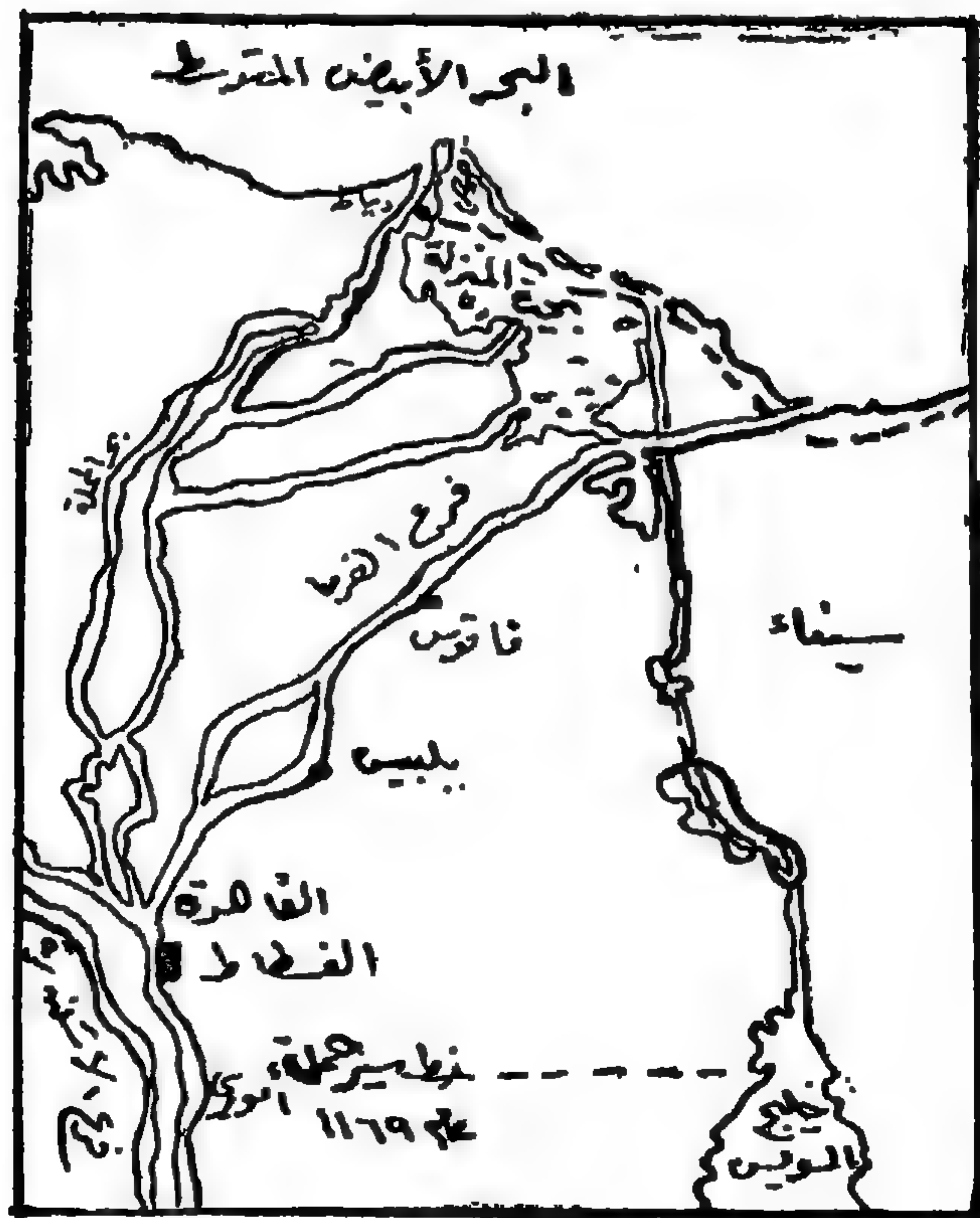
الدينية ، ومن أجل ذلك قرروا بناء آلات الحصار والقتال ونصبوا الأبراج وأسندوها إلى السور ، وتشاء ظروفهم الحسنة ، أنه وصل إلى ثغر يافا يوم ١٧ يونيو ١٠٩٩ بعض أساطيل جنوبية حملت إلى المهاجمين ما هم في حاجة إليه من الذخيرة والأخشاب والعمال .

وفي مساء الأربعاء ١٣ يونيو ١٠٩٩ (٤٩٢ هـ) ، شرع الصليبيون في الهجوم ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعا قويا رغم استعداداتهم وأخذ المدافعون يرمونهم بالنار الإغريقية حتى إذا كان صبح الجمعة بلغ القتال ذروته . واستمر القتال عنيفا على هذا المنوال بضع ساعات ، انفلت بعدها جودفرى دى بويون بجماعة من الفدائيين استطاعوا أن يجدوا لهم منفذا من ناحية لم يهتم المسلمون بتحسينها فدخلوا منها ، وفتحوا أبوابها للفرنج الذين اندفعوا كالسيل ، فالتفت المسلمون إلى الوراء وإذا بهم يرون أنفسهم وقد احرق المغير بهم من كل جانب ، فلم يجدوا وسيلة إلا الالتجاء إلى الحرم الشريف والمسجد الأقصى ليعتصموا بها . فتعقبهم الصليبيون بقيادة تانكريد وجودفرى ووضعوا السيوف فيهم ، وسالت الدماء حتى خاضوا فيها إلى ركبهم مما أخذ على الفرنج فيما بعد . واستحال المسجد الأقصى إلى بركة من الدماء^(١) ورن صدى هذا الحادث البشع ، وقامت من دمشق إلى بغداد وفادة برياسة زين الدين أبى سعد المروى مستغيثة بالخليفة العباسي والسلطان السلجوقي . ولم تجد هذه الصرخات صدى ، وقنع المسلمون بالتحسر . ولم يلبث أن استسلم افتخار الدولة لكونت تولوز بعد أن أمن جماعته على أنفسهم ، وتعهدوا له بالمضى إلى مصر . وبهذا الاستسلام في بيت المقدس بدأ صراع استمر سنوات طويلة حتى وجد القائد الملهم في شخص السلطان الناصر صلاح الدين فاسترد المدينة المقدسة .

(١) ذكر ابن الاثير (ج ١٠ ص ١٩٤) أن عد الضحايا بلغ قرابة ٧٠٠٠٠ وقدره مصدر أرمني (ماثيو الاديس ص ٢٢٦) - ٦٥٠٠٠ ويذكر وليم الصوري (ج ١ ص ٣٧٠ - ٧٢) أن النظر كان يتم على أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام في الطرق وفي الميادين العامة .



نتائج الحملة الصليبية المعروفة بالأولى واحتلال القدس



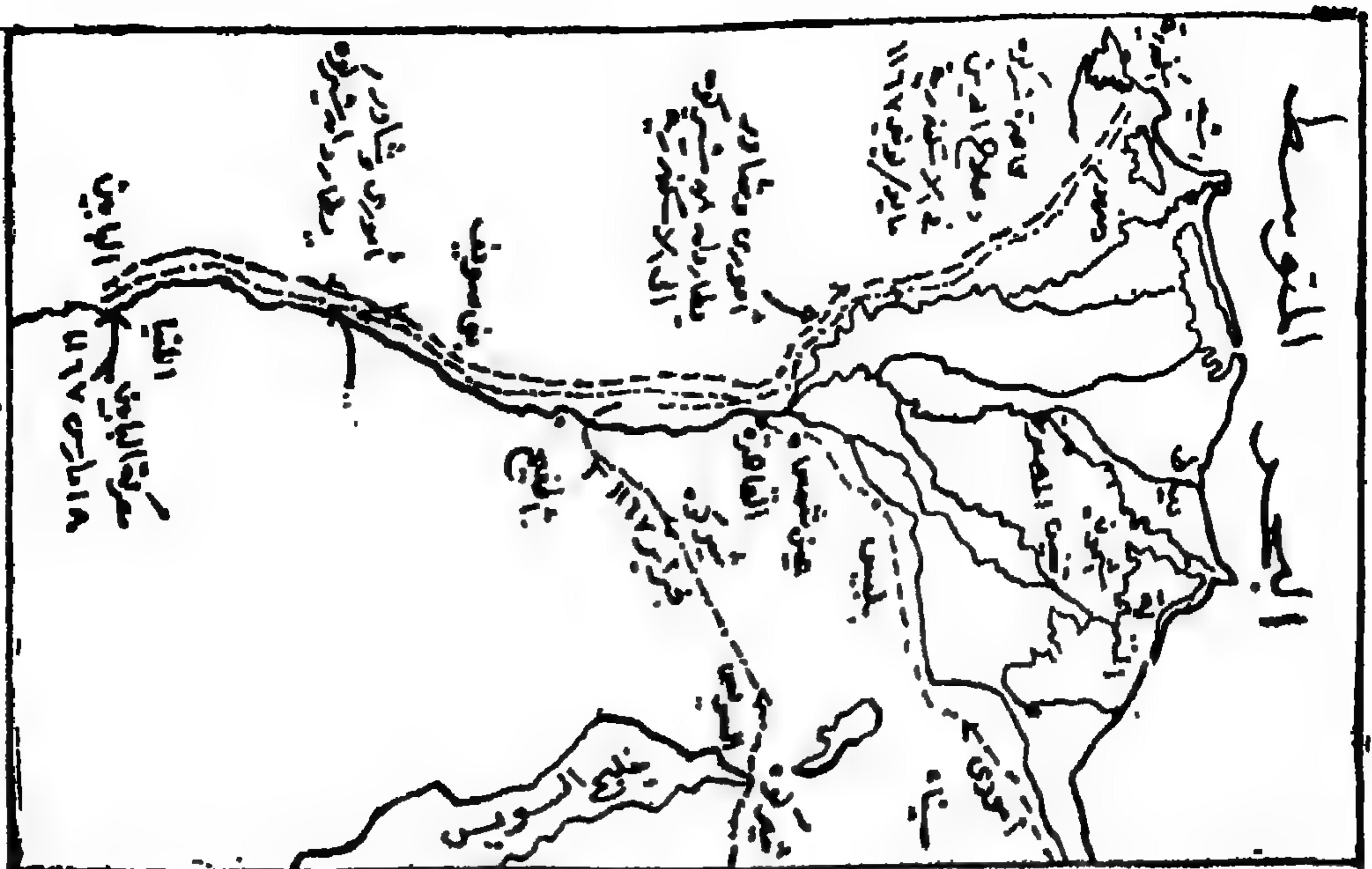
حملتنا نور الدين والصليبين في مصر سنة ١١٦٤ م

أمام هذه الخسارة الفادحة ، تحركت قوات مصر (أغسطس ١٠٩٩) ، ولم يخف التحرك عن سمع الصليبيين ، فتردد صدهاء في القدس وسمع به جودفروي ، وسرعان ما استدعى الإمداد من نابلس ، وكان المصريون قد وصلوا إلى عسقلان على البحر .

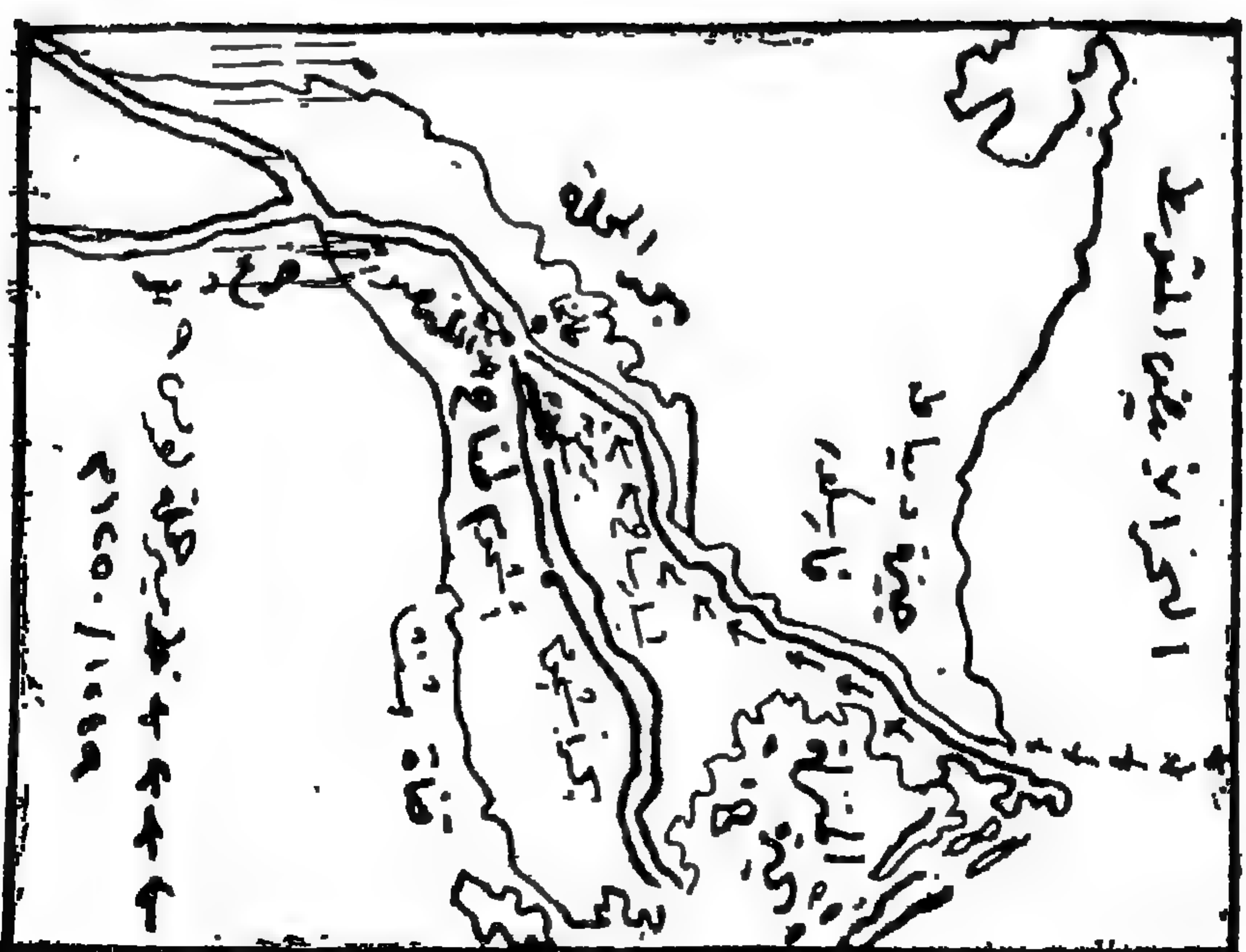
معركة عسقلان (١٢ أغسطس ١٠٩٩)

تجمعت قوات الصليبيين في قلعة « بينا » (ابلين) ثم اتجهت جنوباً فاصدة عسقلان . ولم يكن لدى القوات المصرية بقيادة الأفضل معلومات بتحريك الصليبيين ، ولم تكن كذلك تتوقع زحفها بمثل هذه السرعة ، فلا عجب إذا هي فوجئت ولم تجد الوقت الكافي للمبادرة ، وانتهر الصليبيون الفرصة ، فلم يدعوا لها زمناً للتأهب ، وكر كونت فلاندر على حامل العلم للمصري فقتله ، وانطلق في إثره الصليبيون . فدخلوا المعسكر الفاطمي ونهبوه وتمت الهزيمة وهرب الأفضل في خواصده إلى مصر . أما البقية فهرب بعضها إلى أحد الأحرش فأضرم الصليبيون فيها النار فانت عليها وعلى من بها . وأصبح ميسراً للصليبيين التقدم إلى حيث أرادوا ، ولكن القدر لم يمهل جودفروي ، فمالبث أن مات سنة ١١٠٠ م ، وتولى مكانه أخوه بلدوين . وبهذا تهيأ لمدينة بيت المقدس أن تشغل في العالم المسيحي الشرقي مكانه الرياسة الدينية والسياسية في حين اهتز الشرق الإسلامي هزة عنيفة لم يتخلص من أثرها حتى ظهر صلاح الدين بن أيوب على المسرح السيامي والعسكري . ونشبت بعد ذلك عدة معارك خفر فيها الصليبيون على القواطم ، نذكر منها :

معركة قيسارية	١٧ مايو ١١٠١
» الرملة	٧ سبتمبر ١١٠١
» جبيل	٢٣ أبريل ١١٠٤
» عكا	٢٦ مايو ١١٠٤
» طرابلس	١٢ يوليو ١١٠٩
» بيروت	١٣ مايو ١١١٠
» صيداء	٤ ديسمبر ١١١٠



المدائن العسكرية في مصر ومركز الباقين (يناير - أغسطس ١١٦٧)



حماتنا نور الدين والصليبيين ضد القراطيني مصر سنة ١١٦٧

الصلبيون في مصر

ولعل أول محاولة صليبية لاحتلال مصر ، هي التي قام بها الملك بلدوين الأول ، فإنه في عام ١١١٦ م نهض بحملته التي وصل بها إلى أيلة على البحر الأحمر ، وبنى قلعة الكرك واستولى على جزيرة فرعون ، وكان هدفه السيطرة على طريق القوافل بين مصر وسورية . وفي مارس ١١١٨ فاجأ بلدوين مدينة القرما ، وأصاب منها غنيمة وافرة ، ثم حرق المدينة ، ثم أشعل النار في قلعه جزيرة تنيس . ولما شعر بالمرض أمر رجاله بالانسحاب إلى الشرق وهو محمول على بحفة ، فوصل إلى العريش حيث وافته المنية (ت ١١١٨)^(١) .

اغتم بلدوين الثالث في عام ١١٦١ فرصة ضعف القواطم ، فدفعوا له بعض المال ، وكان هذا تمهيدا لما سيقع فيما بعد من الأحداث الكثير ، وكان أولها تلك الحملة التي أعدها الملك أموري لغزو مصر سنة ١١٦٣ ، متذرعاً بأن مصر منعت عنه المال الذي كانت ترسله منذ عام ١١٦١ ، وأعلن أن حملته ليست إلا لإرغام مصر على العودة إلى الأداء . ولذلك خرج أموري بجيشه لأول سبتمبر عام ١١٦٣ . فالتقى بالجيش الفاطمي بقيادة ضرغام ، فهزمه عند أطراف مديرية الشرقية ، ثم تابع سيره إلى بلبيس فحاصرها ، ولم يرتد عنها إلا بعد ما فتح ضرغام سدود النيل وفاضت المياه . ثم اتصل أموري بلويس السابع ملك فرنسا ، طالباً منه النجدة لإتمام فتح مصر . وفي مصر نشب النزاع بين شاور وضرغام ، فهرب الأول إلى دمشق (أكتوبر ١١٦٣) ، وتوسل إلى السلطان نور الدين زنكي أن ينفذ حملة إلى مصر ، فتمهل ، ثم أنفذ معه حملته بقيادة أسد الدين شيركوه .

(١) في أعقاب تلك الفترة جمعت الصدقة (١١٣٢) بين الأتابك عماد الدين زنكي وأخوين كرديين هما نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية في مصر والشام (حملة لويس على مصر وهزيمته في المنصورة لحمد مصطفى زيادة ص ٨ - ٩) .

معركة بلبس (١١٦٤)

حملة نور الدين الأولى بقيادة شيركوه

أدرك ضرغام أن وصول جيش نور الدين إلى مصر سيكون فيه ضياع نفوذه بل وهلاكه ، ولذلك اتصل بأمورى ووعده بدفع جزية سنوية إذا قدم على رأس حملة إلى مصر ، فأسرع في إعداد جيش لمساعدة ضرغام ، غير أن نجده وصلت متأخرة ، فقد كان جيش شيركوه قد جاوز سيناء ، وهزم الجيش الفاطمى فى تل بسطة بالقرب من الزقازيق فى مايو ١١٦٤ ، وحاول ضرغام الفرار فمات مقتولا . وخلا الجو لمنافسه شاور الذى دخل القاهرة منتصراً فى مايو ١٠٦٤ ، وعاد إلى الوزارة . ووقف شيركوه خارج أسوار القاهرة منتظراً أن يفى شاور بوعده ، ولكن هذا لم يرسل إليه أكثر من ٣٠٠٠٠ دينار ، وحالت المفاوضات ، وبدا أنه لم يعد أمام شيركوه سوى استخدام القوة . فتمهقر إلى بلبس لتنظيم صفوفه ، ثم وضع يده على إقليم الشرقية ، وصار يغير على القاهرة من وقت لآخر .

ولما أدرك شاور ما يستعد له شيركوه ، اتصل بأمورى ، فلبى النداء ، وجاء إلى مصر وحاصر بقواته جيش أسد الدين شيركوه (يوليو ١١٦٤) فى بلبس ، واستمر الحصار ثلاثة أشهر . وقد حاول شاور أن يخرج الجيشان معاً من مصر حتى ساعدته الظروف . فقد انتهز نور الدين فرصة رحيل أمورى بجيشه عن سورية ، وأخذ يهاجم أملاك الفرنجة ، فاستولى على كثير من حصونهم وأعلامهم التى أرسلها إلى شيركوه فى بلبس ونشرها أمام أنظار الصليبيين المحاصرين ، فعرفوا ما حل بأملاكهم . ومن ثم تهادن شيركوه وأمورى بعد أن دفع شاور لشيركوه ٣٠٠٠٠ دينار أخرى ، وخرج الفريقان عن مصر فى نوفمبر ١١٦٤ ،

حملة نور الدين الثانية بقيادة شيركوه (١١٦٧)

أدرك شيركوه أهمية مصر ، ووقف على أحوالها ، فألح على السلطان نور الدين

نور الدين لإعداد حملة ثانية ، فجهز جيشاً خرج به من دمشق في يناير ١١٦٧ .
فلما علم أموري بذلك ، أسرع ليصل بمحاربه قبل وصول شيركوه .

وبعد عدة متاعب اجتاز شيركوه صحراء سينا من وسطها وتجنب الطريق
إلى بلبيس ، وتقدم حتى أصبح على مقربة من القسطنطينية وأحجم عن مهاجمتها .
ثم علم بما تم بين شاور والصليبيين ، فتصد اطفيح على الشاطئ الشرقي للنيل .
وعلى مسافة أربعين ميلاً جنوبى القسطنطينية .

عرف شاور وحليفه أموري ذلك فافتنيا أثر شيركوه . ولذلك اجتاز هذا
النيل ، وعسكر بقواته مكان الجيزة الحالى . وظل الجيشان يواجه أحدهما الآخر
عدة أشهر . وحاول الصليبيون عبور النيل ثم أحجموا وساروا شمالاً ، وعبروا
النيل فى الظلام شمال القاهرة ، ثم عادوا إلى الجنوب . وكان شيركوه قد أدرك
خطتهم ، فاندفع جنوباً حتى وصل ملوى ، حيث أدرك شاور وأموري وكادت
تنشب المعركة بين الجيشين عند « البابين » .

معركة البابين

كان شيركوه قد أرسل رجاله للكشف عن أحوال جيش الأعداء ، فلما
وقف عليها بعض رجاله ، أشاروا عليه بالعودة إلى الشام . وبالرغم عن روح
اليأس التى سيطرت على جيشه ، فإن جندياً ، هو شرف الدين برغش ، استطاع
أن يحول اليأس فى قلوب الجند إلى أمل ، إذ قام فى الجند قائلاً :

« من يخشى القتال والجراح والأسر ، فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحاً
أو مع النساء فى بيته . والله أئن عدتم إلى الملك العادل نور الدين من غير غلبة
وبلاء تعذرون فيه ، ليأخذن أقطاعاتكم ، وليعودن عليكم بجمع ما أخذتموه إلى .
يومنا هذا . ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ،
وتسلمون مثل هذه الديار يتصرف فيها الكفار (١) .

وافق شيركوه على هذه الكلمة ، وتبعه صلاح الدين ، ثم كثر الموافقون
على القتال حتى اجتمعت الكلمة على لقاء العدو .

(١) كتاب الروضتين ج ١ ص ١٤٣ — وابن الأثير ج ١١ ص ١٤٥ — ١٤٦ .

قسم شيركوه جيشه إلى قلب وجناحين ، وأمر صلاح الدين على القلب ، وأسر إليه أن يتراجع بانتظام عند نشوب المعركة ، بينما قاد هو الميمنة^(١) فلما التحم الجيشان في ١٨ أبريل ١١٦٧ م ، تراجع صلاح الدين واندفع الصليبيون خلفهم ، وعندئذ هجم شيركوه على ميسرة الأعداء ، فبدد شملهم وأجبرهم على الهرب ، فلما شاهد الصليبيون أن حلفاءهم قد فروا ، ذعروا وتبعوهم هاربين نحو الشمال ، بعد أن شاهدوا شيركوه يقوم بحركة لتطويقهم . وهكذا انتصر شيركوه وصلاح الدين على شاور وأمورى . فكان هذا أعجب ما يؤرخ . أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل^(٢) ، فضلا عما أصابته من الغنيمة وما فقدته من القتلى والأسرى ، ثم تبعت ذلك معركة أخرى في الاسكندرية .

واتفق أخيراً على وقف للمارك وتبادل الأسرى ورفع الحصار الصليبي عن الاسكندرية ومغادرة شيركوه وأمورى مصر . وسرعان ما غادر صلاح الدين الثغر والتقى بأمورى وأعجب كل منهما بخصمه . وغادر شيركوه مصر بعدما اتفق عليه مع شاور لدفع نفقات الحملة ، ثم عاد إلى دمشق في ٥ سبتمبر ١١٦٧ ، وقا . دفعته رغبته في العودة إلى مصر مرة ثالثة .

أما الصليبيون فلم يهملوا خطة أخرى لغزو مصر الفاطمية ، فقد اتفق أمانويل دى كومنين امبراطور بيزنطية وأمورى على إرسال حملة مشتركة لاحتلال مصر وأن يخرج الجيشان البيزنطى والصليبي بقيادة أمورى لفتح مصر في عام ١١٦٩ ولكن تحت إلحاح الظروف قرر أمورى وحده أن يغزو مصر ، فتظاهر أولاً بأنه يقصد حمص ثم اتجه فجأة إلى الجنوب حتى وصل إلى دير البلح ، ولما بلغ شاور ذلك أرسل أحد قادته ، وإسمه بدران إلى أمورى ليستفهم منه عن سبب حملته ، فما كان من أمورى إلا أن استمال بدران إليه ؟ فلما لم يعد هذا إلى شاور أرسل رسولا آخر ، فطمأنه أمورى ، وزعم أنه يريد التوسط بين

(١) على ييوى . قيام الدولة الايوبية في مصر ، ص ١٢٠

(٢) ابن الاثير . الكامل ج ١١ ، ص ١٤٦ ، النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٣٩

المصريين وجماعة من المحاربين الأوربيين يعتزمون غزو مصر ! وعند ذلك أدرك شاور خفية الأمر واستعد للقاء المعتدين ، بيد أن أموري كان قد وصل إلى بلبس (نوفمبر ١١٦٨) وحاصرها عدة أيام . فاستنجد الخليفة العاضد الفاطمي بنور الدين لإيقاد مصر ، فأسرع باستدعاء شيركوه ليقود حملة جديدة .

حملة نور الدين الثالثة بقيادة شيركوه (١١٦٨)

بعد أن استولى أموري على بلبس ، قصد القاهرة فبلغها في يوم ١٣ نوفمبر ١١٦٨ ، ونزل بالقرب من باب البرقية (يحتمل أنه عسكر عند بركة الحبش) . وفي ذلك الحين أمر شاور بإحراق الفسطاط ، فقامى أهلها الحن وقعدوا ممتلكاتهم وهلك كثيرون منهم . وظلت النيران مشتعلة في الفسطاط أربعة وخمسين يوما ، بينما واصل الشعب مقاومة الجيش الصليبي بقوة وبأس . وأمام تلك الصعاب اضطر أموري إلى الرحيل عن مصر في ١٨ يناير ١١٦٩ . وظن شاور أنه يستطيع التخلص من شيركوه بدوره ، فأخذ يدبر المكائد والحيل ، بيد أن أسد الدين شيركوه كان على علم بها . ولم يمض وقت طويل حتى قتل شاور (١٨ يناير ١١٦٩) ودخل شيركوه القاهرة ، ثم خلع العاضد عليه منصب الوزارة ، بيد أنه توفي في الثالث والعشرين من مارس ١١٦٩ ، وخلا الجو لابن أخيه صلاح الدين الذي استدعاه الخليفة وخلع عليه خلة الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، وهو اللقب الذي حملة شيركوه نفسه من قبل .

وبالرغم عن الجفاء الذي بدأ يسود العلاقات بين الملك نور الدين وصلاح الدين ، فقد كان لا تتصلر قوات الشام في مصر وبقائها في البلاد تحت إمرة صلاح الدين بمثابة حلقة جديدة للتوحيد بين جهود مصر والشام في صد الصليبيين . فقد حصرت الإمارات اللاتينية من الشمال والجنوب بين قوات نور الدين وصلاح الدين ، كما أصبحت سواحل الشام وهي ما زالت في أيدي الصليبيين مهددة بإغارات السفن الإسلامية ، كما أنه قطعت بين الصليبيين وبين أوروبا سبل الاتصال إلى حد ما .

حملة أمورى وبيزنطية ضد مصر (١١٦٩ م)

أدرك الصليبيون خطورة موقفهم بين طرفي الكماشة الإسلامية ، ورأى أمورى الأخطار التي تواجه مملكة بيت المقدس ، ولذلك عول على إيفاد سفارة مؤلفة من بطريك بيت المقدس وهرنسيون مطران قيصرية في أوائل عام ١١٦٩ يحملون الرسائل إلى فردريك ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، وإلى مرجريت الملكة الوصية على عرش صقلية ، وكونتات الفلاندر وبلوى وترويس . وكادت السفينة التي تحملهم تفرق في البحر وهى في طريقها ، ولكنها استطاعت العودة من حيث أتت ، وأرسل أمورى سفارة ثانية إلى روما فوصلتها في يوليو ١١٦٩ حيث استقبلهم البابا ومنحهم عدة خطابات للتوصية إلى جميع رجال الكنيسة في أوروبا ، ولكن لم يكن لها أى صدى ، وعادوا إلى فلسطين بخفى حنين .

أما سفارة أمورى إلى امبراطورية بيزنطية فقد أتت ببعض المزايا . فقد أدرك الامبراطور إيمانويل أن ميزان القوى في الشرق قد ارتبك بعد أن «رضخت كفة المسلمين ، ولذلك رأى أن يقدم المعونة إلى أمورى ويساعده بحملة بحرية قوامها أسطول كبير.. كل هذا لاستعاضة مصر من قبضة المسلمين . وكانت الظروف مؤاتية للقيام بهذه الحملة الصليبية ، لكن كان أمام نور الدين مشاكل شتى . فقد جلب موت قره أرسلان أمير ديار بكر الأرتقى . عام ١١٦٨ بعض المتاعب تتصل بوراثته الإمارة ، أضف إلى هذا الثورة الكبرى التي أشعلها غازى بن حسن حاكم منبج ، ولم تصفى ذيلها إلا بعد أشهر .

أما في مصر ، فقد شبت ثورة السود ضد صلاح الدين وهو في أول عهده بالوزارة ، واتصل زعيمها « المؤتمن » بالفرنج في فلسطين يدهم بالمؤازرة إذا أعدوا حملة أخرى ضد مصر ، ولكن فضح رجال صلاح الدين تلك المؤامرة . ألح أمورى على امبراطور بيزنطية بالمبادرة بإيفاد النجدة .. وقد كان .. ففى ١٠ يوليو ١١٦٩ أفلح أسطول بيزنطى من القسطنطينية بقيادة اندرونيك كونستفانوس واتجه الجزء الكبير منه إلى قبرص حيث تزود بالمؤن وانضمت

إليه هناك ستون سفينة بيزنطية أخرى ، وكان هذا أكبر أسطول قدر للصليبيين أن يشهده ، واستطاع هذا الأسطول أن يأمر سفينتين مصريتين . وفي الوقت ذاته اتجهت بعض السفن إلى عكا تحمل المال والعتاد الحربي ، وطلب إلى أموري أن يعيد هذه السفن وأسطوله إلى قبرس ثانية محملة برجاله لاستئناف مسيرة الأسطول إلى مصر ، ولكن أموري أجابه أنه غير مستعد الآن ، وكان جيشه في حالة تفكك على أثر فشل حملته الأخيرة على مصر .

وفي سبتمبر استطاع أموري حشد أسطوله في عكا . وفي منتصف أكتوبر سنة ١١٦٩ أقلت السفن مارة بصور وعسقلان التي غادرتها يوم ١٦ أكتوبر ، وبلغت الفرما في اليوم التاسع من مبارحتها عسقلان (٢٥ أكتوبر) ، وهناك أبصرت الأسطول البيزنطي ينتظرها ، ومضت الحملة والأسطول معاً إلى دمياط التي لم تكن محصنة وأمضى البيزنطيون وحلفاؤهم ثلاثة أيام في نصب خيامهم أمام دمياط مما أتاح للمدافعين عن المدينة الاستعداد للقتال .

وقبل وصول الحملة إلى دمياط ، كان صلاح الدين قد أمن قواته في القاهرة وتم له الانتقام من زعيم الثوار المؤمن بقتله (٢٠ أغسطس ١١٦٩) ، وطرد جميع رجال القصر الفاطمي الذين لم يدينوا له بالولاء ، كما أنه تخلص من زهرة الجيش الفاطمي فأحرق ثكناتهم في القسطاط ، وتم هذا كله بفضل نحر الدين شقيق صلاح الدين .

توقع صلاح الدين أن يتخذ أموري طريق البر المعروف بين الفرما وبليس ولذلك حشد قواته أمام بليس . فلما بلغه وصول أسطول الأعداء إلى دمياط أخذ على غرة ، ورأى أن يبقى في القاهرة للقضاء على أية ثورة أخرى قد يشعلها الفواطم ، وأسرع في إرسال النجديات إلى دمياط . ثم كتب رسالة إلى نور الدين في الشام يطلب منه الإسراع في نجدة .

أما حامية دمياط فقد ألقت السلاسل الحديدية أمام الثغر ، فحجزت سفن العدو عن اقتحام النيل لرد وصول الإمدادات إلى الحامية ، وهبت الرياح الشديدة فلم تحرك السفن ساكناً وكان هذا في صالح المصريين ضد المنيرين

على البلاد . وهكذا ضاعت فرصة المفاجأة التي كانت في صالحهم في بادئ الموقف ، وكانوا يستطيعون إقتحام أسوار دمياط واقامة أبراج الحصار العظيمة حولها . . وفي أثناء تلك القوضى أصابت إحدى منجنقاتهم الحى المسيحى فى دمياط ، وأصببت كبيسة العذراء بأضرار ، والجدير بالذكر أن هذه الكنيسة هى مسجد أبى المعاطى ، وكان الصليبيون آخذوا منه كنيسة .

وصلت إمدادات نور الدين إلى دمياط ، كما أرسل صلاح الدين جنوده عن طريق النيل وزودوهم بالسلاح والذخيرة ، وبعث السفن تحت قيادة أخيه تقي الدين عمر وقريبه شهاب الدين محمود ؛ وبذلك استطاعت دمياط الباسلة مقاومة غزاتها الذين أمضوا عدة شهور فى التأهب لمهاجمتها وهم فى حالة لا توصف من القوضى .. بلغت هذه النجذات حتى أصبحت دمياط فى حال تمكنها من دفع المعتدين . وأسرع المصريون فى بناء برج لرمى المنجنيق ، فتكاتف المسلمون وبالتبسط على رد العدو بقوة وبأس .

وكانت تزداد الصعاب على الفرنج يوما بعد يوم ، فقد هطلت الأمطار ليلا ونهارا وتحولت خيام العدو ومعسكراتهم الى برك المياه والوحل حتى اضطروا لحفر الحفر حولها لتجتمع فيها مياه الأمطار . ولم تلبث أن دب بين المعتدين أنفسهم ما أضعف عزائم جندهم . وهو نقص الطعام يوما بعد يوم لأن الأسطول البيزنطى لم يجد معه غير مؤنة ثلاثة أشهر استنفذ معظمها فى المدة التي انقضت منذ إقلاعه من بلاده حتى مغادرته عسقلان ، فضلا عن تعذر الحصول على شيء من دمياط وما جاورها كما اغتنمت جماعات من المصريين والبدو الفرصة وكانت تغير بين آن وآخر على خيام العدو فتسلب ما تصل أيديها إليه .

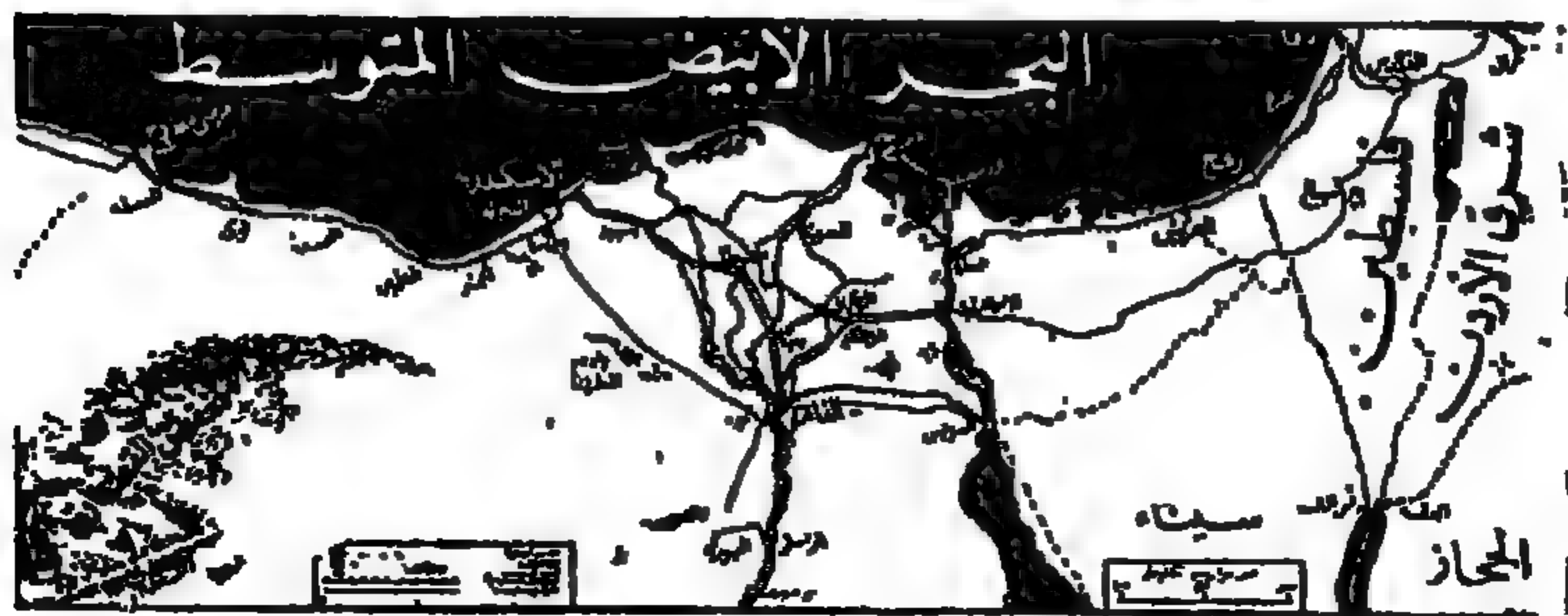
أدت تلك الظروف مجمعة إلى تسرب القلق إلى نفوس الصليبيين والبيزنطيين ، وصرعان ما أحس القائد البيزنطى بشدة فتك الجوع بجنده ، وأدرك أنهم لن يستطيعوا الصبر طويلا لمواصلة القتال المرير فى مثل تلك الأحوال القاسية ، وأشار القائد على أمورى بمهاجمة دمياط دفعة واحدة حتى تقع فى أيديهم . فينطلقوا بقواتهم نحو القاهرة ، غير أن أمورى لم يوافق على خطئه ، متعللا

بأنها قد تؤدي إلى هزيمة الجيش ، فلم يوافق كوستفانوس على رأيه ، وعقد بعثة منتصف إحدى الليالي مجلساً من قادة جيشه واستعرض معهم الموقف وأمرهم بالمهجوم على المدينة والاضطلاع بالمهجوم دون الصليبيين . فكان ذلك أول تصدع للحلف البيزنطي الصليبي .

بدأت أخيراً فكرة التفاوض . ومن المرجح أن أموراً كان البادئ بهه يستطيع العودة إلى فلسطين لمواجهة السلطان نور الدين الذي اغتنم فرصة خلو الإمارات اللاتينية بالشام ، فأخذ يغير على حصن الكرك وغيره ويوقع الرعب في قلوب عساكرها .

وانتهت الحملة بالفشل وعقدت الهدنة بين المتحاربين ، وأخذوا في التزاور .. ثم انسحب الأسطول البيزنطي من المياه المصرية ورجع أموراً على رأسه . فلول قواته إلى بلاده بعد أن أحرقوا آلات الحصار التي جلبوها معهم في يوم ١٢ ديسمبر لكي لا تقع في أيدي المصريين ، ووصلت مقدمة الجيش الصليبي . عسقلان في ٢٤ ديسمبر ١١٦٩ . أما الأسطول فقد هبت عليه رياح شديدة . فأطلقت معظم سفائنه ..

هكذا انتهت نكبة دولتين : الامبراطورية البيزنطية والممالك الصليبية . وامتنع الصليبيون مؤقتاً عن التدخل في شؤون مصر ، ولم يهاجموها إلا في حملتين . أخرتين في أواخر أيام الأيوبيين ، فشجع هذا البطل صلاح الدين الأيوبي على تحويل مجرى الحرب ، فأخذ يشن الهجمات على الصليبيين في مدنها وحصونها . في الشام ، وسنقرأ ذلك في الفصل التالي .



ميناء قلب العروبة

الفصل الخامس

الجيش في عصر الأيوبيين

(١١٧١ - ١٢٥٠ م)

عصر صلاح الدين

لا يتسع المقام في التمهيد التاريخي الموجز — الإطالة في الكلام عن أعمال صلاح الدين ، هذا البطل العظيم وأحفاده . فقد قضى هذا الملك معظم حياته خارج مصر يحارب الصليبيين لرفع شأو الإسلام والمسلمين . فبعد أن تم له توحيد صفوف العرب في العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر ، وفي خلال الأربعة والعشرين عاماً ، وهي فترة نهوضه بالحكم ، لم يمض منها سوى ثمانية أعوام في القاهرة . كان كثير الانتقال ، مجاهداً على رأس جيشه في أراضى الجهاد : أرض الجزيرة ، والشام ، وفلسطين ، فقضى على الصليبيين بانتصاره الخالد عليهم في معركة حطين (١١٨٧ م) ، وأعاد بيت المقدس لأصحابه المسلمين بعد أن سمح للمسيحيين بأن يحجوا إليه ، وكفى أن نذكر له معارك صور وعكا والرملة ، إلى جانب بيت المقدس ، وحطين .

وقد عمل خلفاء صلاح الدين من بعده على الحفاظ بمكانة مصر وجمع كلمة المسلمين ، فواصلوا سياستهم القوية الحازمة ضد الصليبيين فأضعفوا شوكتهم ، ولم يفتروا عن دعم ملكهم . فكان الملك العادل من أكبر الناس حرصاً على وحدة المسلمين ، ولما خلفه ابنه الكامل محمد سار على هدى أبيه وجده ، فحفظ وحدة الدولة وزاد في تحصين القاهرة ، فأتم بناء قلعة الجبل ، وفي أيامه غزا الصليبيون دمياط بقيادة الملك جان دي برين (١١٨٢ م) ، فملكوها حتى إذا ما وصلت اليه الإمدادات، عرض على الصليبيين الصلح ، على أن يرد اليهم بيت المقدس نظير جلائهم من دمياط ، فرفضوا وزحفوا على القاهرة .

وانتهز المصريون فرصة فيضان النيل ، فأطلقوا الماء على معسكرات الصليبيين بالقرب من المنصورة ، ثم انقضوا عليهم من كل جانب، وهزموهم شر هزيمة ثم تعاهد الصليبيون على إخلاء دمياط والجلاء عن مصر .

وفي عام ١٢٤٤ م انتزع الملك الصالح نجم الدين من منافسه يدت المقدس ثم شيد قلعة الروضة بجزيرتها ، حيث حشد فيها الجند والسلاح .. وفي أخريات أيامه غز الصليبيون مرة أخرى مصر، بيد أن المصريين كانوا قد أدركوا حيلهم الخريبة ومدى سيطرتهم على القتال ، فكان لهم النصر العظيم في معركة المنصورة (١٢٥٠) التي سنتحدث عنها في الصفحات التالية

لقد امتد سلطان مصر في زمن الدولة الأيوبية على جزء كبير من البلدان العربية ، فدخل الشام وشمال العراق وبلاد الكرد في حوزتها ، ولما توفي صلاح الدين (١١٩٣م) كانت مصر بحق زعيمة دولة ، امتدت من شمال دجلة إلى برقة بليبيا وإلى النوبة جنوباً ، وأقصى جنوب شبه الجزيرة العربية المطل على بحر العرب



فارسان أيوبيان

الجيش الأيوبي

نهض الأيوبيون منذ أن أسس صلاح الدين دولته الجديدة في وادي النيل بدور فعال في توجيه سياسة العالم العربي ، فقد عمل جادا في توحيد الجبهة العربية ضد الغزاة الصليبيين ، ثم دعم خلفاؤه هذه السياسة الحكيمة لمدة قرن من الزمان تقريبا . ويعود الفضل في تنفيذ تلك الاستراتيجية إلى القوات المسلحة الأيوبية وقيادتها البارعة التي جعلت في كل قطر عربي جبهة قتال متماسكة مستعدة لمجاهة ظروف القتال المحلية .

تألفت جيوش صلاح الدين من العناصر الرئيسية الآتية :

- ١ — الجيش المصري (للرباط في مصر) .
 - ٢ — القوات الشامية والعراقية : تتألف من عسكر دمشق ، وحمص ، وحماة ، وحلب ، والموصل والجزيرة .
 - ٣ — القوات المعاونة من الراكين وللشاة : تتألف من التركمان ، والأكراد ، والعرب ومن أظهر هؤلاء بنو منقذ من شيزر .
- تألفت جيوش صلاح الدين من قوات نظامية ، وكان يطلق عليها العسكر ، وقوات احتياطية أو إقليمية وكان يطلق عليها الجند . وتستخدم لفظتا العسكر والجند في معظم المصادر في غير دقة ولا تحديد^(١) . والعلاقة بين الجند الاحتياطي ، والعسكر المركزية الثابتة مرتبطة بحقوق وواجبات أصحاب الإقطاعات المحلية نحو سيدهم^(٢) . فالجيش الثابت يخدم أفراد بصفة دائمة ويتقاضون راتبا منتظما ، ويحيطون شخص السلطان لا يفارقونه أبداً ، ويكلفون أحيانا بالدفاع عن القلاع والحصون . والجند في الواقع عسكر الأمراء ، ويطلق عليهم ممالك الأمراء أو أجناد الأمراء ، وعلى كل أمير ، إعداد ما يتطلبه إقطاعه ، فإذا نشبت الحرب ذهب الأمير بجنده إلى القتال ، وإذا انتهت الحرب عادوا إلى مراعيهم وخيامهم وكانوا لا يتناولون أجراً منتظماً ، بل يأخذون نصيبهم من الغنائم والأسلاب .

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٩٣ ، ج ١٣ ص ٨٥ ، القرينزي : الخطط

ج ١ قسم ١ ص ٤٨ .

(٢) د نظير حسان سعداوي : جيش مصر في أيام صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٦ .

وكان الأكراد والترك يكوّنون العنصر الأساسى والرئيسى فى العسكرية الأيوبية ، يكثر عددهم ويقل حسب قدرة السلطان المالية فى إعدادهم والإنفاق عليهم .

تلك هى أهم العناصر التى أسهمت فى تكوين جيش مصر على عهد صلاح الدين، وقد قسمه إلى فرق ، تنسب كل فرقة منها إلى سلطان سابق، فيقال المماليك النورية نسبة إلى السلطان نور الدين محمود . أو تنسب الفرقة إلى أحد القواد العظام السابقين، فيقال المماليك الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، انضموا إلى صلاح الدين بعد وفاته عام ١١٦٩، ومن أعيانهم الفقيه عيسى المكارى الذى أسره الصليبيون فى موقعة الرملة سنة ١١٧٨ وافتداه صلاح الدين بستين ألف دينار. ومنهم بهاء الدين قراقوش ناظر أشغال السلطان صلاح الدين يوسف .

أما مماليك صلاح الدين ، فكان لهم عدة أسماء ، منها المماليك الصلاحية نسبة إليه ، أو الناصرية ، نسبة إلى لقبه أو جند الحلقة . ومن كبار أمراءهم علم الدين كرجى ، وسيف الدين سنقر . وأبيك الساقى ، وركن الدين منكورش، وفارس الدين ميمون ، وأبو المنصور جهاركس الملقب بنجر الدين . وتعتبر الفرق الثلاث النورية ، والأسدية، والصلاحية أهم قوات الجيش الثابتة ، يقومون بأهم الأعمال الحربية والغزوات، وأطلق على رؤسائهم لقب مقدمو المماليك السلطانية. حارب جيش صلاح الدين فى عدة معارك كبرى ، ولا شك أن حطين كانت أهمها ، (يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخرة عام ٥٨٣/٢٦ يونيو سنة ١١٨٧) . ودخل صلاح الدين عكا يوم الجمعة أول جمادى الأولى سنة ٥٨٣ (٩ يوليو سنة ١١٨٧) . ثم كانت معركة استعادة بيت المقدس ، ومعارك القائد لؤلؤ فى البحر الأحمر وفى الأراضى المقدسة ضد الصليبيين .

كان الأيوبيون فى خلال حكمهم لدولتهم الكبرى ، أسرة جهاد بكل معنى الكلمة . فقد خاض الشعب العربى فى خلال ثمانين سنة شتى المعارك والحروب المتعاقبة ، وانتهت بمعركة المنصورة الخالدة فى عام ١٢٥٠ . وكان عماد

النصر ، تلك الوحدة القوية بين مصر وسورية ، وأفراد القوات المسلحة من عرب وأكراد وتركمان . وقد مهد هؤلاء ولاسيما المماليك ، لإقامة دولة قوية أخذت على عاتقها الحفاظ على أرض الوطن ورد الصليبيين ، بل والمغول أيضا على أعقابهم ، وسنقرأ تلك الصفحات المجيدة في الفصول التالية .

أمدنا اثنان من مؤرخينا الأجلاء بمقتضى هامة عن الجيش الأيوبي ، هما الأستاذ الدكتور السيد الباز العريني فيما كتبه عن الأيوبيين ولاسيما مصر في عصر الأيوبيين ، والدكتور حسنين محمد ربيع في مؤلفه « النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين . »

كان يتولى مصروفات الدولة الأيوبية في مصر عدد من الدواوين المالية تدل أسماؤها على أنواع مصروفاتها فضلا عن إيراداتها ، وهذه الدواوين هي ديوان الخا ص السلطاني ، وديوان الجيش ، وديوان الأسطول ، وديوان الأجناس . وديوان الموارث الحشرية وديوان الزكاة ، وكانت هذه الدواوين معروفة في زمن حكم الفواطم ، فأبقاها صلاح الدين على ما هي عليه ، وأضاف إليها ما استحدث من الدواوين . وكان ديوان الجيش مركز توزيع جميع الإقطاعات ، فضلا عن شؤون الصرف العام على الجيش والتعبئة والسلاح والمؤن والحاميات . والقلاع والحصون حسب النظام السائد .

وكان أهم أعمال الموظفين بهذا الديوان إثبات أسماء أرباب الإقطاعات على اختلاف طبقاتهم وجميع أفراد الجيش السلطاني وجيوش الأمراء وابتداء لمرتهم حسب السنين الهلالية ، وعن انتقل إليه الإقطاع وعدد الجند الذين يقتنهم في إقطاعه ، وأمام كل اسم عبرة إقطاعه « رمزاً لا تصريحاً »^(١) . وأهم ناحية من نواحي ديوان الجيش هي تقويم الإقطاعات في مصر بما يسمى العبرة ، وكانت الوحدة النقدية في ذلك هي الدينار الجيشى وهو دينار يسمى العبرة حقيقة على قول القلقشندي ، استعمله أصحاب ديوان الجيش في تقدير عبرة مختلف

(١) د. حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، ص ٦٢ . مطبعة جامعة القاهرة .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، ج ٣ ص ٤٤٢ .

الأقطاعات ، فجعلوا لكل أقطاع عبدة دنانير جيشية تكثر أو تقل حسب مرتبة صاحب الأقطاع وقيمة وظيفته في الدولة ومكانة طبقتة في المجتمع^(١) فكان الدينار الجيشى للأجناد والأترار والأكراد والتركان في عهد صلاح الدين يساوى ديناراً ذهبياً كاملاً ، ولكتائب العربان الكنانية والعساقلة من الجيش الأيوبي المصري نصف دينار ، أما الغزاة فدينارهم الجيشى ربع دينار ، بينما تقاضى العربان ثمن دينار فقط^(٢).

ويلقى الدكتور ربيع الضوء على ما كان عليه الجيش الأيوبي في أول تكوينه بمصر فيقول : وفي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وصلاح الدين لا يزال نائباً عن نور الدين في مصر ، وديوان الجيش لا يزال متبعاً نظم الأعطية الفاطمية ، أقيم عرض عسكري كبير في القاهرة يوم ٨ المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١ سبتمبر ١١٧١) . وشهد ذلك العرض رسل البيزنطيين والصليبيين ، واستمر يوماً وشطراً من الليل ، وكان عدد الجيش النظامي الذي شهد العرض ١٤٧ طلباً^(٣) والنائب ٢٠ طلباً ، وبلغ عدد الحاضرين ١٤ ألف فارس ، وغالبهم من الطواشية^(٤) الذين تقاضى الواحد منهم راتباً من ٧٠٠ — ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ دينار ، وله برك^(٥) فضلاً عن غلام يحمل سلاحه في الحرب . أما بقية أعداد الجيش فهم من القراغلامية^(٦) يضاف إليهم العربان الملحقون بالجيش ، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس ، غير أن من حضر العرض منهم لم يزد على ١٣٠٠ .

ثم قام صلاح الدين بتعميم نظام الإقطاع الحربي ، فصار أمراء الأجناد

(١) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الإلشا ، ج ٣ ص ٤٤٢

(٢) ابن ممتي : قوانين الدواوين ص ٣٦٩ . انظر حسنين ربيع : ص ٦٤ — ٦٤

(٣) الطلب بلغة الغز (الماليك) وحدة تتألف من أمير (قائد) له علم معقود وبوق مضروب . وعدد من الفرسان يتفاوت عددهم بين ٢٠٠ و ٦٠٠ و ٧٠٠ فارساً (المقریزی : المواعظ والاعتبار — ج ١ ص ٨٦)

(٤) يقصد بالطواشي الجندي من الفئة الأولى من العساكر — العربي : مصر في عصر الايوبيين ، ص ١٥٤ حاشية ١

(٥) البرك هو متاع الفارس وعدته وما يجوزته من الخيل والبغال والجمال (المقریزی : ج ١ ص ٨٦)

(٦) القراغلام هو الجندي العادي ، الفريسي : المرجع السابق ص ١٥٤ ، حاشية ٢

أصحاب الإقطاعات هم المكلفون بالإففاق على كتائبهم التي تدخل في الجيش العام زمن الحروب .

وفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١) بلغت عدة الجيش الأيوبي في مصر ٨٦٤٠ فارساً ، وصلت النفقة عليهم مبلغاً كبيراً قدرته المراجع ٣٦٧٠٥٠٠ دينار يضاف إلى المبلغ جامكيات الأمراء المحولين ورواتبهم . ثم زادت نفقات الجيش الأيوبي بعد ذلك حتى بلغت سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩) وذلك قبل وفاة صلاح الدين بثلاثة أعوام - نقلا عن القاضي الفاضل ، مبلغ ٤٥٦٣٠١٩ دينار^(١)

ثم انخفض الجيش الأيوبي في مصر إلى ٨٥٠٠ فارس ، وانخفضت معه نفقات الجيش وذلك بسبب انتهاء أيام الجهاد الصلاحي ضد الصليبيين ، وانتقال كثير من الأمراء الأيوبيين إلى جيش الأفضل على في دمشق ، والظاهر في حلب ، والعاقل بالبلاد الفراتية ، فضلا عن عدم قيام العزيز عثمان بأي جهاد ضد الصليبيين . ثم ارتفعت نفقات الجيش الأيوبي أواسط زمن السلطان الكامل وحروبه ضد الحملة الصليبية المعروفة باسم حملة حنادي برين ضد دمياط ، حتى إذا انتهت تلك الحملة بجلائها عن دمياط انخفضت النفقات العسكرية مرة أخرى ، فصارت عام ٦٣١ هـ (١٢٣٣) مبلغ ٦٠٠ ألف دينار ، وبلغ راتب الجندي العادي عشرين ديناراً مصرياً ، ولكل من كبار الجند راتب تراوح بين ٤٠ - ٥٠ ديناراً^(٢) - كما جاء في مخطوط ابن أبيك .

ثم زادت نفقات الجيش الأيوبي في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب بسبب خشيته من حملة صليبية تأتي إلى مصر عن طريق البر واستخدامه شراذم الخوارجية واستخدامهم لحماية الأطراف المصرية وغيرها من البلاد الشامية التي ظلت على ولائها للسلطان الصالح نجم الدين ، ثم استكثر هذا السلطان فئة جديدة عرفت باسم المماليك البحرية الصالحية وهم من الترك ، فأعطاهم الصالح

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٢) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٧ ، ورقة ٩٢ - ٩٣ عن النظم

المالية في مصر ، ص ٦٧ .

الأقطاعات الوافرة والرواتب والجوامك الدائمة لإخلاصهم له . ولم ينس أن يوصى ابنه تورانشاه في وصيته بقوله : « وتتوصى بالماليك غاية الوصية فهم الذين كنت أعتد عليهم وأثق بهم ، وهم ظهري وساعدي ، تلتطف بهم وتطيب قلوبهم ، وتوعدهم بكل خير . فتكرمهم وتحفظ جانبهم فهذه وصيتي إليك فاعمل بما فيها ، ولا تخالف وصيتي » (١) .

وكان من مصروفات ديوان الجيش أيضاً مجموعة من المدن العسكرية الأيوبية وهي العادلية والمنصورة والصالحية . فشىد السلطان العادل سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧) مدينة العادلية جنوبي دمياط وشحنها بالمقاتلين استعداداً لقدم الصليبيين إلى مصر من ناحية دمياط ، فأصبحت من ذلك الحين مدينة جهاد عسكر فيها السلطان الكامل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، ليعبر عساكره منها إلى دمياط لمنع الصليبيين من دخولها (المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢١٦)

وشىد السلطان الكامل مدينة المنصورة سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩) ، عندما استولى الصليبيون على دمياط ، فعسكر بجنوده مكان تلك المدينة وشىد فيها قصرأ وأمر من معه من الأمراء والعساكر ببناء الدور والأسواق . وأحاط المدينة بسور على النيل حماه بالآلات الحربية والستائر .

واهتم السلطان الصالح نجم الدين بمدينة المنصورة فبنى الأبنية بها وشرع عساكره في تجديد أبنيتها وإصلاح سورها وتوافد إليها الجند والعساكر والعربان فعمرت المنصورة وأصبحت رباطاً ضد الصليبيين .

وشىد السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدينة الصالحية سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦) في أول الصحراء التي تفصل بين مصر والشام لتكون نقطة أمامية للدفاع عن الأطراف المصرية وأنشأ بها قصوراً وجامعاً وسوقاً وغدا للصالحية أهمية خاصة للطريق البري الذي يربط القاهرة ودمشق ويسلكه المسافرون .

وكما اختص ديوان الجيش بالصرف على شؤون القوات الحربية البرية . وما يلحقها من الحصون والقلاع والمدن العسكرية الجديدة ، إختص

(١) النويري : نهاية الارب في فنون الأدب ، ج ٢٧ ، ورقة ٩٢ — ٩٣ عن النظم المالية في مصر ، ٦٧ .

ديوان الأسطول بالنفقة على شؤون القوات البحرية من سفن حربية وجند وبحارة وسلاح ومؤونة ، بالإضافة إلى دور الصناعة التي قامت بأعمال الصيانة اللازمة للأسطول . وخصص صلاح الدين لديوان الأسطول متحصلات إقليم القيوم والحبس الجيوشي وخراج السنط وحصيلة النظرون التي بلغت حينذاك ثمانية آلاف دينار ، وذلك فضلاً عن متحصلات ديوان الزكاة وقدره أكثر من ٥٠٠٠٠ دينار وأجرة المراكب الديوانية . . الخ . وفي سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١) عين صلاح الدين العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، فعين العادل صفي الدين بن شكر نائباً في ذلك الديوان ^(١) والجدير بالذكر أن دينار الأسطول كان مثل الدينار الجيوشي . وكان بمصر في أيام صلاح الدين ثلاثة من دور الصناعة في مصر والاسكندرية ودمياط .

وفي أواخر أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب شهدت البلاد إهماماً بالأسطول الأيوبي ورجاله ، بعد أن نزلت الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على سواحل مصر دون أن تلقى مقاومة مذكورة من السفن المصرية وبما يدل على عناية الصالح نجم الدين أيوب بشؤون الأسطول دون غيره من السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين ؛ أنه كتب في وصيته لابنه تورانشاه يقول

ما نصه : « فالأسطول
أحد جناحي الإسلام
فينبغي أن يكونوا
شباعاً ورجال
الأسطول إذا أطلق
لهم كل شهر عشرين
درهم مستمرة راتباً ؛
جاءوا من كل فج
عميق » ^(٢)



تقل العتاد على ظهر الجمال

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٢٩ و ١٩٤

(٢) التوبرى : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩

٢ - السلاح في العصر الأيوبي

إعتاد مؤرخو الأسلحة الإسلامية أن يصنفوا السلاح العربي كما يأتي :

- ١ - أسلحة هجومية .
 - ٢ - أسلحة دفاعية (للوقاية) .
 - ٣ - آلات الحصار .
 - ٤ - النار اليونانية والبارود والنفط .
 - ٥ - الأسلحة النارية : الثقيلة والخفيفة .
- الأسلحة الهجومية

الرمح والحربة

يعتبر الرمح من أهم أسلحة العرب وقد أجادوا استخدام الرمح على ظهور الجياد. ولرأس الرمح أشكال شتى ؛ تختلف شكلاً بين المشعب والعريض والرفيع والموج وغير ذلك، واختاف أيضاً طول الرماح وكان يطلق على الرماح القصيرة مربعات وعلى الرماح الطويلة - الطوال . ويسمى الرمح أيضاً القناة ، ويقال لحامل الرمح رماح .

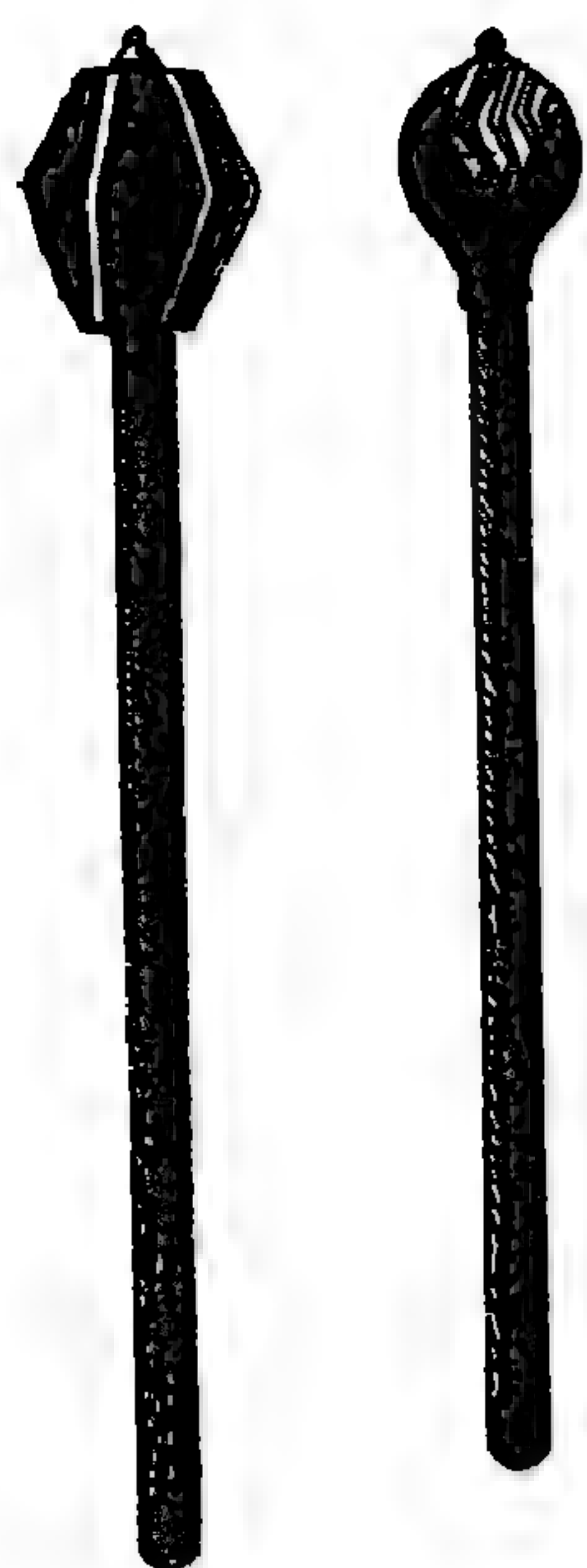
أما الحربة فهي الرمح القصير، وكان عند العرب منها أنواع شتى . وقد كتب خبراء العرب القدامى عنها رسائل كثيرة في كيفية استخدامها .

الدبوس (العمد)

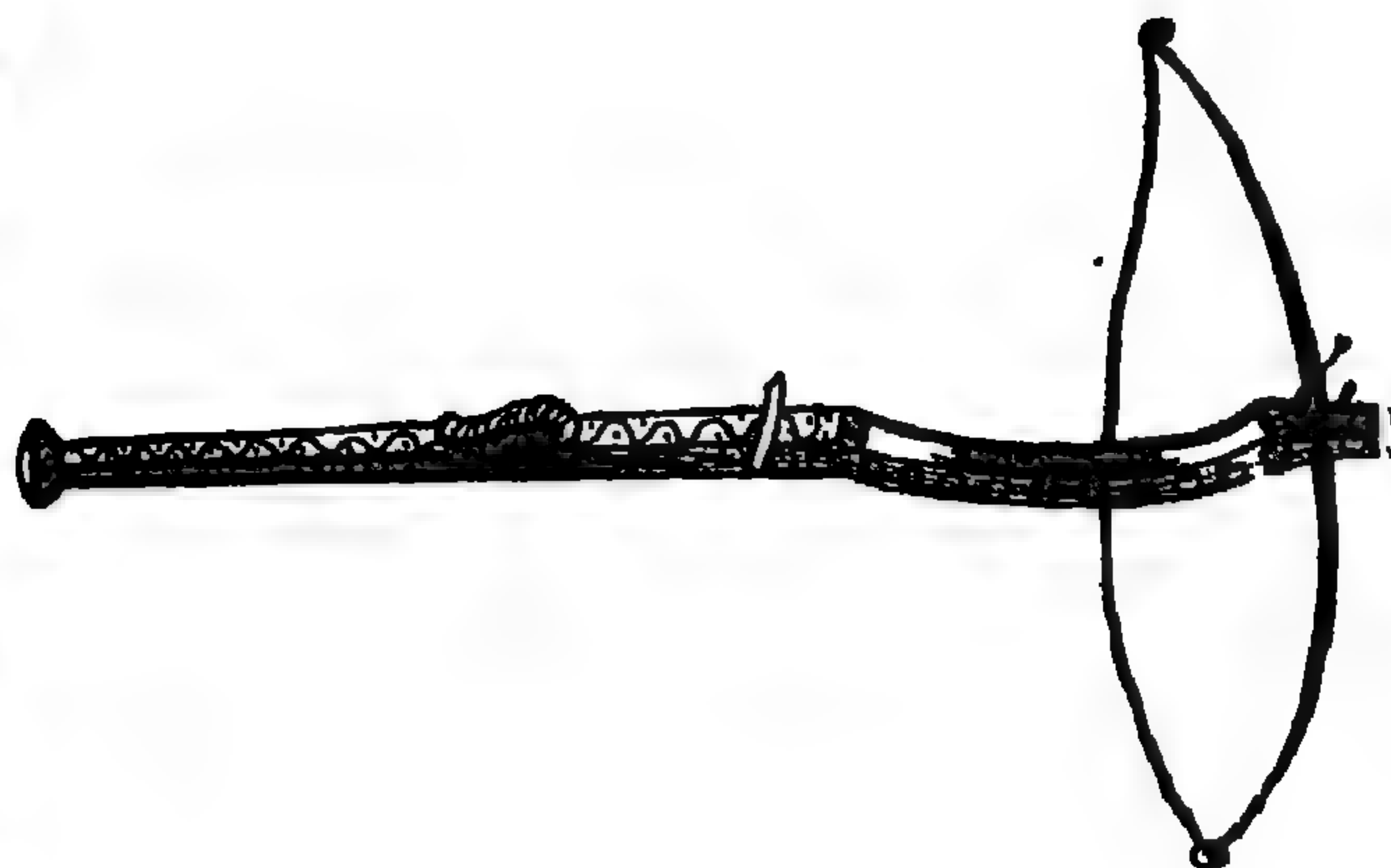
الدبوس آلة من حديد له أضلاع يقاتل به لابسو البيضة (الخوذة) ويتضاربون بعد التضارب بالسيوف والرماح، ويضعه الفارس تحت رجله ، عرف القاموس المحيط - الدبوس بأنه هراوة مدمكة الرأس في طرفها كتلة صغيرة وكان يستعمل في تهشيم الخوذة المعدنية وقد عرف أولاً بالعمد (Mace) .

الطبر (بلطة أو فأس)

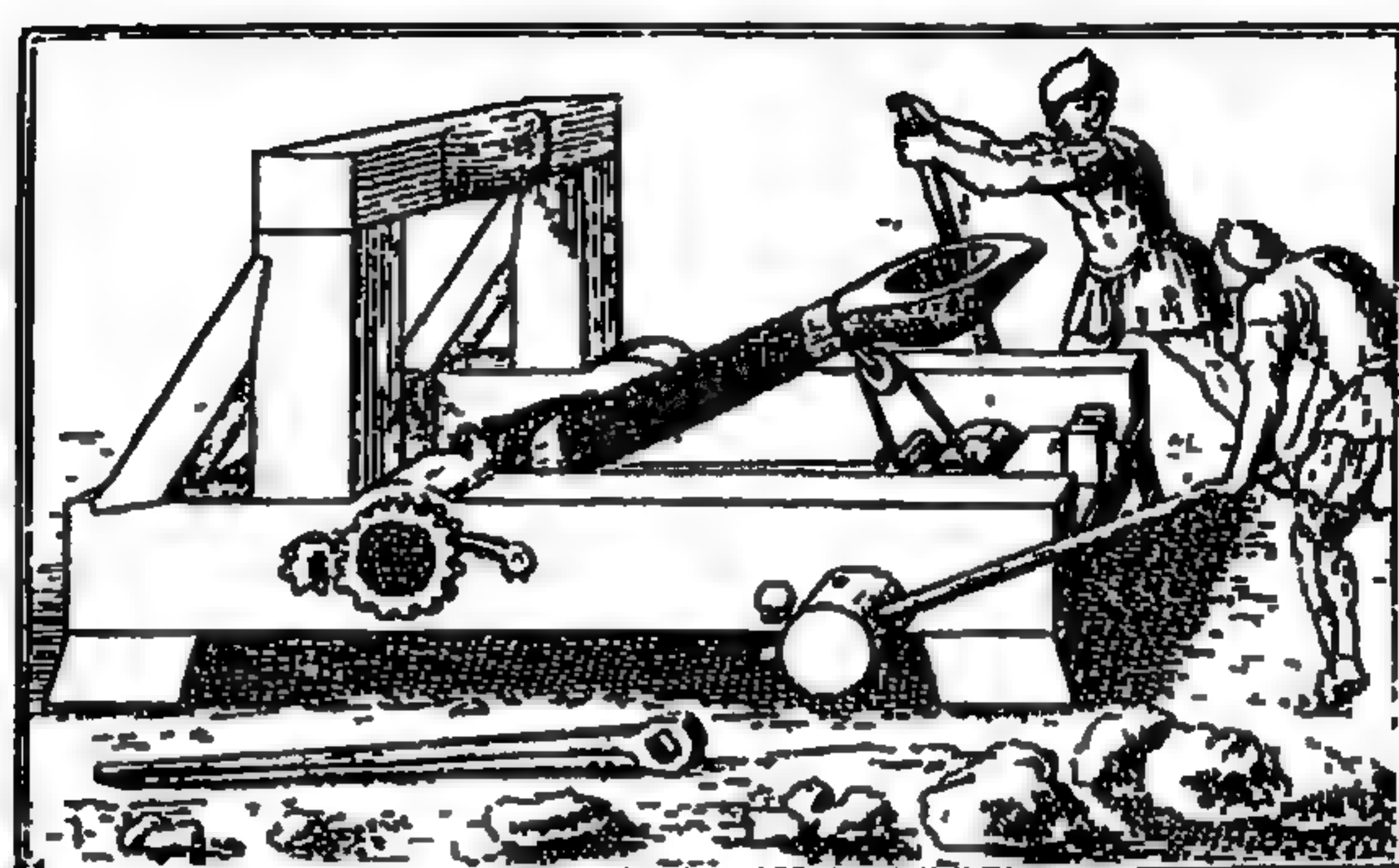
آلة قتال تشبه الفأس وله رأس نصف مستدير ويركب في قضيب من



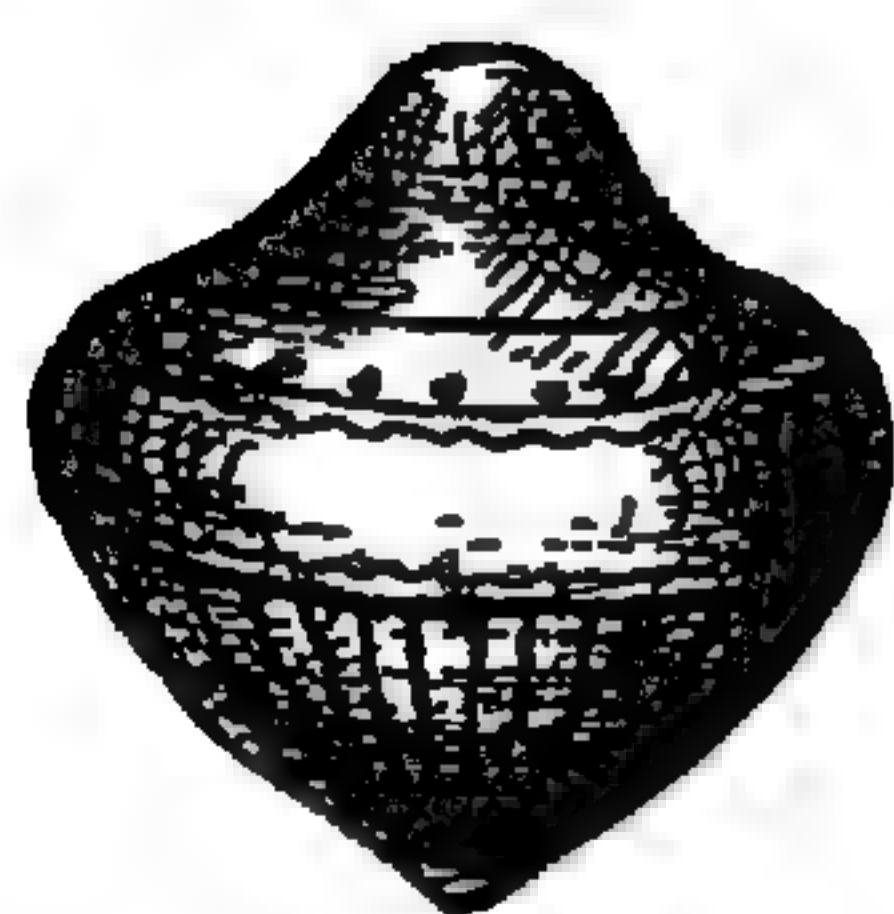
دبوسان معدنيان



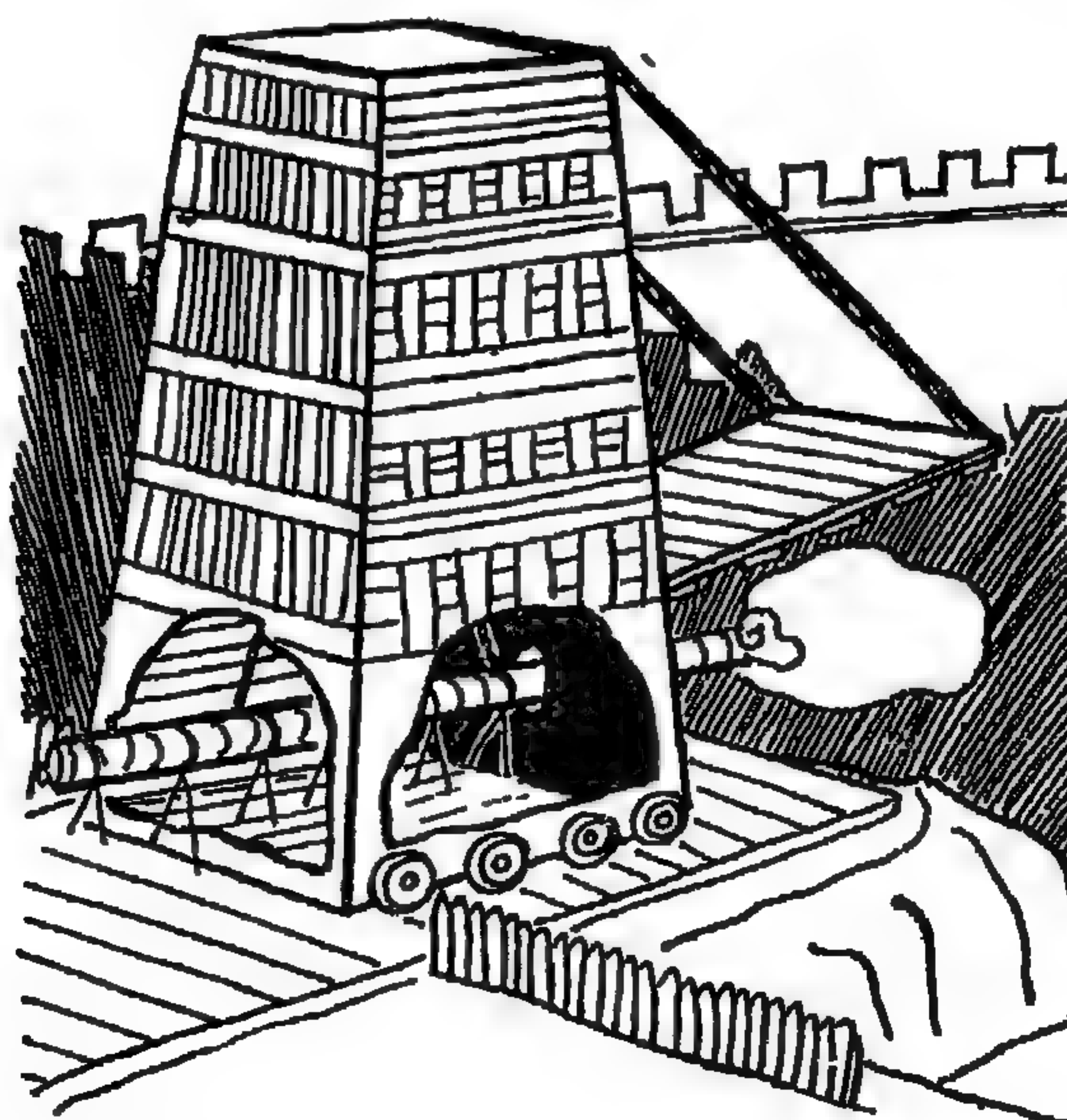
قوس يد (أربلست)



منجنيق صغير



قنبلة يدوية



دبابة العصور الوسطى مزودة برأس الكباش

حديد أو خشب متين ويحفر عليه النقوش الإسلامية أو العبارات الدينية . وكان يسمى حملتها الطبر دراية (البلطجية) . وحينما يركب السلطان يكون هؤلاء حوله عن يمينه ويساره مستعدين لضرب من يجراً على التقدم نحوه دون إذن وهم عشرة وأميرهم يسمى أمير طبر . و بمتحف فينا لتاريخ الفنون طبر للسلطان قايتباى .

الجنينة

مدية ما زالت تستعمل فى الخليج العربى وجنوب شبه الجزيرة العربية ، كذلك لأنها تثبت فى حزام وتوضع فى الجنب ولها أشكال متنوعة وأجودها يصنع فى اليمن وإيران والهند . انتقل استخدامها إلى بعض أنحاء المغرب وألبانيا . الخنجر

يعرف بالصلت وهو السكين الكبيرة أو المدية ، استعمل فى معظم البلاد الإسلامية وفى البلقان بعد أن تملكه العثمانيون . وفى تركيا يطلق عليه يطجان وللخنجر مقبض يصنع فى الغالب من العاج أو القرن .

القوس والسهم

القوس من أقدم أسلحة القتال ، استخدم أولاً فى الصيد فى الشرق قبل الغرب وكان منه نوعان على الأقل عند العرب ، قوس يد وقوس قدم ، وكانت تصنع من خشب النبع . وأقسام القوس هى : البدن والوتر ، وكان يصنع من خيوط مفتولة أو شراك جلد . وقد صنع المسلمون فى العصور الوسطى من القسى آلات مركبة واصطنعوا أيضاً لرمى السهام ضروباً من المجانيق توضع فى الواحدة منها عدة سهام وترمى منها بالقسى .

والسهم من آلات الرمى بالقوس وكانت تصنع من النبع والشوحط وهو مستدير أو مصفح إذا كان عريضاً وله أنواع شتى منها :

المرىخ : وهو سهم طويل وله أربع آذان .

الصبيخ : هو المصلب بالنار .

الخطوة : وهو سهم طوله ذراع ، والرهب وهو السهم العظيم .

وأقسام السهم — النصل وهو الحديد الجارحة في رأس السهم ، والعود .
ما بين النصل والعقب ، والعقب وهو القسم الذى يوضع فيه الريش ، والعزف .
موضع الوتر من السهم ، والسهم المصنوع من القاب يعرف بالنبل ويطلق عليه .
الفرس والترك الشباب وواحدته نشابة ويصنع من الخشب .

المقلع

أبسط أنواع الآلات القاذفة ولذلك يمكن إلحاقها بالقسى . يستعان فيها
بقوة الطرد المركزية وذلك بجعل القذف في طرفها بين حبلين يجمعان في يد
القاذف من الطرف الثانى فيديرها ثم يخلى أحد الطرفين فينبعث القذوف بعيدا .
ويسمى المقلع محذفة وقد عرف منذ القدم عند المصريين وسواهم . أما العرب
فكان المقلع عندهم لعب الأطفال .

السيف

نختمت الأسلحة الهجومية بالسيف أمير الأسلحة البيضاء وأنبأها ، عرفته
الأمم القديمة والعرب منذ جاهليتهم . اشتهرت مدن شتى بصناعة السيوف في
العالم الإسلامى ولا سيما اليمن ودمشق والقاهرة ودمشق وطيطة وسرغطة
(الأندلس) ، شاع السيف المستقيم في أنحاء العالم إلى حوالى القرن الثالث عشر
ثم بدأ استعمال السيف المقوس ذى النصل الواحد . وكانت تنقش على نصل
السيوف آيات قرآنية أو عبارات تشيد بصولة السيف ، كما تحفر على بعضها
الزخارف الطريفة .

كان الفيلسوف العربى الكندى أقدم من كتب رسالة في أجناس السيوف
وأشكالها وطريقة صنعها . وقد اشتهرت فارس بسيوفها في العصور الوسطى
وذاع اسم أسد الله الاصفهاني صانع السيوف ، وتعرض كثير من أعماله في
المتاحف حتى اليوم

وكان السيف العربى يصنع من الحديد (سيف أنيث) ، أو من الصلب
(سيف فولاذ) ، وكان السيف إلى اليوم أفخر الهدايا التى يمنحها السلطان إلى
المقربين إليه أو يقدمها لملك أو سلطان مثله .

تطورت على مر الزمن صناعة السيف عند الشعوب الإسلامية، فسقوا السيوف وأعدوا منها للرهب الباتر، وكانت لهم سقايات شتى بمختلف المواد ومن أجودها السقاية بالبورق والملح وملح البول والزرنيخ والنورة على نسب ذكرها في بعض المؤلفات . وتبدو علامات السقية على نصال السيوف ، وبها تميز وقد عرفت باسم « الجوهر »

وتتخذ للسيوف — الأعماد المصنوعة من الخشب المغطاة بالجلد الثمين ، والسيوف حائل تكون على أوساط الجند .

الأسلحة الدفاعية

الخوذة (البيضة) والمغفر

أهم آلات الدفاع المعدنية ، تلبس لوقاية الرأس . والمغفر (الغفارة) يغطي الوجه كله فلا يظهر منه إلا العينان ويدلى بعضه وراء الظهر مشدداً بالخوذة ويسمى رفرف الدرع وقد تمتد على الأذرع . وقد وصلت اليناطائفة من الخوذات المصرية التي تنسب إلى سلاطين وأمراء المماليك البحرية والشرابية كسة ، نذكر منها على سبيل المثال خوذة نقش عليها اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمتحف پورت دى هال ببروكسل (بلجيكا) وعليها نقش اسمه ، والسلطان برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨) خوذة نقش عليها بمتحف اللوفر بباريس .

تجفاف

آلة أخرى كان يلبسها الفارس ويتقى بها كانه درع وترادف كلمة بر كستوان التي يستعملها المماليك .

الترس

أهم أسلحة الدفاع منذ القدم وهو صفيحة من الفولاذ مستديرة أحياناً وتحمل في اليد ويتلقى بها المقاتل ضربة السيف ونحوه .
كان للترس عند العرب أسماء شتى ، منها الجحفة والدرقة والجحن وكان

يصنع من الخشب المغطى بالجلد . والترس العربى مستدير الشكل وبسيط . ومنها المسطح والمستطيل المحفر الوسط والمقيب ، فالمقيب المنحنى الأطراف ولكل منها فائدة وقد تفنن المسلمون فى صنع التراس وتقشوا عليها الآيات القرآنية والحكم والعبارات الطريفة ، وتميزت تراس كل بلد بشكل خاص ومنها الترس الدمشقى والعراقى والغرناطى . ومما يتخذ للوقاية : الستور والطوارق .

الطارقة

تشبه العباءة وكان يستخدمها المقاتل للوقاية . ذكرها النويرى وأمر السلطان بالطوارق والجفأتى قصفت وجعل الرماة وراءها وقد استعمل الصليبيون الطوارق .

الدرع

فى الأصل ثوب ينسج من زرد الحديد ويلبس فى الحرب . والزرد الدرع المزودة ، سميت به لينها وتتداخل حلقاتها بعضها فى بعض والزرد إسم جامع للدروع لسائر الخلق لأنه مسرد وتثبت طرفا كل حلقة بالمسمار . ويلبس الدرع على ثوب من النسيج المبطن يشبه الوسادة ، وقد وصلت صناعة الدروع إلى أوجها عند العرب فى أثناء الحروب الصليبية فى القرنين ١١ و ١٢ و ١٣ ، وتقلت صناعة الدروع الأنيقة إلى أوروبا بوساطة الصليبيين .

وأحسن أنواع الدروع ما كان يصنع من حلقات الصلب :

قوم إذا لبسوا الحد يد تنمروا حلقاتاً وقدأ

وتؤلف الدروع الكاملة (المركبة) من : الجوشن وهو الجزء الذى يقي الصدر ، والبيضة أو الخوذة ، والمغفر وهى الأجزاء التى تقي الرأس ، ثم أجزاء أخرى لوقاية الساعدين والساقين والكفين ولكل منها إسم خاص . ويشاهد إلى اليوم عدد وفير من الدروع الاسلامية وأجزائها .

ويطلق على الدروع كلمة لبوس ، وكلمة لأمة وهى الدرع والصفائح المعدنية .

التي يرتديها المقاتل وتجمع على لؤم على غير قياس ويقال استلأم أى
لبس اللأمة .

القفع

جنة من الخشب يدخل تحتها المشاة ويمشون بها فى الجبهة حتى يقتربوا من
جدران الحصون وقد استخدمها العرب وغيرهم حتى نهاية العصور الوسطى .

آلات الحصار وأسلحتها

برج الحصار

كانت تصنع الأبراج من الخشب المتين وتغطى بالحديد والجلد وكان الغرض
منه الاقتراب من حصون العدو والأسوار لاقتحامها ولقذف السهام أو الأحجار
أو غيرها من القذائف . وفى معظم الأحيان كان البرج يجر على عجلات خشبية
أو حديدية أو يدفع على أسطوانات . وكان البرج يتألف من عدة أدوار
(طوابق) يعلو بعضها بعضاً ويوصل إليها بدرج من الداخل وينتهى البرج
بقنطرة خشبية يمكن القاؤها على جدار الحصن أو السور ليجرى عليها المقاتلون
عند إقتحامهم العدو .

الدبابة

آلة من آلات الحرب ، يدخل فيها المقاتلون ؛ فيدبون إلى الأسوار
لينقبوها وهى شبه برج متحرك ؛ له أحياناً أربعة طوابق : أولها من الخشب
وما بها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ؛ ورابعها من النحاس الأصفر .
ويتحرك هذا البرج على عجلات تصعد إلى طبقاته الجنود لقبب الحصون
وتسلق الأسوار . وكانت الدبابات تسبق المشاة حتى تقترب إلى مسافات
قصيرة من مواقع العدو أو حصونه ، وهناك تؤثر تأثيرها المطلوب وهى تقذف
الحجارة أو كرات النار المشتعلة أو النبال . وكان القادة يخصصون بعض الجنود
للسير أمام وخلف الدبابة لتسوية طريقها وإزالة الموانع التى يضعها العدو فى
طريق المحاربين بها . وقد ورد ذكرها مراراً فى كتب مؤرخى العرب .

العرادة

آلة أصغر من المنجنيق ، تلقى بها الأحجار على مسافات طويلة ، وفي العصور الأخيرة أطلقت كلمة عرادة على عربة المدفع . والعروسك هو المنجنيق الصغير .

الكبش

آلة من الخشب والحديد ، يجرونها بنوع من الحبال تدق الحائط فينهدم وأصل الكبش ، دبابة له رأس في مقدمه مثل رأس الكبش ، ويتصل هذا الرأس في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجرى على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرّها . ويتعاون الجنود الذين يتحصنون في داخل الدبابة وجنود آخرون استثمروا بدروع الدبابة ، ووقفوا خلفها ليتعاون كل هؤلاء على ضرب السور بها حتى يخرقوه . فيتسللون إلى داخل البرج أو القلعة .

المنجنيق

يستخدم المنجنيق في حصار الطائفت في زمن النبي . والمنجنيق أنواع أهمها :

١ - لرمي السهام إذ توضع في المنجنيق الواحد عدة منها وترمى عنها بالأقواس إلى مسافات بعيدة وبقوة خارقة وكانت تصنع بأحجام ضخمة

٢ - لرمي الحجارة لهدم الحصون بالحجارة الضخمة .

٣ - لرمي قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النار اليونانية

٤ - لرمي العقارب أو سلاسل الرماء وغيرها من الرمم المعفنة .

ويعتبر العصر الذهبي لاستخدام المنجنيق - القرون ١٢ - ١٣ - ١٤ . قبل استخدام المدفعية .

الحسك (الأسلاك الشائكة)

الحسك في العربية نبات تعلق ثمرته بصوف الفم وورقه كورق الرحلة . والحسك من أدوات الحرب عند قدامى الإغريق والفرس والروم والعرب .

يتألف من قطعة حديد ذات شعب تطرح في جبهته القتال حول المعسكرات أو أمام الخيل لعرقلتها . وكان لحسك الخشب ثم الحديد شأن خطير في الحروب القديمة ، عرف العرب حسك الحديد في صدر الاسلام واستخدموه في معركة « جلولاء » سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) حينما غلبوا الفرس . وذكر الرحالة العربي ابن حوقل الذي انتهى من رحلته سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) أن المسلمين اتخذوا حسك الحديد في فتح « أنبوا » إحدى مدن الصعيد كان بينها وبين أسوان مرحلة في سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٦ م) وتغلبوا على زعيم قبائل البجة .

النار اليونانية والنفط والبارود

النار اليونانية والنفط

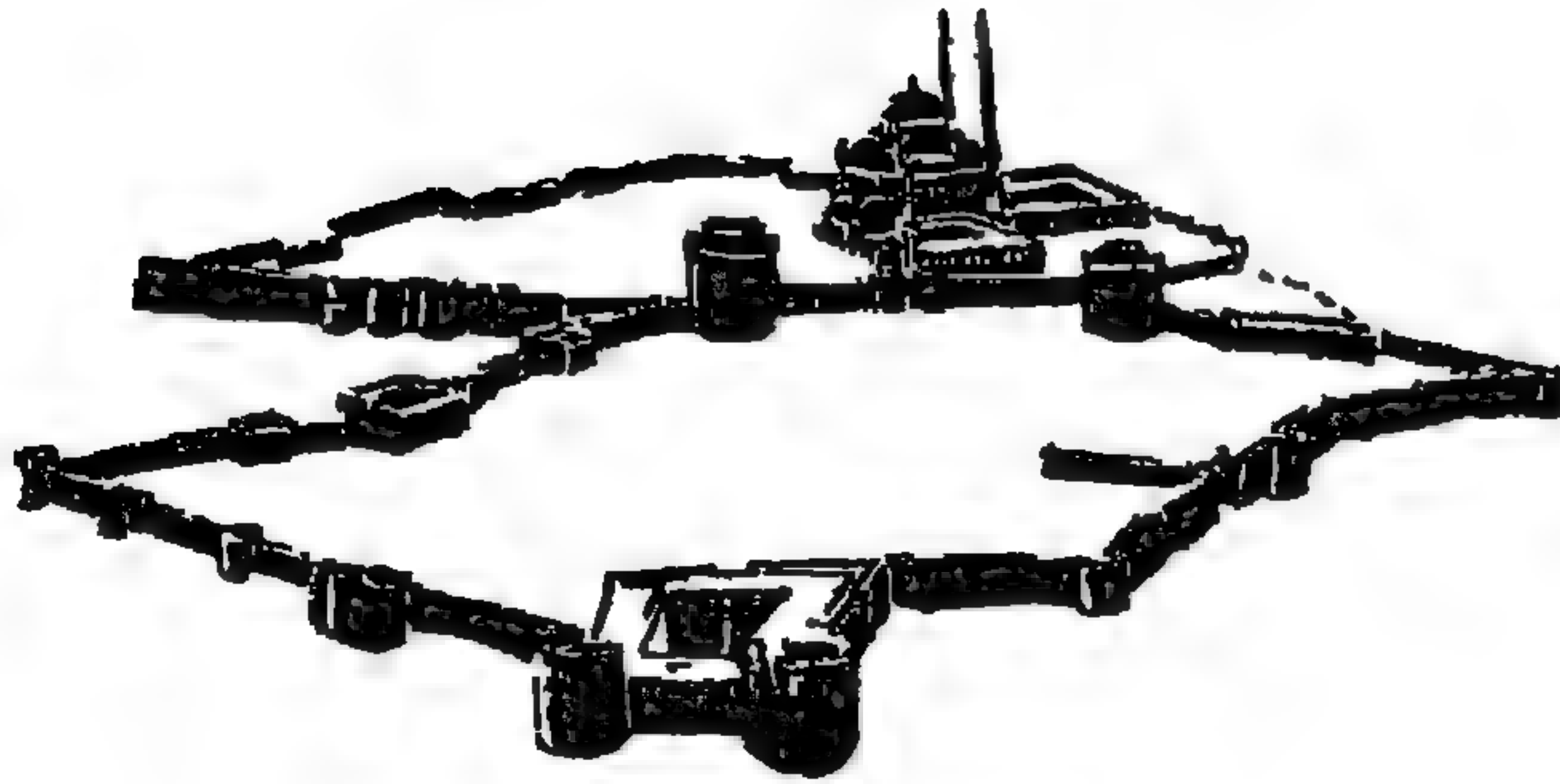
ننتقل بعد لك إلى استخدام النار اليونانية فقد أخذها العرب عن الروم البيزنطيين ويرجع اختراعها إلى كالينوس البعلبكي الذي نقلها إلى القسطنطينية وبقيت مواد تركيبها مجهولة مدة طويلة حتى اطلع عليها العرب . وهي مزيج من الكبريت وبعض الصمغ والدهون يطلقون بها من أسطوانة نحاسية ، ويقذفون منها السائل مشتعلًا أو يطلقونه على هيئة كرات مشتعلة ، واستخدموها في معارك بحرية شتى وفي معركة المنصورة .

النفط والنفاطة

استخدم القدماء المواد الملتهبة كنوع من القذائف كالسهم الملتهبة والصواريخ ثم جاءت النار الاغريقية فاستخدمت على نطاق واسع . يسمى رامي النفط نفاطًا وكان يلبس ثوبًا خاصًا اسمه لباس النفاطين لكيلا يصيب نفسه بأذى . وقد قيل أن مخترع هذا الثوب اسمه محمد بن يزيد ، إرتداه عندما اقتحم نيران مدينة هيرقلية بعد وقوعها في قبضة جيش هارون الرشيد . والنفاطة هي الآلة التي تقذف النفط ورد ذكرها في كتاب عماد الدين الأصفهاني في موضعين . أولهما : « رجعت بشهب النفاطات شياطين الداوية المردة » وعن طريق النفط استعملت الألغام في البر .

القنبلة

أصلها كلمة تركية « قانوبور » نقلها العرب منهم ، ونطقوها قنبر ، ثم قنبرة . كانت تطلق على حشوة المدفع ، ثم توسعوا بها وأطلقوها على كرتة الحديدية . وتستخدم اليوم كلمة قذيفة . والقنابر أنواع عدة منها ، قنابل النحاس وقنابل الحجر ، وتتخذ من حجر مستدير ، ويجعل فيه خزان تملأ بلزاق من النفط والمصطقي وغيرها . وقنابل الزجاج وتملأ من دهن يتركب من نقط مصعد وكبريت وكندس ، وغيره ، ثم ترمى هذه القوارير بالمنجنيق فتلطح المكان الذى تقع فيه ، ويؤتى بعد ذلك حجر عليه نقط مطبوع تشعل فيه النار ، ويرمى حيث تقع القوارير ، فيلتهب المكان . وقنابل اليد التى تمشى بالنفط والصبر وبذر القرطم المقشور وغيره ويجعل لها فتيلة ، فيشمها الضارب ثم يرمى بها فيكسرها ، وهناك القنابل المضيفة ، والقنابل الخائقة الملوئة بالكلس المطفئ يتصاعد غباره إلى أنوف الجند ، وعيونهم فيعجزون عن القتال (١)



الإطار الخارجى لقلعة الجبل

(١) « عبد القادر المغربي : مجلة مجمع اللغة العربية » ، القاهرة

٣ - السِّياسَةِ الدِّفاعِيَّة في العَصْرِ الأيوبي

١ - قلعة صلاح الدين

تعرضت أيام صلاح الدين الأيوبي الأولى في مصر إلى مؤامرات خطيرة ، دبرتها البقايا الفاطمية بالقاهرة بالاتفاق مع وليم الثاني ملك صقلية وأمورى ملك بيت المقدس ، وسمان رئيس الحشيشية . علم صلاح الدين بتلك المؤامرة أوائل سنة ١١٨٤ (٥٦٩ هـ) ، وكان المقروض أن تنفذ في العام السابق أثناء حصار صلاح الدين لقلعتي الكرك والشوبك ، فيقطع الصليبيون عليه طريق الرجعة عند ثغر أيلة . ثم أرجئت تلك المؤامرة وتنفيذها بسبب عودة صلاح الدين في سرعة . فأفسد على المتآمرين خططهم وشنق الزعيم عمارة اليمنى وثمانية من رؤوس المؤامرة بالقاهرة يوم ٦ أبريل سنة ١١٧٤ (١٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ) قبل وفاة السلطان نور الدين محمود بشهر واحد ، وهزم الاسكندريون أسطول صقلية . ولم يكد ينته صلاح الدين من تلك المؤامرة حتى شبت فتنة شعبية في الصعيد في سبتمبر سنة ١١٧٤ (٧ صفر سنة ٥٧٠ هـ) دبرها كنز الدولة الأمير السوداني والى أسوان وعباس بن شادى والى قوص وهما من المخلصين للفواطم والراغبين في إعادة حكمهم في مصر ، فجرد لهما صلاح الدين حملة من الجند بقيادة أخيه العادل سيف الدين ومعه من الأمراء حسام الدين أبى الهيجاء السمين وعز الدين موسىك ، وعدة من الأمراء وصحبته في تلك الحملة مهذب بن مماتى واستطاع العادل أن يهزم عباس بن شادى ويقتله وأن يهدم الفتنة بهزيمة كنز الدولة وقتله . وفي ١٥ مايو سنة ١١٧٤ (١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ) توفى نور الدين وهو يتأهب لغزو مصر ومحاسبة صلاح الدين ، فخلا الجو لصلاح الدين واستطاع العادل أن يخمّد الفتنة نهائياً في سبتمبر سنة ١١٧٦ (٥٧٢ هـ) وتعقب العادل الثائرين إلى أقصى حدود مصر ، وقتل من أهل قنط قرابة ثلاثة آلاف (١) .

(١) المقرئى : الخطط - ١ ص ٣٧٦ طبعة مصر .

أنظر أيضاً : 101. 1. Saladin. Stanley Lane - Poole

دفعت الفتن الدامية صلاح الدين إلى التفكير في بناء قلعة يأوى إليها رجاله إذا دهمهم خطر الفواطم داخل البلاد ، أو هاجم أنصارهم ثغوره بمصر والشام . ولا شك ، أنه بينائه القلعة كان مسترشداً بما شهد منذ حداثته في سوريا من قلاع البيزنطيين والعرب والصليبيين — وحيث أحيطت كل مدينة هامة بسور خارجي وبنوا داخلها قلعة تأويهم وجنودهم وأهلهم .

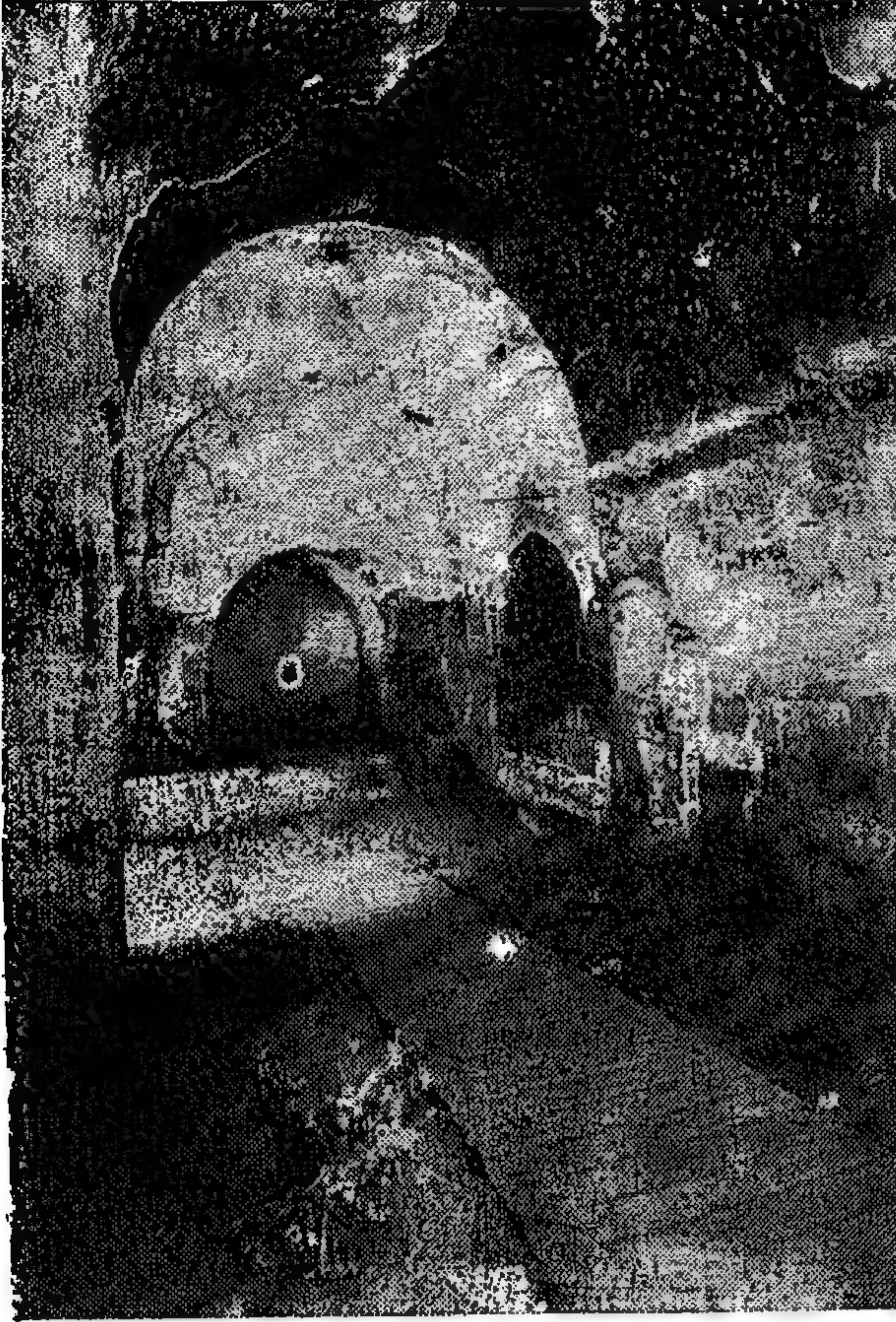
عاد صلاح الدين إلى القاهرة يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١١٧٦ ، وأعطى الأوامر ببناء القلعة (٥٧٢ هـ - ١١٧٦) ودعم أسوار القاهرة ومصر ، وعهد بذلك إلى الأمير بهاء الدين قراقوش وزيره . فبدأ بالقلعة ثم سور القاهرة فالخندق الذي يحوطه .

شكل القلعة الأصلية عبارة عن معقلين كبيرين ، المعقل الشمالى على شكل مستطيل تقريباً ، شيد في سوره أبراج مستديرة حصينة خارجة عن السور الملتصقة به وبارزة عنه ومتباعد بعضها عن بعض بمسافات مقدرة بالنسبة إلى مرامي الأسلحة ويفصله عن المعقل (المربع) الجنوبي جدار سميك وأبراج ضخمة ويخرج هذا المربع من الشمال مكوناً معه زاوية قائمة . وتخطيط هذا المربع ليس منتظماً .

لم يتم بناء القلعة وتتخذ مقراً للملك إلا في عهد ابن أخى صلاح الدين — الملك الكامل (٦٠٤ هـ - ١٢٠٧ م) وهو الذى أكمل بناءها . وما يذكر أن صلاح الدين ترك كتابة تاريخية منقوشة على باب المدرج وهو الباب الرئيسى للقلعة حتى أيام محمد على — في غربى القلعة وهذه الكتابة مؤرخة سنة ٥٧٩ هـ ويشير هذا التاريخ إلى نهاية أعمال صلاح الدين في قلعته ، وينبغي أن نذكر أن هذه الأعمال لم تكن خاتمة عمارتها ، فقد أضيفت إليها أجزاء كثيرة بعد ذلك التاريخ ، ويمكن القول بأن الجزء الأكبر من مباني القلعة تم في سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) .

أما بئر القلعة فمن المحتمل أنها تمت في عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وكان

حول السور الشرقى من القلعة خندق لا تزال معالمه ظاهرة ، فإن الصخر محفور إلى عمق عظيم بحيث يضاعف ارتفاع الحائط.



باب المدرج بقلعة الجبل

كان للدخول إلى القلعة في أيام الأيوبيين بابان أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج وبداخله يجلس والى القلعة ، والباب الثانى باب القرافة وبينهما مساحة فسيحة . ولكن المؤرخ القلقشندى صاحب صبح الأعشى الذى انتهى من كتابه فى عام ٨١٤ هـ يختلف مع المقرئى فى عدد أبواب القلعة ، فقد

أوضح أنه كان للقلعة ثلاثة أبواب ، أحدهما من جهة القرافة وجبل المقطم وهو أقلها استعمالا ، والثانى باب السر ويختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة وكان هذا الباب لا يفتح إلا لدى وصول من يستحق الدخول أو الخروج منه ، فيفتح له ثم يفلق ، والثالث هو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائر الناس ويرقى إليه فى درجات متناسبة . وهناك باب القلعة

الداخلي وهو ينتصف السور الذي يفصل بين قسمي القلعة . وإذا عبر الزاثير باب القلعة وسار في الاتجاه الشرقي مع السور وصل إلى برج المقطم الذي يعتبر حلقة الاتصال بين الجزء الشمالي من القلعة والجزء الجنوبي منها . ويتفرع من برج المقطم خيطان من التحصينات ، يتجه أحدهما جنوباً لسور الجزء الجنوبي من القلعة وبه ثلاثة أبراج ، على حين يتجه الخط الثاني شرقاً لسور الجزء الشمالي من القلعة ولا يزال برج المقطم حافظاً لمظهره الضخم وبه صهريج ماء كبير (١) .

وعلى مسافة ٩٠ متراً شرقي برج المقطم يقابل الزاثير برج كركيلان ، ويتخلل السور بين هذين البرجين الكبيرين في تلك المسافة برجان صغيران هما برج الصفة وبرج العلوة ، ثم يبرز من السور على بعد ١٥ متراً شرقي كركيلان ، برج نصف مستدير هو برج الطرفة ، ومنه يمتد ستار طوله ٢٥ متراً إلى برج المطر وهذا البرج عبارة عن برجين ملاصقين ، وشكل كل منهما شكل الدائرة . ويخرج من برج المطر ستار طوله ٥٩ متراً ينتهي عند برج المبلط المقام عند برج المبلط المقام عند الزاوية الجنوبية الشرقية ، وهو نهاية السور الجنوبي من الجزء الشمالي من القلعة . وبرج المبلط أقرب أجزاء القلعة مسافة بالمقطم حيث تبلغ المسافة بينهما ٣٥٠ متراً .

يبدأ السور الشرقي من برج المبلط في اتجاه ١٧٥ متراً على استقامة واحدة ويتخلله برجان نصفاً مستديران يسمى أحدهما برج المقوسر والثاني برج الإمام ، ويقسمان إلى ثلاثة أجزاء طولها ٥٥ و ٥٣ و ٤٣ متراً على الترتيب وتتكون الأبراج من طابقين لكل غرفة من غرفها ثلاث مزاغل . وإذا ترك الزاثير برج الإمام وصل إلى برج مستدير على مسافة ٦٦ متراً وعلى مسافة ٢٢ متراً منه يقع برج الحداد، وهذان البرجان الأخيران يتسلطان على الطريق بين القلعة والمقطم

(١) نسب الاستاذ كريسويل بناء برج المقطم وغيره من الأبراج المتعددة الاضلاع والملاصقة للبوابة الداخلية ، وكذلك البرج الواقع فوق الباب الوسطاني وبرج الزاوية الشمالية الغربية وأجزاء من السور الموصل بين برج المقطم وبينهما ، ليس إلى صلاح الدين بل إلى الحكام الاتراك الذين عاشوا خلال القرن السادس عشر أو بعده

ويمتد السور الشمالى للقلعة من برج الحداد إلى برج الزاوية الشمالية الغربية وطوله ٥٦٠ متراً من الشرق إلى الغرب ، ويقطعه على بعد ٢١ متراً غربى برج الحداد — برج الصحراء الذى يعلوه اليوم صهريج ماء . ويظهر شكل برج الصحراء من الخارج كبرج نصف دائرى بينما يبدو من الداخل على شكل مستطيل . ويصعب على المهندس الخبير أن يتعرف على الأجزاء الأيوية (ولا سيما الصلاحية) فى الجزء الباقى من السور الشمالى بما فيه الزاوية الشمالية الغربية ، وكذلك السور الغربى الذى يتخلله باب المدرج وذلك لكثرة ما بهما من التعديلات والإضافات التى أدخلت عليهما فى العصور اللاحقة لعصر صلاح الدين ^(١) .

أما المربع الثانى وهو الجنوبى من القلعة ، فيمتد من برج المقطم جنوباً ويلتف حول ما يعرف اليوم بقصر الجوهرة ودار الضرب وجامعى محمد على والناصر محمد بن قلاوون وبعض مخازن الأسلحة القديمة ، ويفصل المربع الجنوبى عن الشمالى سور غليظ يتوسط باب القلعة .

وعلى أيام دولتى المماليك فى مصر والولاة العثمانيين وفى أيام أسرة محمد على أضيف إلى القلعة كثير من المباني الضخمة كالمساجد والقصور ودار الضرب وغيرها من الأبراج والأبواب ، ونذكر منها على سبيل المثال باب العزب الذى يطل على ميدان صلاح الدين .

(١) تنسب إلى الملك السلطان العادل شقيق صلاح الدين — الأبراج الثلاثة الكائنة بالسور الجنوبى وهى برج الصفة وبرج كركيلان وبرج العلوة والزيادة التى أضيفت لباب القرافة (الامام والجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد ، والجزء الداخلى ببرج الصحراء والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور وقد تمت أعمال الملك العادل عام ٦٠٤ هـ (١٢١٦/٧ م) . كريستوفل أبحاث أثرية فى قلعة القاهرة ١٩٢٤ (فى اللغة الانجليزية)

٢ — دعم أسوار القاهرة في أيام صلاح الدين

ذكر عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين مايلي :

« كان السلطان ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها ، فقال إن أفردت لكل واحدة سوراً احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنى أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطئ إلى الشاطئ » . وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم .

ابتدأ السلطان عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠ - ٧١ م ، فاتدب الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي لعمل السور فبناه بالحجارة . وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة ، سوراً واحداً فزاد في سور القاهرة ، الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية إلى باب البحر ؟ ومن قلعة المقس في نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك ، وكان أمه أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ، ثم زاد في سور القاهرة الجزء الذى يلي باب النصر إلى برج الظفر ، ومن هذا البرج إلى باب البرقية ، ومنه إلى درب بظوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل .

السور الغربى

وشرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠ م) في بناء السور الغربى للقاهرة ، على الحافة الشرقية للخليج المصرى في محاذة سور بدر الجمالى وسور جوهر ، وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلاً قطعة من السور الغربى امتدت من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى الشمالى ، واتجهت نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين في السور الغربى تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين ، لكنه أوقف العمل ورأى أن يزيد في سور القاهرة الشمالى ويمده إلى الغرب إلى شاطئ النيل الشرقى إلى ميناء المقس .

السور الشمالى

شيد صلاح الدين قطعة من السور الشمالى غربى البرج المستدير القائم على بعد ١٠٣ أمتار غربى باب الفتوح ، وتمتد هذه القطعة عند برج كثير الأضلاع ، ثم تنحرف إلى الجنوب الغربى ، وتتجه ثانية نحو الغرب إلى أن تلتقى تقريباً بشارع الخليج المصرى ، وقد أزيلت قطعة منها عندما شق شارع الجيش ، وتستمر هذه القطعة من السور إلى ما بين سكة الفجالة وشارع الطبالة حيث ما زالت توجد بقايا قاعدة برج مستدير ، كما بقيت أجزاء متناثرة من هذه السور وبرج يشهد على ذلك اسم شارع البرج عند ملتقى شارع الظاهر وشارع الفجالة . وامتد السور الشمالى إلى جهة الشرق ، حيث موقع برج الظفر . ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور للبرج المذكور .

السور الشرقى

يمتد هذا السور من باب الوزير إلى درب المحروق ، ومن درب المحروق ، يمتد نحو الشمال إلى برج الظفر . وبه الباب الجديد وباب البرقية وباب القراطين (الباب المحروق) ولا يزال باقياً إلى اليوم أجزاء كثيرة من السور الشرقى ، منها الجزء الذى يمتد جنوبى برج الظفر بطول أربع مائة متر ويقع فى هذا الجزء الباب الجديد ، وتمتد قطعة أخرى إلى قبيل باب البرقية ، وتختفى أجزاء كثيرة تحت كيمان التراب . ومن السور المذكور القطعة التى تبدأ من برج درب المحروق ، وتسير إلى الجنوب بطول ٧١٠ متراً إلى أن تنقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير ، وهذا الجزء هو أطول الأجزاء الباقية من السور الشرقى وحائط أغلبه سليم إلى اليوم ، ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الخانات النظامية (وقد خربت اليوم) وبين بقايا جامع السبع سلاطين (خرب) وطول هذا الجزء ١٢٥ متراً ، ويقرب من نهايته الجنوبية بسور القلعة .

وأما الباقي من السور الشرقي وهو الجزء الذي يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر ، فلم يتهياً للسلطان صلاح الدين أن يقوم به .
السور الجنوبي

لما مد صلاح الدين سور القاهرة الغربي إلى غربي السور الفاطمي ، جعل باب سعادة (الثاني) في نهايته الجنوبية وشيد قطعة جديدة من السور الجنوبي للقاهرة تصل إلى باب القرج (الثاني) ، ثم التحمت بسور بدر الجمالي وباب زويلة .

أما سور القسطاط الذي يبدأ من الطرف الجنوبي الغربي لقلعة الجبل إلى القسطاط ، فلم يصل به إلى النيل ، وقد بقيت منه عدة أبراج لم يكشف عنها جيداً من الناحية الأثرية ، واحتوى هذا السور على كثير من الأماكن المعقودة السقوف لتسهيل عمل المدافعين عن المدينة . ولا يزال واحد منها قائماً على بعد سبعين متراً جنوب القرافة ، وقد فتح الظاهر بيبرس فتحة في حائط مجرى الماء ، وذلك ليسهل على أهل القاهرة الخروج بموتاهم إلى القاهرة (جبانة المماليك وسيدى جلال والإمام الشافعي) .

الأبواب الصلاحية

ننتقل إلى الكلام على الأبواب التي شيدت في عصر صلاح الدين الأيوبي .
بالترتيب التالي :

١ - أبواب السور الغربي من الشمال إلى الجنوب (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) :

أ - باب القنطرة الثاني ويقع على الحافة الشرقية للخليج وعرف بهذا الاسم لوقوعه تجاه القنطرة التي كان القائد جوهر الصقلي قد شيدها على الخليج الكبير في سنة ٣٦٢ هـ ٩٧٢ - ٧٣ م . (الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٤٧) .

ب - باب الخوخة وقد شيد في مواجهة باب الخوخة الفاطمي ، ولا تعرف الظروف التي اختفى فيها هذا الباب ، وكان يقع على

مقربة منه مسجد باب الخوخة الذى يعرف اليوم بجامع القاضى
يحيى زين الدين .

ج — باب سعادة وقد عرف باب سعادة الأول (الفاطمى) لنسبته إلى
أحد قادة المعز لدين الله الفاطمى سعاد بن حيان .

٢ — أبواب السور الشمالى (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) :

١ — باب البحر ، وكان يعرف بباب المقس ، لوقوعه فى قرية المقس ،

التي كان يقال لها المقسم أو باب البحر ، لأنه كان يشرف على
النيل . ثم عرف باسم باب الحديد إذ كانت عليه بوابة من الحديد
ونسب إليه باب الحديد ، وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع
فم البحر من جهة اللبدان المذكور ، وقد هدم حوالى عام ١٨٤٧

ب — باب الشعرية ، وكان يقع بين باب البحر والخليج الكبير فى السور
الشمالى وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية
(المخطط المقرئية ج ١ ص ٢٨٣) ، وقد رسم هذا الباب على
خريطة القاهرة التى وضعها جران بك مدير التنظيم فى عام ١٨٧٤
على رأس سكة باب الشعرية التى تعرف اليوم بسوق الجراية ،
وقد أزيل هذا الباب فى عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وعرف فى
القرن الماضى باسم الباب العدوى لوقوعه تجاه جامع العدوى .

٣ — أبواب السور الشرقى (٥١٢ هـ - ١١٧٦ م)

١ — الباب الجديد ، هو أحد أبواب السور الشرقى الصلاحى ،
وقد عرف بهذا الاسم ، لأنه كان أول باب أنشئ فى سور القاهرة
من ناحيته الشمالية بعد باب النصر ، وله بدنتان كبيرتان وقد
كشفه الأستاذ كريزويل الأثرى المعروف .

ب — باب البرقية ، ذكره المقرئى (ج ١ ص ٣٨٠) وكما تكلم عنه
القلقشندى (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٤) وقد بقى مدة طويلة

مختفياً تحت الأنقاض ، حتى اكتشفه المرحوم علي بهجت مدير
دار الآثار العربية، ولا يزال هذا الباب موجوداً بأكمله ومحتفظاً
بشكله الأصلي من الأساس إلى الشرفات ، وقد نسب إلى جنود
برقة في الجيش الفاطمي ، وعرف أيضاً بباب الغريب

ج — الباب المحروق ، وقد بقي منه برجاه ، ذكره المقرئزي (ج ١
ص ٢٨٣) ؛ والقلقشندي (ج ٣ ص ٣٥٤) وقد عرف قديماً
باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق المواشي والغنم ،
وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القرط ، وهو البرسيم .

٤ — أبواب السور الجنوبي للقاهرة (٨٥٦٤ - ١١٦٩ م)

أ — باب الفرج الثاني ، ولا يعلم متى خرب .

٥ — أبواب سور القسطة (٨٥٧٢ - ١١٦٩ م)

أ — باب القرافة ، سبق الكلام عنه وما زالت بعض أجزائه باقية .

ب — باب الصفاء ، خربه الظاهر بيبرس .

ج — باب القسطة ، ما زالت بعض مداميك أبراجه الجانبية باقية



٣ - قلعة صلاح الدين بسيناء

قبل الكلام عن إنشاء هذه القلعة نسأل أنفسنا هذا السؤال :
ما الذى أوحى إلى صلاح الدين لبناء تلك القلعة فى قلب سيناء ؟
كان « ريجنالد دى شاتيلون » أمير الكرك من أعداء صلاح الدين
بين الصليبيين ، وقد أراد الشروع فى فتح بلاد العرب للاستيلاء على مدينة النجى
والكعبة ، ولكى يحقق أغراضه اتصل بيدو سيناء بالرشوة . فاستطاع بمعاونتهم
أن ينقل قطع أسطوله عبر الصحراء من الكرك إلى خليج العقبة ، ثم استولى
على الميناء المصرية عيذاب أمام جدة . وجعلها مقر قرصنته البحرية ثم حاصر
مدينة أيلة (العقبة) بحراً ومنع كل اتصال خارجى بها فأمر الملك العادل الذى
خلفه السلطان صلاح الدين بالقاهرة الحاجب حسام الدين لؤلؤ بالسفر إلى القازم
حيث أعد أسطولا صنعت سفائنه فى مصر والإسكندرية وسار إلى أيلة وظفر
ببعض سفن الفرنج وحرقها وأسر من فيها ، وسار إلى عيذاب وتبع مراكب
الفرنج واستولى عليها . وأطلق من فيها من التجار الأسرى ورد عليهم
ما أخذ لهم وصعد البر وأدرك من فر من الفرنج وأسرهم وساق منهم اثنين
إلى منى ونحرهما فيها ثم عاد بالأسرى إلى القاهرة فى شهر ذى الحجة
وضربت أعناقهم .

ولا شك أن تلك الحملة كانت جرأة عجيبة أقدم عليها أمير الكرك بينما
كان صلاح الدين مشغولا بحروبه فى فلسطين . وكان هذا العمل درساً استفاد
منه السلطان ولم يتركه يمر دون فائدة .

فمن ناحية الإنتقام من أمير الكرك فقد هاجمه فى عقر داره انتقم منه
أشد انتقام . ولكن ما العمل مع رجال البدو من أهل سيناء ، وكيف
يتغلب عليهم .

رأى أن يشيد هذا المعقل الحصين فى قلب ديارهم لى يستطيع بجنوده
البواسل تأديب البدو ويقضى على مؤامراتهم اللعينة ، فأمر بتشيد قلعته المنيعة
والتي أمر بالبدء فى بنائها حوالى عام (١١٨٣ م أو ١١٨٤ م) وكان انتهاءه

منها في عام ١١٨٧ وهو ما يتفق مع التاريخ الهجري المنقوش أعلى الباب وفي ذلك الحين نقل صلاح الدين مقر حكمه من القاهرة إلى دمشق، وخلف شقيقه العادل نائباً عنه في حكم مصر، فقام العادل بتشييد القلعة . فلما مات صلاح الدين وتولى العادل الحكم عام (١١٩٣م) زاد العناية بالحدود الشرقية ومراقبة البدو فزار سيناء عام ١٢٠٢ م بعد أن أمر ببناء مسجد وصهريج ، كما احتفظ بحماية تحمي البلاد .

موقع القلعة : رأس الجندى تل صغير يعلو ٢١٥٠ قدماً فوق سطح البحر ويرتفع ٥٠٠ قدم فوق السهل المستوي المجاور له . وهو ذو شكل فريد وموقع حاكم يجعلانه هيئة طبيعية ظاهرة على بعد ثلاثين كيلومتراً . وهو غرض شهير هام للرحالة الذين يحبون في تلك الناحية الصحراوية بعيدين عن العمران ، وتعتبر رأس الجندى أكمة منفصلة عن جبال راحة الكلسية التي تؤلف حاجزا منيعاً بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس .

ويقع رأس الجندى على رأس وادي البروك أحد الأفرع الرئيسية لوادي العريش الذي يشغل سهلاً فسيحاً يمتد إلى جميع المنطقة الوسطى لسيناء الشمالية . وإلى جنوب وادي الصدر الذي يخترق سلسلة جبل راحة إلى خليج السويس وفي وادي صدر وعلى بعد خمسة كيلو مترات من القلعة التي سنتحدث عنها تقع عين صدر الطبيعية ذات المياه العذبة التي تمتاز بها . وموقع القلعة لا يبعد أكثر من عشرين كيلو متراً عن طريق الحج القديم الذي يبتدىء من السويس وينتهي إلى العقبة ماراً بنخل . وكان هذا الطريق هو الوحيد بين خليج السويس إلى شمالي سيناء وبلاد العرب .

ولذلك اشتمل هذا التل الصغير على أهم العناصر التي يتطلبها الموقع العسكري، أولها القرب من المياه الوفيرة وثانيهما الإشراف التام على الطرق الهامة وسهولة المواصلات

وصف القلعة

نستطيع أن نصف الموقع الطبيعي الذي تحتله القلعة إذا اقتربنا قليلاً من رأس الجندى ، فهذا التل على شكل مخروطي له قمة مسطحة وجوانب صخرية حادة جداً .

والجزء الأصلي من التل كبقية جبل راحة وطبيعة طباشيرية التكوين ولا يمكن تسلق جوانبه الشرقية والغربية وإن تيسر الصعود على منحدره الشمالى أو الشمالى الغربى .

فإذا اتخذنا طريقنا مجتازين درباً ضيقاً ملتويّاً واتبعنا بعض أجزاء الدرب القديم نحو المنحدر الشمالى والشمال، لوصلنا فى النهاية إلى قمة التل ووجدنا أنفسنا أمام جدار يتراوح سمكه بين مترين وثلاثة، مبنى بالحجارة الجافة ووراؤه خندق كان يمتلئ بالمياه يبلغ اتساعه خمسة أو ستة أمتار ويدور هذا الخندق حول الأكمة من ناحيتها الشمالية والشمالية الغربية فيزيد فى منعتها ووقايتها .

إذا عبرنا الخندق صعدنا فوق كتل من الحجارة المبعثرة بدلا عن درجات السلم التى وجدت فى الأيام السالفة والتى استبقى الزمن بضعة منها لا تزال راقدة فى محملها الأصلية . وإذا صعدنا عشرة أمتار أخرى لوصلنا إلى الجدار الأصلى وباب القلعة .

ولنقف لحظة هنا أمام هذا الباب لنقرأ نصاً هاماً من الكتابة منقوشاً على عقد الباب المسطح . فى وسط النصف العلوى للعقد شاهد اللوحة المنقوشة وعلى جانبيها رسم السيف والدرع اللذان اتخذهما السلطان صلاح الدين شعاراً لدولته . وعلى الجزء الأسفل فى المربع الأوسط شاهد النجمة المسدسة الأضلاع التى كانت على ما يظهر شارة صلاح الدين المفضلة والتى نراها على عملته ، وعلى مبان أخرى شيدت فى عهده . وبقية اللوحات التى من الحجر الجيرى حسنة الشكل ومزودة ببعضها على الطريقة الإسلامية المستعملة إلى اليوم .

ونقرأ فى النص المنقوش بحروف ناتئة اسم منشئ القلعة وتاريخها وهذا نصه .

« بسم الله الرحمن الرحيم » صلى الله على محمد . خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين والملك يوسف بن . . . العادل الناصرى فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (أغسطس ١١٨٧م)

وتخطيط قلعة صلاح الدين مستطيل الشكل يتجه في اتجاهين شمال بشرق إلى جنوب بغرب وطرفها الجنوبي الغربي ينتهى بشكل نصف مسدس الأضلاع ويتراوح ضلع القلعة ما بين مائة وخمسين ومائة متراً طولاً . وأوسع عرض لها يبلغ مائة متر، وسمك سور القلعة الخارجى يبلغ مترين مازال جزؤه الأسفل باقياً . أما زوايا القلعة (أركانها) فقد قويت بدعامات مربعة أو مستديرة وكانت لكل برج دعامة تسنده

وقد ضمت أسوار القلعة غرفاً صغيرة لرجال مسلحتها (حاميتها) وبعضها كانت تستخدم كمطابخ أو حمامات للفسيل . وقد كان في صحن القلعة عدة مبان شيدت لأغراض مختلفة على مستويات عدة من الأرض الطبيعية لكنها تهدمت ولم تخلف سوى الإيقاض ، ومن هذه المباني .

١ — ردهة مسطحها ٥٠٠ × ٦٠٠ أمتار وعمقها خمسة أمتار وهى تحت مستوى الأرض الطبيعية ومن المحتمل أنها كانت مخزناً للمؤونة أو مكاناً للاجتماع فى أثناء الشتاء .

٢ — مسجد دون سقف، وفى جداره الشرقى محراب، وعليها كتابة منقوشة للبسملة .

٣ — صهريج تحت الأرض يحتوى على خزان حجمه ٦٠٠ × ١٠٠٠ × ٥٠ متر مازالت جداره تحتفظ بطبقة من الملاط الجيد وله فتحتان، إحداهما لإدخال المياه منها ومتصلة بمجرى (سرداب) لتصريف المياه إلى داخل القلعة والأخرى مستديرة وضيقة لاشك أنها كانت تستعمل لسحب المياه منها . وقد كانت فوق الفتحة الأولى كتابة منقوشة بقيت منها البسملة وكلمة صهريج «واسم» صلاح الدنيا والدين. ويتفق أسلوب الكتابة مع الكتابة الأخرى التى ذكرناها على باب القلعة .

٤ — وأكمل أجزاء القلعة التى مازالت محتفظة بحالتها القديمة هو بناء المسجد وفى أسفل صهريج المياه لتحتفظ ببرودتها فى تلك المنطقة الصحراوية فى

الصيف . والصهريج مشيد على الطريقة المشيد بها الصهريج السابق الذكر ولا يشتمل على كتابات منقوشة .

ومسطح المسجد ١٢٠٠ × ٦٩٩ من الأمتار وبجانبه الغربى باب له درجتان أو ثلاثة . والقبلة التى فى جداره الشرقى مزخرفة وقد كتبت عليها « البسمة » على أرضية من اللاط القرنفل اللون ، وللمسجد فى جداره الشمالى نافذتان ، واحدة فى جداره الجنوبى . وكانت هناك فى الزاوية الجنوبية الغربية مناور صغيرة كما يستدل من الأساس المربع . وترى آثار بعض الدرج فى الداخل وهى تحدد مكان المنبر على يمين المحراب . وكانت فوق عتبة الباب الخارجى للمسجد لوحة عليها الكتابة الآتية :

« بقاء استعمله الملك الناصر صلاح الدنيا والدين الملك العادل سيف الدين فى ذى القعدة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وهذا يثبت أن تلك الإضافة عملت بعد انتهاء البناء الأصيل للقلعة بخمسة عشر عاماً فى أيام السلطان العادل .

٥ — ردهة مسطحها ١٥ متراً تحت مستوى الأرض الطبيعية لها سقف من العقود المقبية .

مياه القلعة

إن الذى اختار ذلك الموقع الحربى المنيع ليشتد فيه قلعة منيعة وليحتلها جنود السلطان لا بد أنه احتاره بعد بحث مشكلة المياه فى تلك البقعة الصحراوية .

فهناك على بعد خمسة كيلو مترات من قلعة صلاح الدين عين مياه اسمها عين صدر — فهى التى أمدت حامية القلعة بالمياه التى احتاجتها ، وهى مازالت إلى اليوم يلجأ إليها كل من يجتاز الصحراء ويمر بها . وكان بعد العين وصعوبة الحصول على مياهها قد جعل رؤساء الجند يفكرون فى طريقة أخرى لاستجلاب المياه فعمدوا إلى الانتفاع بمياه السيل المنهمة بغزارة أثناء الشتاء فى وديان تلك الجهة واختاروا وادياً عميقاً يعبر قريباً من القلعة من ناحيتها الشمالية وشيدوا

سداً فيه يحجز مياه السيل ، وكان طول ذلك السد عشرين متراً وعلوه عشرة أمتار ويختلف سمكه من متر في عاليه إلى خمسة أوستة أمتار في أسفله . ولتقويته شيدت دعامتان في منتصفه . وما زال هذا السد المنيع قائماً إلى اليوم يشهد بمثانة بنائه وتصميمه . وقد امتلأ الوادي في خلف هذا السد ببقايا الرمال والأعشاب التي تحملها السيول الغزيرة .

وكانت مياه عين صدر ومياه السد تحمل على ظهور الجبال أو الخيول إلى سفح الأكمة التي شيدت فوق قممها القلعة ، ثم تحمل على ظهور الرجال إلى أعلا الحصن لتخزن في الصهاريج . ولا شك أن هذا كان مجهوداً شاقاً لرجال الحامية بجانب عملهم الدفاعي .

٤ — قلعة جزيرة الروضة

يصعب معرفة العهد الذي وجدت فيه جزيرة الروضة . ولكن أثبت بعض قدامى المؤرخين أنها لم تكن موجودة في العصر الفرعوني . ولم تذكر جزيرة الروضة كموقع له أهمية حربية إلا في عصر الفتح العربي . فقد كانت في ذلك العهد ذات حصون ومنعة وكانت تزيد في قوة حصن بابلليون وخطره الحربي لأنها كانت وسط النهر تملك زمامه . . وقد لاذ بها زعماء الروم عند محاصرة الحصن وأقاموا داخل أسوارها المنيعة المحيطة بها من جميع جهاتها بين البساتين والحدائق الجميلة في انتظار الفرح الذي لم يأت . . فطلب المقوقس الصلح . وقد دارت مفاوضات الصلح بين رسل القائد عمرو بن العاص وبين مندوبي المقوقس في هذه الجزيرة أولاً . فلما فشلت هذه المفاوضات غزا العرب تلك الجزيرة وهرب الروم منها . وبعد ذلك تم الصلح في حصن بابلليون كما هو معروف . وعندما دك عمرو أسوارها وحصونها بقيت مجردة عاطلة خاوية حتى أيام ابن طولون .

ففي إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ م — ٨٨٤) أعاد بناء أسوارها وحصونها (٨٧٦ م) وجعلها مقراً لخزائن أمواله واتخذ فيها القصور . وكان سبب ذلك مسير موسى بن بغا العراقي من العراق ليتقلد الولاية على مصر . فلما

بلغ الأمر له استعداد لحربه . فتناقل موسى عن السير خوفاً من الهزيمة وعرضت عليه علة طالت به وكان بها موته ، فكفى ابن طولون أمره . ولم يزل ذلك الحصن على الجزيرة حتى احتواه النيل شيئاً بعد شيء ، وقد بقيت منه بقايا إلى أيام القرن الخامس عشر^(١)

ومازال حصن الجزيرة عامراً أيام الأسرة الطولونية ، وأنشئت فيه دار صناعة السفن الحربية وكان فيها محل ديوان الجهاد ، فلما تقلد الأمير محمد بن طنج الأخشيد إمارة مصر (٩٣٤ — ٩٤٦ م) هزم جيش مصر الذي أعده ابن كيغلق وأقبل في سفينة إلى القسطنطينية فاستولى عليها ثم أرسى بجزيرة دار الصناعة وحرقها ، ثم نقل محمد بن طنج دار الصناعة إلى ساحل القسطنطينية وأنشأ موضعها في الجزيرة بستاناً وداراً أسماها المختار ، وكان يفاخر بها أهل العراق ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذي أنشأه في نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجبالي في سنة ٤٩٠ هـ (١٠٧٩ م) وسماه الروضة . وما برحت جزيرة الروضة متنزهاً ملكياً ومسكناً للناس إلى أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل سلطنة مصر في عام (٦٣٧ هـ ١٢٤٠ م) فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وبقلعة جزيرة القسطنطينية وبقلعة الجزيرة كما ذكرها المؤرخ أبو الفداء^(٢)

وها هو ذا ما ذكره عن القلعة المؤرخ المقرئ (٢) المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) في يوم الأربعاء خامس شعبان عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩ م) شرع في حفر أساس القلعة وابتدأ ببنائها في آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشرة ، وفي عاشر ذي القعدة وقع الهدم في الدور والقصور والمساجد التي كانت بجزيرة الروضة

(١) للقاضي ابن عمر وعثمان النابلسي كتاب عن هذا الحصن سماه « حصن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » مفقود الآن . ذكره المؤرخ المقرئ في الخطط ونقل عنه (ج ١ ص ٣٢٦ طبعة بولاق) وذكره أيضاً السيوطي في كوكب الروضة

(٢) المختصر في تاريخ البشر ص ١١٩

(٣) طبعة بولاق ج ١ من ص ١٨٣ إلى ١٨٥

وتحول الناس من مساكنهم التي كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقة بجانب المقياس وأدخلها في القلعة وأنفق في عمارتها أموالاً جمة وبنى فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجاً وأقام بها جامعاً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ونقل إليها عمد الصوان من البرابي وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد والأقوات خشية من محاصرة الفرنج فإنهم كانوا حينئذ على عزم أن يقصدوا بلاد مصر وبالغ في إقتانها مبالغة عظيمة حتى قيل إنه استقام كل حجر فيها بدينار (٦٠ قرشاً) وكل طوبة بدرهم، وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل فصارت تزهر من كثرة زخرفتها وتخير الناظر إليها من حسن سقوفها المزينة وبديع رخامها . ويقال إنه قطع من الموضع الذي أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه، وخرب الهودج والبستان المختار وهدم ثلاثة وثلاثين مسجداً عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لذكر الله تعالى وإقامة الصلوات .

وكان النيل عندما عزم الملك الصالح على عمارة القلعة من الجانب الغربي فيما بين الروضة وبر الجزيرة . وقد انطرد عن بر مصر ولا يحيط بالروضة إلا في أيام الزيادة، فلم يزل يخرق السفن في البر الغربي ويحفر فيها بين الروضة ومصر ما كان هناك من الرمال حتى عاد ماء النيل إلى بر مصر واستقر هناك فأنشأ جسراً عظيماً ممتداً من بر مصر إلى الروضة وجعل عرضه ثلاث قصبات . وكان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البر ويمشون في طول هذا الجسر إلى القلعة ولا يمكن أحد من العبور عليه راكباً سوى السلطان فقط . ولما كملت تحول إليها وحرمه واتخذها دار ملك . وأسكن فيها معه مماليكه البحرية ، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك .

قال علي بن سعيد المتوفى سنة (٦٧٣ هـ — ١٢٧٣ م) في كتاب المغرب

في حلى المغرب، وقد ذكر الروضة . . بنى بها قلعة مسورة بسور ساحل اللونة
محكم البناء على السمك لم ترعيني أحسن منه . . . ولم انفصل عن مصر حتى
أكمل السور هذه القلعة . وفي داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة
بانيها . وهو من أعظم السلاطين همة في البناء . . . وإذا زاد النيل فصل ما بينهما
وبين الفسطاط . وفي أيام احتراق النيل يتصل برها بير الفسطاط من جهة خليج
القاهرة ويبقى موضع الجسر فيه مراكب . وركبت مرة هذا النيل أيام الزيادة
مع صاحب المحسن محي الدين بن ندا وزير الجزيرة وصعدنا إلى جهة الصعيد ثم
انحدرنا واستقبلنا هذه الجزيرة وأبراجها تتلأأ والنيل قد انقسم عنها .

وذكر المقرئ أيضاً أن مباني القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة
الجنوبية ، ومن مختصر بحوث المؤرخين يتبدى لنا أن هذه القلعة كانت تشغل
مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا واقعة في الجزء الجنوبي من جزيرة
الروضة ، ومكانها المنطقة التي نحمد اليوم من الشمال بشارع الملك المظفر ومن
المغرب بنهر النيل ، ومن الجنوب بسلامك سراي حسن قواد المناسيرلى باشا
وبمقياس النيل ، ومن الشرق بسيالة جزيرة الروضة ، والسلامك المذكور كان
موقع الجامع الذي أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٨٤٨٥ هـ - على النيل
بجوار المقياس من الجهة الغربية ، وعرف بجامع المقياس ، وكانت بقايا هذا
الجامع قائمة إلى سنة (١٣٦٧ هـ - ١٨١٨ م) وفيها أزال حسن باشا تلك البقايا
وبنى هذا السلامك في مكان جامع المقياس ^(١)

سكن الملك الصالح هذه الجزيرة مع مماليكه البحرية - وكانت عدهم
ألف مملوك - بعد انتقاله من قلعة الجبل . . وقد قال المؤرخ ابن واصل إن
بناء تلك القلعة استنفذ ثلاث سنوات ^(٢) . ولم تزل قلعة الصالحية عامرة حتى
انتهت دولة بنى أيوب . فاما ملك السلطان المعز عن الدين أيلك التركمانى .

(١) النجوم الزاهرة - ج ٦ ص ٣٢٠ من تعليقات المرحوم محمد بك رمزي .

(٢) السلاوك لمرفة ، دول الملوک - نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة - تطبيق

مؤسس دولة المماليك البحرية بمصر أمر بهدم هذه القلعة ليحمر منها مدرسته
العزية التي كانت في رحبة الخناء بمدينة مصر . واقتدى ذور البجاه فأخذوا
كثيراً من سقوفها وشبابيكها وغيرها . وبيع من أخشابها ورخامها
أشياء جليلة .

الظاهر بيبرس والقلعة

ثم تولى ملك مصر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فاهتم بعمارة
قلعة الروضة وأمر الأمير جمال الدين موسى بن بعمور أن يتولى إعادتها كما كانت
فأصلح بعض ما تهدم فيها ورتب فيها فرقة الجاندارمة . وردّها إلى ما كانت
عليه ووزع أبراجها على الأمراء وأعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون
الألفى ، والبرج الذي يليه للأمير عز الدين الحلى . والبرج الثالث من برج الزاوية
للأمير عز الدين ارغان . وأعطى برج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين الشمسى .
وفرت بقية الأبراج على سائر الأمراء (قادة الحامية) . وأمر أن تكون بيوتات
جميع الأمراء واسطبلاتهم فيها وسلم المفاتيح لهم .

ولما آل الملك إلى السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى (٦٧٨هـ — ١١٨٩م)
وشرع في بناء الماريستان والقبّة والمدرسة المنصورية أخذ من قلعة الروضة ما احتاج
إليه من عمد الصوان والرخام والأعتاب . كما أخذ منها فيما بعد السلطان الملك
الناصر محمد بن قلاوون مما مست إليه حاجته من عمدة الصوان في بناء الإيوان
الكبير بدار العدل في قلعة الجبل والجامع الجديد الناصرى .

وقد ذكر في كتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية (ج : ١
ص ٤٥٠ و ٤٦٥) أنه كان في الجزيرة على عهد الاحتلال بقايا قصر بالمقياس
ملاصق من الشرق ومطل على الفرع الشرقى للنيل عرف بقصر السلطان الملك
الصالح نجم الدين ، ولم يك وقتئذ باقياً منه غير قاعة كبيرة تتصل بها عدة أَمَا كن
أكثرها خرب ، ولكن يظهر لنا أن الذى أدركه رجال الحملة الفرنسية لم يك
من الأبنية الصلاحية القديمة ، بل كان مما جددّه السلطان الغورى من القاعات والمسكن

ومما يذكر عن هذا القصر نزول السلطان سليم العثماني به مدة مقامه بمصر - فقد فضل الإقامة بالروضة. فانتقل إليها ونزل بالمقياس كما ذكر ابن إياس، مؤرخ عصره . ولما جاء الفرنسيون (١٧٩٨ - ١٨٠١) حصنوا جزيرة الروضة ووضعوا عدة بطاريات مدفعية في كل طرف من طرفيها وجعل من المقياس شبه قلعة . كما حصنوا شاطئ النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية . وجعلوا فم المجراة طابية حصينة سميت طابية المجراة (أو السبع سواقي) واتخذوا من قصر إبراهيم بك (قصر العيني) مستشفى عسكرياً حصيناً يسع ألف مريض وجريح . وألحقوا به البيت الذي كان بجواره . وقد عرف وقتئذ بيت محمد كاشف الأرنؤطى . وجعلوه مخزناً ومصنعاً لفرقة الهندسة . ثم حصنوا السور المحيط بها وركبوا عليه المدافع فصار حصناً منيعاً .

واليوم لم يتبق من كل ذلك سوى أطلال من الجدران البائدة .. وقامت الدور الجميلة تغمر معالمها وشقت الطرق في حناياها وانتشرت البساتين تطوى قصتها ١ .

قلاع أيونية خارج مصر

عنى الأيونيون ببناء الحصون والقلاع في الأماكن الإستراتيجية في سوريا وكان الروم والبيزنطيون والعرب من قبلهم قد بنوا قلاعاً كثيرة ، فانتفعوا بمعظمها وأصلحوا كثيراً منها كما شيدوا حصوناً جديدة وسنرى جهود الأيونيين في هذا المجال .

قلعة بصرى

وفي بصرى حيث قام مسرح روماني كبير شيد في القرن الثاني الميلادي أدرك الأيونيون أهمية تحويله إلى قلعة منيعة وذلك بتشديد عدد كبير من الأبراج حوله وتحمل هذه الأبراج عدداً طيباً من النقوش الكتابية للملك العادل توارىخها كالآتي :-

٥٩٩ هـ (١٢٠٢ - ٢٣ م) و ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) و ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م)
و ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) و ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) و ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) .

كما أن هناك نقش آخر باسم الملك الصالح تاريخه ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) :وأحد تلك الأبراج يشبه من الداخل مافي قلعة الجبل ، يشتمل على قاعة كبيرة يعلوها قبو شيدت على نسق الأسلوب المتعامد

قلعة دمشق

إن قلعة دمشق كما هي عليه اليوم من أعمال الملك العادل الأيوبي ، بدأ عمارتها تاج الدولة تنش عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) وجعلها دار الإمارة ، واهتم بتعميرها السلطان نور الدين ، ثم الملك العادل . وتمتد تواريخ نقوشها بين عامي ٦٠٥ هـ و ٦١٤ هـ (١٢٠٨ - ١٢١٧ م) ويقوم في جانبها الشرقي والشمالي مدخلان عظيمان من طراز الأبواب المنحنية على شكل زاوية قائمة (Bent - entrance) وتعلو جميع أبواب القلعة السقاطات الدفاعية

قلعة جبل طابور

حصن العادل قة جبل طابور عام ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) ولم يبق إلا شيء



قليل من حصونه
اليوم ، وفي برج
خرب نلاحظ فتحة
للسهام (مزغل)
على شكل حربة —
يشبه في تفاصيله
المعمارية (المزاغل
الموجودة في قلعة
الجبل التي تنسب إلى
الملك العادل أيضاً

قلعة شذر موطن أسرة ابن منقذ

٥ - مَعَارِكُ الْجَيْشِ الْأَيُّوبِيِّ

أيام السلطان صلاح الدين يوسف

ولّى صلاح الدين الأيوبي حكم مصر إثر وفاة الخليفة العاضد بالله . وكان ذلك في ٢٥ جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ (٢٣ مارس ١٦٩) . فأخذ منذ ذلك الحين ينظم شئون الحكم في دولته الجديدة ، ويعيد تشكيل الجيش ، وأهم من ذلك كله أن يقوم بتوحيد كلمة الحكام العرب وذلك ليتها له مواجهة الفرنج وفي سبيل ذلك تم له ما أراد في سنوات قلائل ، ومن ثم انتقل من المرحلة السياسية إلى المرحلة العسكرية وهي مرحلة الجهاد التي أظهر فيها موهبته النادرة في القيادة الحكيمة ، وأهم من ذلك كله أنه نقل المعارك بعيداً عن أرض مصر التي تمد الجيوش بحاجاتها ..

وفي المرحلة الأولى تقابلنا عدة معارك صغرى ، كان لابد منها ، وهي :

- ١ - إستيلاء صلاح الدين على ثغر أيلة (العقبة) : ٥٦٦ هـ - ١١٧٠ م
- ثم وفاة السلطان نور الدين محمود : ١١ شوال ٥٦٦ هـ - ١١٧٠ م
- ٢ - دخول صلاح الدين دمشق : الاثنين أول ربيع الآخر ٥٧٠ هـ - ٣٠ أكتوبر ١١٧٤

- ٣ - استيلاء صلاح الدين على حمص : ٥٧١ هـ / ١١٧٤ - ١١٧٥
- ٤ - بداية حصار صلاح الدين حلب : ٢ جمادى الآخرة ٥٧٠ هـ - يناير ١١٧٥
- ٥ - الاستيلاء على حصن بزاعة : ٢٢ شوال ٥٧١ هـ - ١١٧٦
- ٦ - الاستيلاء على حصن منبج : ٢٩ شوال ٥٧١ هـ - ١١٧٦
- ٧ - الاستيلاء على حصن عزاز : ١١ ذى الحجة ٥٧١ هـ - ٢١ يوليو ١١٧٦
- ٨ - معركة تل السلطان : ٥٧٢ هـ - ٢٢ أبريل ١١٧٦ .
- ثم عودة صلاح الدين إلى القاهرة : ربيع أول ٥٧٢ هـ - أكتوبر ١١٧٦
- ٩ - معركة الرملة ٥٧٣ هـ - أول ديسمبر ١١٧٧ .

- ثم عودة صلاح الدين إلى دمشق : أواخر شوال ٥٧٣ هـ - أبريل ١١٧٨ .
- ١٠ - معركة مرج عيون : ٢ محرم ٥٧٥ هـ - يونيو ١١٧٩ .
- عودة صلاح الدين إلى القاهرة : شعبان ٥٧٦ هـ - يناير ١١٨١ .
- مغادرة صلاح الدين القاهرة : محرم ٥٧٨ هـ - مايو ١١٨٢ .
- الأمير أرناط يصمم على مهاجمة الحجاز : ٥٧٨ هـ - مايو ١١٨٢ .
- ١١ - معارك لؤلؤ وهزيمة أرناط برا وبحرا : ٥٧٨ هـ - أوائل ١١٨٣ .
- ١٢ - صلاح الدين في حران : أوائل ذي القعدة ٥٧٨ هـ - مارس ١١٨٣ .
- ١٣ - إستيلاؤه على آمد : أوائل المحرم ٥٧٩ هـ - أبريل ١١٨٣ ،
- ١٤ - إستيلاؤه على تل خالد وعين تاب (من أعمال حلب) : المحرم ٥٧٩ هـ - ١١٨٣ .
- ١٥ - الاستيلاء على حلب : ٥٧٩ هـ - يونيو ١١٨٣
- ١٦ - خضوع الموصل لصلاح الدين : ٥٨١ هـ - مارس ١١٨٦
- ١٧ - الاستيلاء على قلعة تبنين (ابلين) : ١١ جمادى الأولى - ١٨ منه ٥٨٣ هـ
- ١١٨٧ —
- ١٨ - معركة حطين : السبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ - ٤ يوليو ١١٨٧ .
- ١٩ - الاستيلاء على قلعة طبرية : ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ - يوليو ١١٨٧
- ٢٠ - الاستيلاء على بيت المقدس : الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ - ٢ أكتوبر ١١٨٧
- ٢١ - الاستيلاء على عكا : ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ .

تحت أسوار قلعة
الكرك بالاردن



٦ - البحر الأحمر في سياسة صلاح الدين

كسب الصليبيون الجولة الأولى في حملتهم على سورية . فثبتوا أقدامهم ، في أنطاكية (١٩٠٨ م) ، واستولوا في العام التالي على القدس ، ونصب غودفري ، دى بويون نفسه ملكا عليه ثم خلفه أخوه بلدوين (١١٠٠ م) بعد موته . وفي عهده تسال الصليبيون عبر أراضي شرق الأردن ، وبدأوا تشييد عدة حصون يحتمون في داخلها ، لتكون بمثابة قواعد يشنون منها الغارات ضد الجيوش العربية قلنا إنهم ربحوا الجولة الأولى ، لأن أمراء العرب في شمال الجزيرة والشام وفلسطين بل ومصر ، كانوا منقسمين على بعضهم ، ولم تكن قد توحدت الكلمة . فيما بينهم ، وأراد كل منهم أن يكون زعيما ، إلى أن قبض الله للمسلمين . صلاح الدين الأيوبي .

توالى الهزائم على الشام واحتلت جيوش بلدوين مصر . وفي أثناء عودته منها مات (١١١٨ م) ، وخلفه ابن أخيه بلدوين الثاني الذي شن عدة غارات على قوات المسلمين ثم وقع أسيرا في قبضتهم (١١٢٥) ثم أطلق سراحه فيما بعد . وفي أيام بلدوين الأولى ، امتدت مملكة القدس من بيروت في الشمال إلى العريش في الجنوب ، وتجاوزت نهر الأردن نحو الصحراء ، وإلى جنوب البحر الميت فوضع بلدوين يده على مملكة إيدوم القديمة التي امتدت نحو ثغر إيلة المواجهة للمعقبة ، على رأس الخليج المعروف باسمها اليوم . وكذلك استولى على شقة من الأرض شرق البحر الميت ، كانت تعرف قديما باسم مؤاب ، وفيها مدينة البطراء الأثرية . ولقد أكسب احتلال تلك الصحارى الصليبيين منطقة استراتيجية هامة (تعرف اليوم باسم الأردن الجنوبي) ، وجعلتهم على اتصال بالبحر الأحمر ، ويسرت لسفنهم التسلل في مياه البحر الأحمر وتهديد سفن الملاحة العربية ، فضلا عن إشراف الفرنج على طرق القوافل التجارية والحجاج بين دمشق ومصر إلى الحجاز .

ثبت الصليبيون أقدامهم في تلك البقاع الهامة بما شيدوه من القلاع والحصون ، ولا سيما في الفترة الأولى من حكمهم (١١٠٠ - ١١٢١ م) ، وكان من أهم تلك القلاع الصليبية التي شيدت إلى شرق وجنوب البحر الميت :

١ — قلعة مونتريال ، أو كرك موفت رويال (شيدت عام ١١١٥) ، بين طفيلة ومعان ، إلى الشمال الشرقى من بتراء ، بالقرب من الشوبك^(١) ولا زالت تقوم إلى اليوم بعض آثارها .

٢ — قلعة وادى موسى ، وعرفت عند الصليبيين باسم قلعة « سيلة » ، وشيدت فى بتراء — وقد احتلها بلدوين الأول حوالى عام ١١١٦ م ، وما زالت خرائبها قائمة إلى اليوم .

٣ — قلعة مؤاب ، أو الكرك وهى من أشهر الحصون الصليبية فى تلك المنطقة .

٤ — قلعة معان .

٥ — قلعة طفيلة .

٦ — قلعة جبل الشراة ، وغيرها .

رأينا الصليبيين يشيدون فى تلك المنطقة الحصون المنيعة للاشراف التام على الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر وثمر أيلة الذى احتلوه عام ١١١٦ ، وقلعة الجزيرة الصغيرة التى تواجه أيلة ، التى عرفت باسم جزيرة جراى ، ولكن ما لبثت أن استولى عليها صلاح الدين عام ١١٧٥ م لما أدرك أهميتها فى القضاء على سيطرة الصليبيين على مياه البحر الأحمر .

تلك هى صورة الأرض التى كان قد وصل إليها نفوذ الصليبيين ، وهذا يدلنا على مدى خطتهم لقطع أوصال البلاد العربية وإقامة دولة لهم بين الشعوب العربية لتجعل اتصالهم ووحدهم أمراً مستحيلاً أو متعذراً . وكان لأهمية تلك المنطقة من الناحية العسكرية أنهم جعلوها إمارة قائمة بذاتها يحكمها الأمير أرناط (ريجنالد عند الإنجليز) .

ولد هذا الأمير فى شاتيون ، وهى بلدة صغيرة فى وادى نهر السين ، حوالى عام ١١٢٧ م من أسرة نبيلة ، والتحق بحمله لويس السابع ولما يبلغ العشرين ، واشترك فى حصار عسقلان عام ١١٥٣ تحت إمرة بلدوين الثالث ، وعرف منذ

(١) عرفت أحيانا باسم قلعة الشوبك .

ذلك الحين بشجاعته وتهوره وحماسته . وتزوج من كونستانسة ، أرملة ريموند أمير أنطاكية الذي مات في ميدان القتال .

كان الأمير أرناط متعجرفاً وقحاً ، كثيراً ما كان يسىء إلى منصبه مستخدماً وسائل العنف مع صحبه من العسكريين ورجال الدين أيضاً . ويذكر عنه المؤرخون حوادث عديدة تدل على سوء تصرفاته . وكان لا يقدر كلمة الوعد أو الشرف ، وقد عرف عنه أنه قام بغزوة قبرس ، دون موافقة رؤسائه ، فاستولى على الجزيرة في عام ١١١٥ ونهبها ، وعذب أهلها واستباح النسوة وذبح مثلث الأطفال .

ولما فرغ أرناط من تلك الغزوة عاد إلى الشام واستأنف حرب العصابات ضد السلطان نور الدين ، وقد حاله الحظ حيناً ، إلى أن وقع أسيراً في قبضة مجد الدين بن الداية عامل نور الدين (١١٦٠) وظل سجيناً في حلب إلى عام ١١٧٦ ، أي إلى ما بعد موت نور الدين ، دون أن يتحرك إمبراطور بيزنطية لإيقاظ الأمير الأرعن . وأخيراً أخلى سبيله بعد دفع فدية كبيرة (١٢٠٠٠٠ دينار) ، وقيل إنه حاول تعلم اللغة العربية في أثناء سجنه ، لكنه لم ينس لحظة الانتقام .

تقلد صلاح الدين زعامة العالم العربي ، فوحد الكلمة بعد تفككها ، وعمل على دعم قواته ليضرب بها الأعداء الذين وقف لهم بالرصاد ، وكان أول ما بدأ به صلاح الدين إبعاد أسرة القواطم عن حكم مصر ، ثم ضمه دمشق إلى دولته (١١٧٤) ، وبعليك (١١٧٥) ، وحلب . ثم هزم في موقعة الرملة (١١٧٧) ، فهادن أعداءه ، ولكن أرناط لم يعبأ بشروط المهادنة ، وكان قد أعيد ثانية للإمارة ما وراء الأردن لكي يحمي تلك المنطقة من الوقوع في أيدي المسلمين .

كانت زوجة أرناط الأولى ، كونستانس ، ماتت في أثناء اعتقاله ، فلما أطلق سراحه تزوج من الأميرة اينيث ابنة أمير نابلس الفرنجي .

تولى أرناط ولاية ما وراء الأردن ، وكانت أكثر ما اشتملت عليه منطقة القنب الجنوبية ونافذتها كما قلنا وأيلة التي تطل على مياه خليج العقبة . أما الشمال فكانت عند تيزة جنوبي عمان ، ويستطيع منها التحفز على بلاد السلطان في دمشق التي جعل منها قاعدة عسكرية هامة .

ولم يضيع أرناط وقته سدى ، فقد ألم بوسائل الحرب البحرية منذ غزوة قبرس واستيلائه عليها ، وأدرك أهمية وقوع أيلة في قبضته إذ استعان ببناء أسطول صغير ، كما فعل الملك سليمان من قبل ليهدد الثغور المطلّة على البحر الأحمر ، ولكي يدخل القزح على الملاحين المسلمين .

عمل أرناط على الحصول على الخشب اللازم لصنع سفائنه ، فأمر بقطع غابات إقليم الكرك ، وحمله أتباعه إلى حصن الكرك (١٢٨١) ، كما عهد إلى رهبانه بصنع بعض السفن ، وأمر أهالي عسقلان من الفرنجة بصنع قوارب أخرى ، وهكذا توفر لديه خمس سفن حربية ، وإلى جانبها عدد لا بأس به من السفن الخفيفة ، ونقلها جميعا مفككة على جمال البدو إلى ساحل البحر الأحمر ، وطلّاه بالقر ، وشحنها بالمقاتلين وعتاد الحرب .

قلنا إن أرناط كان فذا في تمزيق المعاهدات ، ففي عام ١١٨١ قام بغارة عنيفة على رأس رجاله ، ووصل بهم إلى تيماء مفتاح المدينة في قلب الحجاز ، واعتدى على قافلة يمتلكها تجار دمشق ، وعاد مثقلا بالغنائم وبمئات من الأسرى الرجال والنساء ، بعد مسيرة ٣٥٠ ميلا إلى قاعدته في الكرك . وقد أشار أبو الفداء المؤرخ المعروف إلى تلك الغارة الخبيثة التي قام بها الإبلّيس الفرنسي . وكانت خطة أرناط في الواقع تهدف إلى الاستيلاء على المدينة المنورة وكفوزها التي لا تقوم ، ولكن فروخ شاه ، ابن أخ صلاح الدين أمير حلب ، كان قد وصل في الوقت المناسب ، وقذف رجال أرناط نحو الشمال ، ولم يتحقق حلم الشيطان . كان من أثر هذه الغارة أن غضب ملك القدس ، على أرناط ، وأمره أن يعيد الأسرى والغنائم لأصحابها في الحال . ولكن أرناط لم يعبا بهذا الأمر ، ورفض إعادة أي شيء لأصحابه . وكان وقع هذه الغارة على صلاح الدين شديدا ، وبالرغم من حله الذي اشتهر به فقد اضطر إلى الانتقام ، وكتب رسالة إلى ملك بيت المقدس ، الذي أجاب عليه بخروج هذا الأمر على أوامره ، فلم يكن من صلاح الدين إلا أن أرسل رجاله للعبث بالأراضي المحيطة بقلعة مونثريال ، وأتلفوا مزارع الصليبيين ونخيلهم ، وأدرك أن يحارب بأسلوب خصمه . . حرب العصابات .

وفي عام ١١٨٢ تراءى لأرناط أن يحقق خطته الجريئة لغزو المسلمين في مهد دينهم الأصيل ، والاستيلاء على المدينة ومكة ، وكان قد أعد كل شيء .
الحملة الجريئة :

لا تطيل المراجع العربية الكلام عن حملة أرناط هذه ، سواء في البر أم في البحر ، ولذلك نستمد أكثر ما نكتبه عنها مما سجله أرنول المؤرخ الفرنسي المعاصر لتلك الحادثة الفريدة في الحملات الصليبية .

من الصعب الإلمام بعدد المقاتلين الصليبيين الذين اشتركوا في الحملة ، ومن المحتمل أنهم كانوا حوالى ألف من الخيالة ، ويساعدهم جماعات من البدو والملاحين . وكان المسلمون قد استولوا على جزيرة « جراى » المواجهة لأيلة في شمال خليج العقبة مهددين هذا الثغر . ولكن أرناط قد استطاع أن يوقف سفينتين بالقرب من الجزيرة لتمنع أهلها من استقاء الماء .

الأسطول الصليبي :

يقول أرنول ، أن الأسطول الصليبي انقسم إلى قسمين : أحدهما كان بقيادة أرناط ومعه سفينتان حربيتان كبيرتان لحصار جزيرة جراى ، مفتاح خليج العقبة ، ليضطر رجال حاميتها إلى التسليم أو الموت من الجوع والعطش . أما القسم الثانى من الأسطول فاتخذت سفنه سبيلها في البحر الأحمر للقرصنة ، فوصلت إلى ثغر عيذاب ، وعبث الصليبيون فيها كثيرا ، واستولوا على سفينة تأتى بالحجاج من جدة ، وعلى سفينتين أخريين كانتا مقبلتين بتجار و سلع من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ساحل عيذاب كانت معدة لتكوين مكة والمدينة ، وكانت عيذاب في تلك الفترة قد انتقلت إليها أهمية طريق الحجاج عبر سينا والنقب إثر وقوعه في أيدي الصليبيين ، واتخذ الحجاج طريق قنا — القصير — أو قنا - عيذاب ، ومنها يسلكون البحر إلى رابع أو جدة على الشاطئ المقابل .

استطاع أرناط بمسلكه المشين أن يدخل الرعب والفرع إلى سكان ثغور البحر الأحمر ، ولاسيا عيذاب ، وأن يستولى على مالا يقل عن ١٦ سفينة عملة بالسلع والرقيق . وهاجمت سفنه أيضا هواره ، ثغر المدينة ، التى تقع شمال ينبع ،

وكذلك رابع شمال جدة . ويقول القاضى الفاضل أن سفن أرناط قد وصلت في قرصنتها إلى عدن ، مفتاح المحيط الهندى .

ويبدو لنا أن الصليبيين كانت لهم سيادة البحر الأحمر في خلال النصف الثانى من عام ١١٨٢ والنصف الأول من عام ١١٨٣ . ولاشك أنه كان لتلك الأحداث وقع سيء لدى المسلمين تدل عليه كتابات مؤرخيهم عن تلك الحقبة . كان هذا شأن العمليات البحرية . أما في البر فقد سارت قوات أرناط إلى تبوك ، لقطع خطوط الإمداد والواصلات بين المسلمين في أيلة الشام . واتجهت قوات أخرى عبر الصحراء نحو الجنوب تريد الوصول إلى المدينة المنورة ، وكانوا يستمدون معونة البدو والظالمين في النهب والسلب ، واستمروا في تقدمهم حتى صاروا على مقربة من المدينة .

دوى الفزع والرعب في قلوب العرب ، فما هم فاعلون؟ وليست تحت أيديهم قوات كافية لصد المعتدين . لم تكن لهم حيلة في البر أو في البحر . . وقبموا في ديارهم ينتظرون الفرج . . . ولكن مصر كانت بالمرصاد !

فعندما بلغت تلك الأخبار السيئة صلاح الدين وهو يجاهد على حصار الموصل . بعث إلى أخيه ونائبه في القاهرة الملك العادل أبو بكر بن أيوب لإنشاء أسطول في مصر ودمياط والأسكندرية ، ثم سافر إلى القلزم ، وعهد إلى قائد الأسطول الشيخ حسام الدين أوأو أن يحمل السفن مفككة على الجمال إلى السويس . وفي هذا الثغر أشرف على تركيبها وتعميرها بالرجال الذين كان معظمهم من أهل المنزب الخيبرين بشئون القتال البحرى وبالملاحة . وهكذا كان البحر مفتاح النصر كما أن مصر دعامة الكبرى .

قسم القائد أسطوله إلى قسمين : قسم اتجه بمراكبه إلى جزيرة أيلة عن طريق رأس محمد جنوب سيناء ، وانقضت على المراكبين فيها انقضاض الجوارح ، وقذفتها بسهامهم وبنيرانهم القاتلة ، وأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر مقاتليها إلا من تعلق بهضبة واختفى في كهف ، حتى هؤلاء ، كتب لهم الموت ، ولم ينج منهم إلا من وقع في الأسر .

أما القسم الثاني من الأسطول فقصده أولا نهر عذاب، وأطلق الأسرى من المسلمين، ورد إليهم ما سلب منهم، لكنهم لم يعتدوا على الصليبيين هناك. واستمرت العمليات البحرية في البحر الأحمر قرابة شهرين، وأخيراً اتجهت السفن بقيادة لؤلؤ إلى رابع، وأدرك بعض الصليبيين معتمدين بساحل الحوراء، وكان عددهم نحو الثلاثمائة رجل مسلح، يماونهم بعض البدو. فلما شاهدوا جنود لؤلؤ ولى البدو هارين، وأسرع الصليبيون في الالتجاء إلى رأس جبل صعب المرتقى، وركب عشرة من المسلمين وراءهم يقتنصونهم أسرى وقتلى، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً نهاراً وليلاً، حتى لم يتركوا عنهم خبراً، ولم يبقوا لهم أثراً، وسيق الذين استسلموا أسرى، وقيد منهم مائة ستة وسبعون أسيراً. ثم ذلك على مسافة يوم من المدينة.. وصادف ذلك النصر أشهر الحج، فسيق منهم أسيران إلى منى حيث ذبحوا، أما الباقون فعاد بهم القائد لؤلؤ إلى مصر مصفدين بالقيود. وكان دخولهم القاهرة يوماً مشهوداً.

وتصادف دخولهم الاسكندرية (١٦ أبريل ١١٨٣) نزول الرحالة الأندلسي ابن جبير فيها، فشهد الأهالي مصنفين على جانبي الطرقات لمشاهدة أولئك الأسرى وهم يركبون الجمال، ووجوههم إلى أذنانها، وحولهم الطبول والأبواق. ثم أمر السلطان بقتلهم بأيدي الصوفية والفقهاء.

وقيل أن في نفس العام الذي تم فيه هذا النصر المبين، توفي القائد لؤلؤ، صانع معجزة النصر. مات في مصر، وقيل في جمادى الآخرة من عام ٥٩٦هـ / ١١٩٩م. وكان لهذا الفوز دوى في العالم الإسلامي، وتنافس الشعراء المعاصرون في وصف هذا الظفر الكبير، ومنهم أبو الحسين بن الذروي. قال :

مر يوم من الزمان عجيب	كاد يبدى فيه السرور الجاد
إذا أتى الحاجب الأجل بأسرى	قرنتهم في طيها الأصفاد
بجمال . كأنهم جبال	وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى	هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي	وسواه من اللالىء يصاد

وقيه قال الرضى بن أبى حصينة المصرى مخاطباً الفرنج :
عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدر فى البحر لا يخشى من الغير
فأمر حسامك أن يحظى بتعزيم فالدر مذ كان منسوباً إلى البحر

* * *

فمن كان هذا القائد الباسل .. لؤلؤ ؟
لم يكتب المؤرخون المسلمون شيئاً كثيراً عن نشأة حسام الدين لؤلؤ ،
ولم تقف على اسمه بين أسماء الخالدين من المسلمين ، وذكر العماد المؤرخ عنه
أن من دلائل سماحته ما شاهدته القاهرة فى سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م) . فلما حط
القفل رحله ، وتم الغلاء ، وعم البلاء ، ابتكر هذا الحاجب (حسام الدين)
الكبير مكرمة لم يسبق إليها . وذلك أنه كان يخبز كل ليلة ١٢٠٠٠ رغيفا
فإذا أصبح جالس بالقرب من باب وفتح منه مقدار ما يخرج منه واحدا بعد
واحد ، ويتناول كل فقير قرصه . وما يزال قاعدا حتى يفرق الألوف من
الأرغفة . وكان هذا دأبه فى هذا الغلاء حتى هب الرخاء . وقد تنوعت صدقاته
واستغرقت بالصلاة أوقاته . يقول عنه أنه كان بهى الشيب نقى الجيب ، قد
جعل الله البركة فى عمره ، وأنجده فى أوان ضعفه بتضعيف بره . ولا شك أنه
من الأولياء الصالحين .

أما ما كان من أرناط ، فى خلال عام ١١٨٦م مرت إحدى قوافل المسلمين
الغنية بالقرب من حصن الكرك . فلم يلبث أرناط أن انقض عليها كمادته ،
وحطم الهدنة التى كانت بين صلاح الدين والصليبيين ، ثم نهب جميع متاعها
وأموالها ، وأسر رجالها ونساءها وسجنهم . وقيل أن أخت السلطان كانت
من بينهم .

وامتلاً أرناط الغادر زهوا بفعلته ، وأخذ يشمت فيهم ويسخر منهم .
وصاح فيهم هازئاً : « ما دمتم تعتقدون فى محمد ، فأعدوه الآن يفك أسركم
ويخلصكم مما أنتم فيه » . ولما علم صلاح الدين نار غضبا ، وأقسم ليقتلن الغادر
بيده . ولم يمض عام حتى نال جزاء سخريته . وبر السلطان بقسمه .

ففى ٤ يوليو عام ١١٨٧ تقابل جيش المسلمين بقوات الصليبيين على مقربة من حطين ، ودار القتال عنيفا بين الطرفين ، وكتب النصر المبين للمسلمين المدافعين عن بلادهم . امتلأ الميدان بحثث القتلى التى تجمعت أكواما ، وتوالى احضار الأسرى وفى طليعتهم الملك كوى فأخوه وأرناط وغيرهم من الأمراء ، فساموا سيوفهم إلى المسلمين .

ودعا صلاح الدين الملك كوى وأرناط أمير الكرك إلى خيمته ، وأجلس الملك إلى جانبه ، وعندما رأى عطشه أمر فجىء له بماء مثالج فشرب منه ، وأعطى الملك ما تبقى منه لأرناط ، فصاح صلاح الدين لترجم : « قل للملك ما سقيته أنا ، ولكنك أنت الذى سقيته » . قاصدا بذلك أن أرناط لم يصبح آمنا بعد أن شرب من ماء صلاح الدين .

وجاء الوقت لىفى صلاح الدين بقسمه القديم ، فقام وأنب أرناط على



تنكيله بقافلة المسلمين وتطاوله على مقام النبوة ، ثم هوى عليه بالسيف فأرداه .

وارتعد الملك وخاف أن يثنى به ، فأمنه صلاح الدين قائلا : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك . أما هذا فقد تجاوز حده » فجرى ما جرى » .

البطال صلاح الدين فى المعركة

٦ - معركة حطين الكبرى

السبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ - ٤ يوليو ١١٨٧

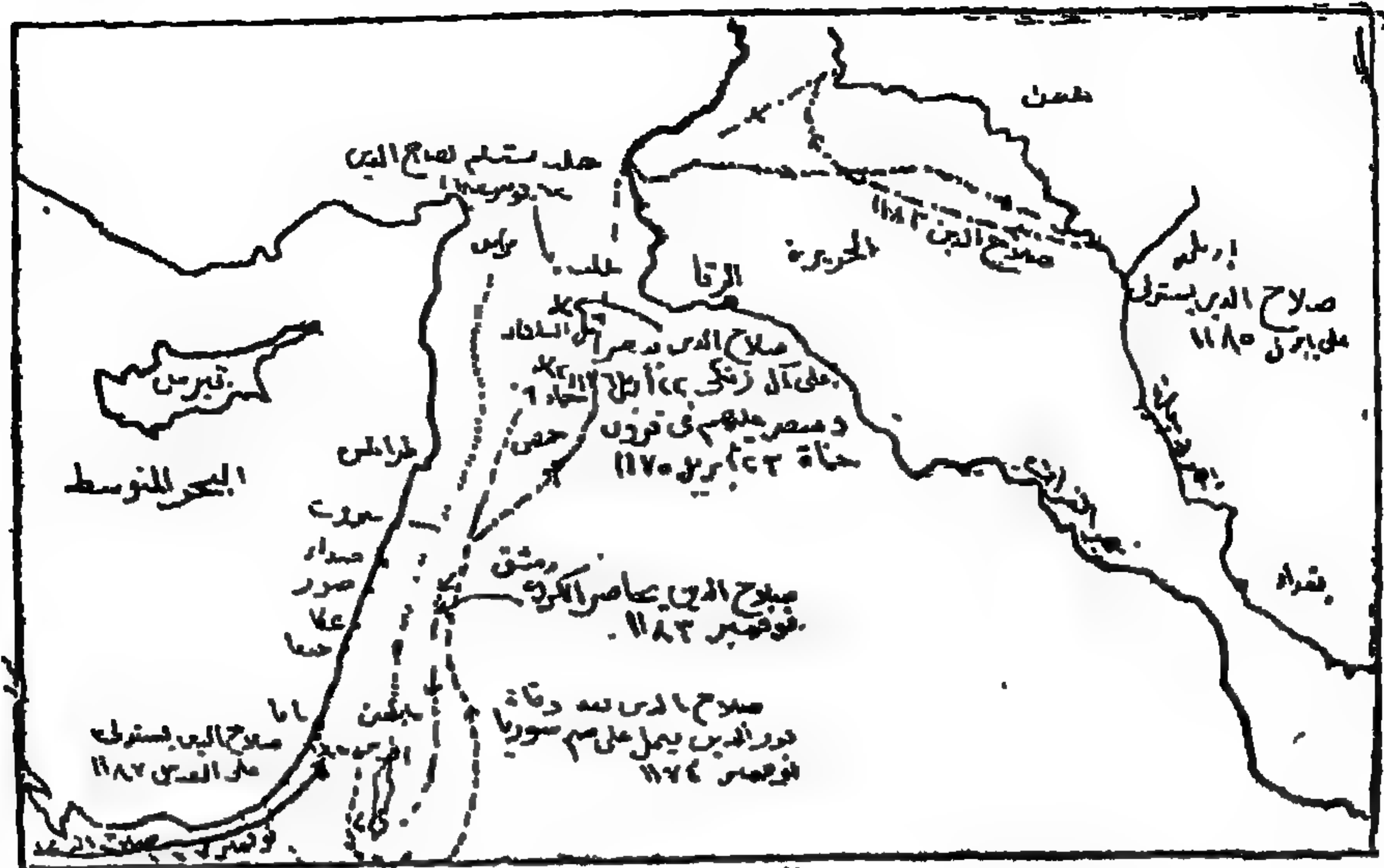
تناثرت أخبار هذه المعركة الكبرى في المراجع العربية ، المعاصرة منها ، والمتأخرة . تلك المعركة التي نشبت غربى بحيرة طبرية ، وحطين قرية عندها قبر النبی شعيب .

يقول العماد : أحاط المسلمون بالصليبيين إحاطة الدائرة بقطرها وإحاطة النار بأهلها^(١) واشتد الطعن والضرب ، وحال المسلمون دون نصب خيامهم فى أعلى تل حطين إلا خيمة الملك ، وفى حراسته نحو ١٥٠ فارسا . ويصف الأفضل على بن صلاح الدين ، وقد شهد هذه المعركة مع أبيه ، قال .

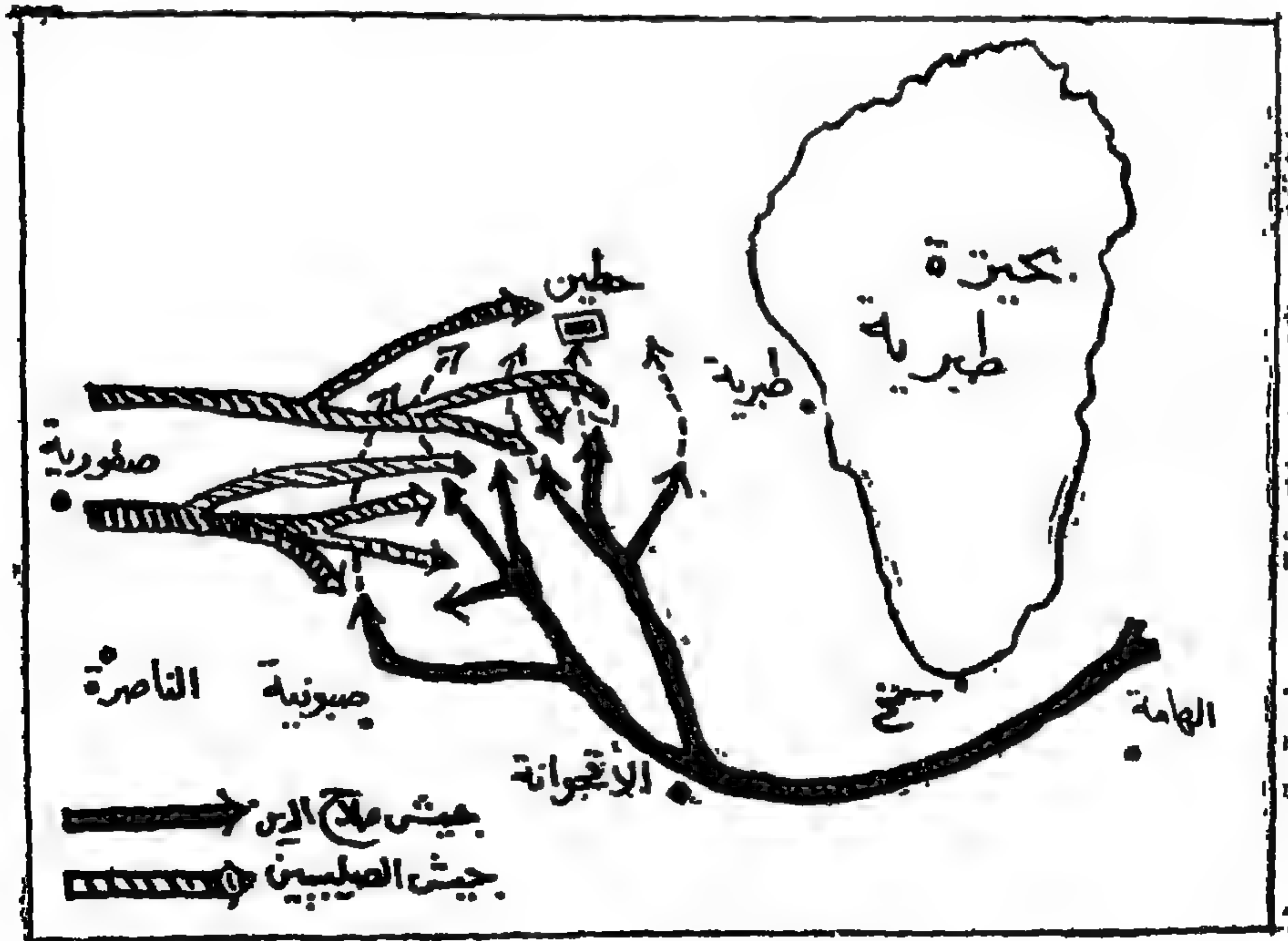
« كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته . فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى ، فنظرت إليه ، أى والده صلاح الدين ، وقد علته كآبة . وأربد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجموا ، فصعدوا على التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : هزمناهم ! هزمناهم ! فعاد الفرنج ، فحملوا حملة ثانية ، مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدى ، وفعل هو مثل ما فعل أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا : هزمناهم ، هزمناهم . فالتفت إلى والدى فقال : أسكت ! ما نهزمهم حتى تنهبط (خيمة الملك) ، فهو يقول ذلك وإذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى ، وبكى من شدة فرحه^(٢) »

(١) الفتح القسى . ص ١٩ .

(٢) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٢ . أنظر أيضاً ابن الأثير : ج ٩ ص ١٢٨



معارك صلاح الدين فيما عدا معارك الجليل (١١٧٤ - ١١٨٨)



معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧

واستسلم من نجا من القتل من الفرنج ونزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون اليهم وألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم .
وكان من كبار الأمرى : ملك القدس الصليبي كزى لوزينان وأخوه أمريك ، وأرناط صاحب الكرك ، وأوك صاحب جبيل وإسمه « هيو الثانى » .
وهمفرى ، وعدد كبير من فرسان الداوية وكذلك معظم الاسبتارية . .

وعاق ابن واصل على هذا النصر :

« فلم يؤيد الاسلام بعد الصحابة ، رضى الله عنهم ، رجل مثله ، ومثل .
نور الدين محمود بن زنكى ، فهما جددا الإسلام بعد دروسه ، وشيدا بنيان التوحيد بعد طموسه ^(١) »

هذا بعض ما كتبه المؤرخون المسلمون عن المعركة ، واليك ما كتبه مؤرخ حديث .

الاستعداد لمعركة حطين

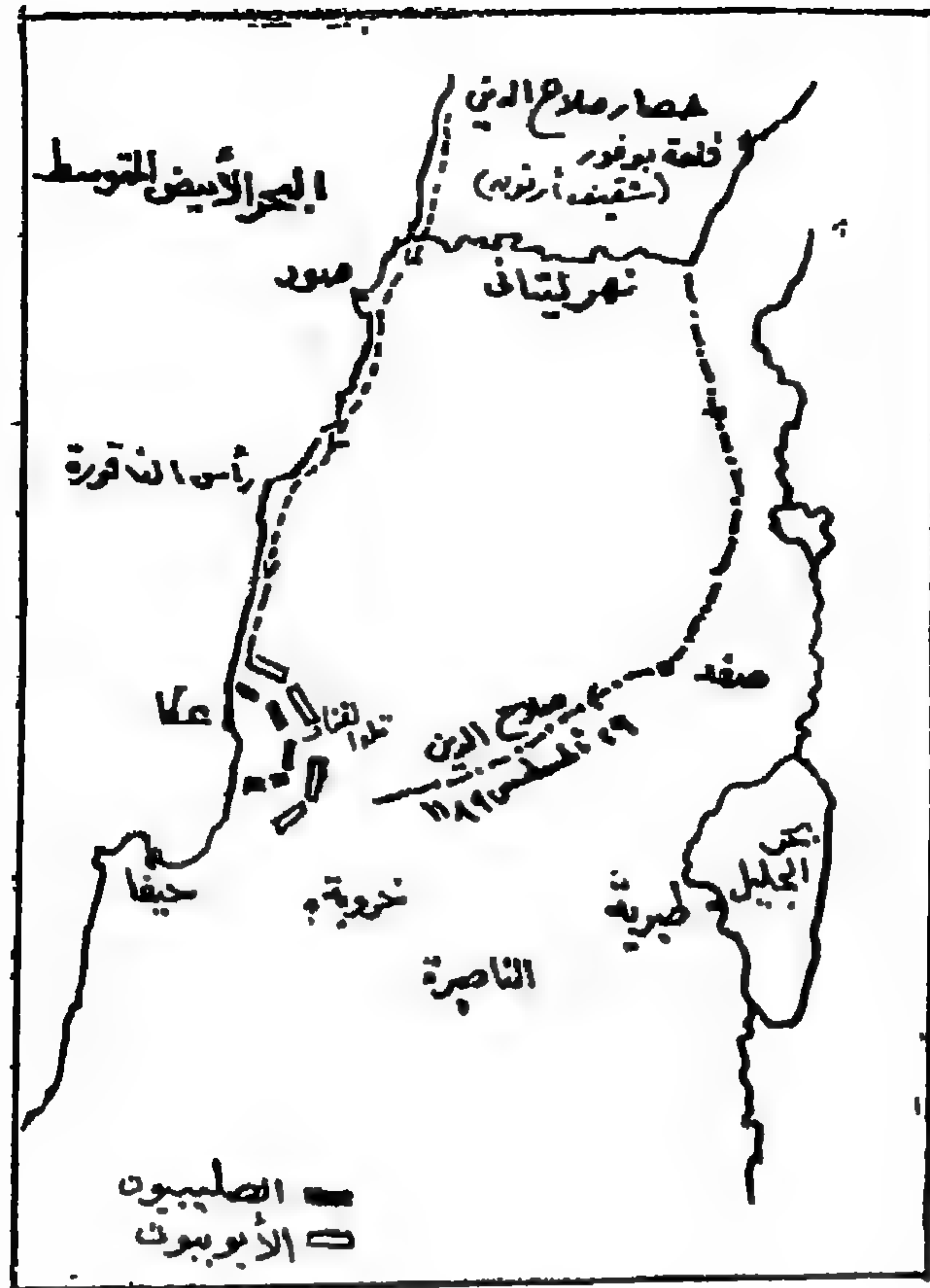
أوجز الأستاذ محمد فريد أبو حديد وصف معركة حطين فى كتابه .
المفيد ^(٢) قال :

أرسل صلاح الدين يجمع الجيوش فى ربيع سنة ١١٨٧ م ، وجعل مركز القيادة العليا دمشق ، فأنته الجنود من أطراف دولته وكان أول بعوثة الفين : جعل أحدهما إلى الكرك (بالأردن) ، بقيادته هو للانتقام ومنع أرناط من مهاجمة الحجيج والوقوف فى سبيل العسكر المصرى القادم اليه ، وأرسل الآخر إلى عكا يشغل فرسان الداوية والاسبتارية عن مساعدة الكرك ، وقد نجح فى إحراز غرضه من هذين البعثين نجاحاً تاماً .

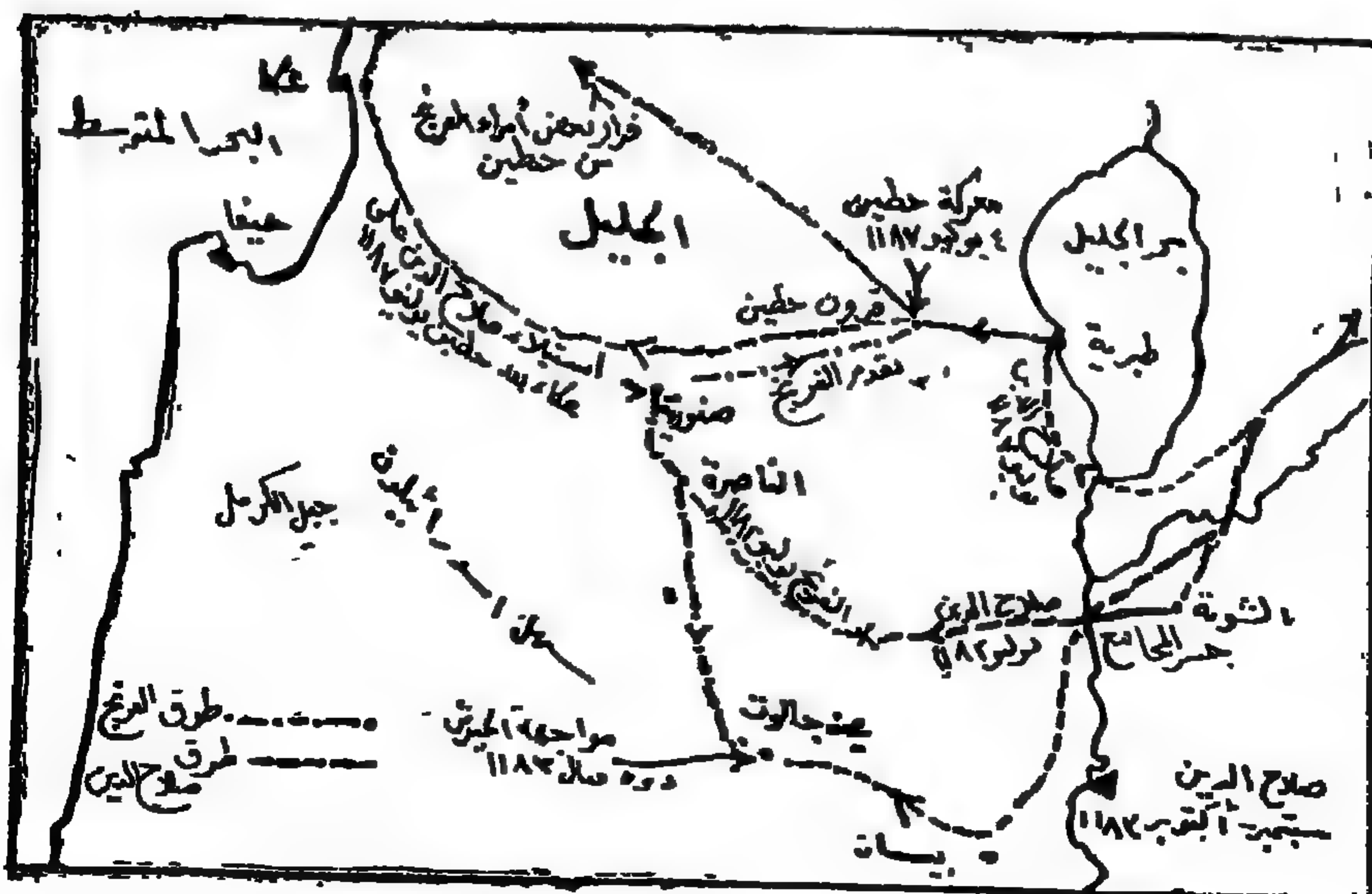
فأما تكامل الجيش الإسلامى فى صيف ١١٨٧ ، كان أمام صلاح الدين خطتان : الأولى أن يقف أمام الصليبيين فى معركة فاصلة ، والثانية أن يتابع

(١) مفرج الكروب : ج ٢ ص ١١٣

(٢) صلاح الدين الأيوبي وعصره لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة



الأيوبيون في حصار عكا (٢٨ أغسطس ١١٨٩ — ١٢ يوليو ١١٩١)



شارك صلاح الدين في الجليل بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٢

الخطة القديمة من إغارات متكررة ونهب وسبي دون معركة فاصلة حتى يضعف الفرنج أولاً ثم يضرب الضربة القاضية أخيراً . ولكنه فضل الخطة الأولى . ولعل أكبر ما دفعه إلى اختيارها شدة حماسه ، قد قال مرة : إن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجميع إلا بعد الجهد بالجهاد .

وهكذا سار إلى طبرية في يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ الموافق ٤ يوليو ١١٨٧ ، وكان يتخير لغزواته أيام الجمعة ، لتقع حروبه في وقت تكثرت فيه الدعوات والصلوات . ثم خلف طبرية وراه ظهره وسار إلى غربها عند ما علم أن الجموع الصليبية جاءت من صفورية ووقفت له عند جبل طبرية من جهة الغرب . ولكن الصليبيين جاءوا ووقفوا له عند جبل طبرية من جهة الغرب . فإن الصليبيين لم يبرزوا له وتحصنوا في مواقعهم ، فأراد أن يحرضهم على لقائه فجعل يهبط إلى طبرية فيخرب فيها ويغتم ويحرق . وكان قصده من مهاجمة المدينة أن ينفر الجيش الصليبي لمساعدتها فيخرج من أماكنه ، فيلقاه صلاح الدين في ميدان مفتوح ، وقد نجح في ذلك نجاحاً تاماً . فإن الصليبيين تمركزوا لنجدة طبرية . فعاد صلاح الدين مسرعاً عنها وجعل جيشه على الماء ، وأبقى ما أمامه من ماء الصهاريج وكان الوقت قيظ الصيف . فلما أقبل الصليبيون لم يقدروا على بلوغ الماء الذي وراء المسلمين ، ولم يجدوا في الصهاريج التي دونهم ماء ، فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش والحر ، ولم يستطيعوا العودة إلى حيث كانوا خوفاً من جيش المسلمين . فكان هذا انتصاراً لصلاح الدين قبل أن يضرب ضربة واحدة . وعلت معنويات جنود المسلمين ، ووثقوا بالنصر قبل اللقاء ، فباتوا الليلة في تكبير وتهليل ، بينما قائدهم الملهم الحذر يراقب نظام جيشه ، ويوقف كل جماعة في مكانها استعداداً للمصاف في الغد .

ولما حاول الصليبيون في اليوم التالي بلوغ الماء كلفهم ذلك ما كلفهم ، فمنعهم صلاح الدين من ذلك إذ أدرك قصدهم ، وجعل يدور بهم حتى حصرهم حصاراً تاماً . ولم يتمكن أحد من الخروج من تلك الدائرة إلا ريمون في جماعة

قليلة ، وكان خروجهم من دائرة الحصار مكيدة دبرها ابن شقيق صلاح الدين ، وذلك أنه رأى أن قتال ريمون وجنوده قتال المستميت فأفسح لهم حتى أخرجهم من الحصار فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصراً ثم ما لبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأمت ، فلم يجد ريمون أمامه غير ترك الميدان والذهاب عن الحرب جملة . وهكذا ضعفت صفوف الصليبيين بذلك النقص في عدد المقاتلين .

بدأت منذ ذلك الحين الهزيمة . . غير أن المحصورين احتلوا تلا عند حطين وتحصنوا به مع ملكهم « كي » وأبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن أنفسهم . وكان المسلمون يكرون عليهم بين حين وآخر ، فتعود الجنود منحدرية عند التل وهي تحمل من الأسرى والأسلاب شيئاً كثيراً ، وكان السلطان يبعث ما في نفسه من حماسة وثبات إلى قلوب المتحاربين ، فكانوا تحت عينيه يأتون بالعجائب من أعمال الشجاعة . وبعد استمرار الهجمات العنيفة حيناً هوت خيمة الملك بعد كرات ثلاث واستأمر من بقي من الفرسان . وكان النصر تاماً لصلاح الدين وجنده ، وسجد شكراً لله . كان بين الأسرى الكثيرين في هذه المعركة ، الملك كي ملك بيت المقدس . والأمير أرناط عدو صلاح الدين العنيد ، وجوسكاين أمير كورتنى ، وهمفري أمير تورون ، وقادة المعبد ، والاسبترارية .

أكرم صلاح الدين الملك وقدم إليه ماء مثلاً فشرب وأعطى فضلة للأمير أرناط ، فقال صلاح الدين عند ذلك : « إن هذا لم يشرب الماء بإذنى » يريد أنه لم يصبر آمناً من عقابه . « ها أنا أنتصر لحمد » . ثم عرض عليه الإسلام . ولكن الرجل أبى ، فسل صلاح الدين النمشاة (السيف) وضربه بها فخل كتفه ، وتم عليه من حصر .

تسلم الناصر صلاح الدين بعد انتهاء معركة حطين - قلعة طبرية ، فقد سلمت صاحبته وهي زوجة القومص ، الذى كان هرب إلى طرابلس خلال معركة حطين ، حيث مات ، وأمنها الناصر وسمح لها بمغادرة القلعة وحمل أموالها ، فخرجت ولحقت بزوجها في طرابلس ، وفي أعقاب ذلك النصر دانت جميع البلاد الداخلة في نطاقها ، وهي بلاد الصلت والبلقاء والسواد والجولان حتى حوران .

٧ - تحرير بيت المقدس

مر بنا الحديث عن سقوط القدس الشريف في قبضة الصليبيين في ١٥ يوليو ١٠٩٩ والمذابح التي اقترفوها ، فراحوا يديرون المدينة كما يشاؤون ، واستولوا على جميع المباني الإسلامية والمسيحية المنتمية إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، ثم حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة واستعملوا المسجد الأقصى لمصالحهم ثم أقاموا مملكتهم اللاتينية بزعماء جودفري دوبريون ، وتعاقب بعده ملوك الصليبيين . ومرت الأعوام وأفاق المسلمون من هول تلك الصدمة التي حاقت بأشرف ما يعتزون به حتى جاء المخلص الناصر صلاح الدين ، فعزم على تحرير بيت المقدس ووضع الخطة الجريئة ، فما كاد ينتهي من معركة حطين وينتصر فيها على خصومه حتى سار إلى بيت المقدس على رأس جيش من العرب والترك والأكراد والمصريين ^(١) ، فحاصرها من الناحية الغربية ، ثم نقل جيشه إلى الناحية الشمالية عند المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة ، وأخذ رجاله الأشداء في تركيب آلات الحصار وفي إعداد وسائل القتال . وكانت حامية المدينة مؤلفة من حوالي ٦٠٠٠٠ مقاتلا ، ويحيط بالمدينة سور منيع من جهاتها الأربع .

لما أتم صلاح الدين حصار القدس ، أئذ الأعداء طالبا منهم الاستسلام ، فلما أبوا راح يضربهم بمجانيقه الشديدة ، فنشب قتال عنيف أبلى فيه الفريقان بلاء حسنا ، وتمكن المسلمون من خرق جانب من السور الشرقي . فيئس الصليبيون وأدركوا أن لا محالة في الدفاع ؛ فأرسلوا رسلهم إلى السلطان طالبيين الاستسلام . فتردد صلاح الدين أولا ثم أتاح لهم مغادرة القدس لقاء الجزية على أن تدفع خلال أربعين يوما . وهكذا غادروا القدس بأمان دون أن يصابوا بأذى ، كما أنه عفا عن كثيرين مفتديا هو وحدة عشرة آلاف شخص .

استعاد صلاح الدين بيت المقدس حينما استطاع المسلمون ذلك ، وكان ذلك في يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٨٧) أي بعد

(١) ذكر عماد الدين الكاتب أن صلاح الدين ذهب لحصار القدس على رأس عساكر مصر ولما تم النصر قال : « ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار » . الفتح القسى .

٨٨ سنة من احتلالها . وبعد احتلال القدس انتشر الجنود في طرقات المدينة للحفاظ على الأمن . فلم يقع في المدينة حادث نهب أو سلب وراحت الأعلام الإسلامية تحف على الأسوار والأبراج .

وفي ٤ شعبان ٥٨٢ هـ (٩ أكتوبر ١١٨٧) أقام المسلمون صلاة الجمعة في المسجد الأقصى بإمامة القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين الذي عينه صلاح الدين منذ ذلك الحين خطيباً للمسجد تقديراً له على صدق نبوءته بفتح القدس في شهر رجب . وتعتبر خطبته الحماسية من أهم الخطب الدينية التاريخية . وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته ، أمر السلطان صلاح الدين بإزالة ما لحق بالأماكن الشريفة من آثار نصرانية ، ورفع عن قبة الصخرة المذبح ، ومحا الصور والتماثيل ، وغسل الصخرة ، بماء الورد المعطر وأعاد للمسجد الأقصى رونقه ، ويثبت ذلك ما قرأه منقوشاً :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الناصر صلاح الدين عندما فتحه الله على يديه في شهر سنة ٥٨٣ هـ وهو يسأل الله عزه شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة .

وأمر السلطان بعد أيام بدعم سور القدس ورم ما تهدم منه ، وأمر بإنشاء عدد من الأبراج القوية ، وحفر خندق حول السور . ومن آثار صلاح الدين ، قبة يوسف القائمة على الطرف القبلي من ساحة الصخرة و « جامع الجبل » على جبل الطور شرق المدينة ، والخانقاه الصلاحية التي بناها في جانب من منزل البطريرك الملاحق لكنيسة القيامة .

أقام صلاح الدين قرابة شهر في القدس الشريف ، ثم عزم على استئناف الجهاد ، فرحل عن المدينة يوم الجمعة ٢٥ شعبان عام ٥٨٣ هـ (٣٠ أكتوبر ١١٨٧) ، ثم وصل عكا وصحبة شقيقه العادل .

بعد تحرير القدس

اتجهت موجة الفتح الصالحى بعد سقوط القدس نحو الحصون الفرنجية ،
فجرفت في طريقها الشوبك والكرك إلى الجنوب ، وقلعة كوكب الهواء ،
والشقيف (شقيف أرنول) ، وصهيون إلى الشمال ، ثم سقطت عسقلان ، وصفد
وانظرطوس وجبله واللاذقية .. جميعها قبل نهاية عام ١١٨٩ . ولم يبق في قبضة
الفرنج سوى صور وطرابلس وأنطاكية وبعض المدن والحصون في شمال سورية.
وسنورد فيما يلي تبعا بهذه المعارك المظفرة .

- ١ — عسقلان : يوم الأحد ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٣ هـ - ٧ سبتمبر ١١٨٧
- ٢ — قلعة هونين : ٢٣ شوال ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ .
- ٣ — غزة : ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ .
- ٤ — صور : يوم الجمعة ١٥ رمضان ٥٨٣ هـ / ٢٢ رمضان - ١١٨٧ .
- ٥ — جبلة (المدينة والقلعة) يوم الجمعة ١٨ جمادى الأولى ٥٨٤ هـ -
١٥ يوليو ١١٨٨ .
- ٦ — اللاذقية : يوم الجمعة ٢٥ جمادى الأولى ٥٨٤ هـ - ٢٢ يوليو ١١٨٨
- ٧ — قلعة صهيون : يوم الجمعة ٢ جمادى الآخرة ٥٨٤ هـ -
٢٩ يوليو ١١٨٨ .
- ٨ — بكش . يوم الجمعة ٩ جمادى الآخرة ٥٨٤ هـ - ٥ أغسطس ١١٨٨
- ٩ — الشحر : يوم الجمعة ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٤ هـ - ١٢ أغسطس ١١٨٨
- ١٠ — سرمانية : يوم الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة ٥٨٤ هـ - ١٩ أغسطس ١١٨٨
- ١١ — قلعة برزية : يوم الثلاثاء ٢٧ جمادى الآخرة - ٢٣ أغسطس ١١٨٨
- ١٢ — قلعة دريساك : ٢٢ رجب ٥٨٤ هـ - ١٦ سبتمبر ١١٨٨ .
- ١٣ — قلعة بغراس (بالقرب من أنطاكية) : ٢ شعبان ٥٨٤ هـ -
٢٦ سبتمبر ١١٨٨ .
- ١٤ — قلعة صفد : ١٤ شوال ٥٨٤ هـ - ٦ نوفمبر ١١٨٨ .

- ١٥ — قلعة كوكب : ١٥ ذى القعدة ٥٨٤ هـ — ٧ ديسمبر ١١٨٨ .
١٦ — قلعة الشقيف أرنول : ربيع الأول ٥٨٥ هـ — ١١٨٩
١٧ — سقوط عكا في قبضة الصليبيين : صفر ٥٨٥ / ٥٨٧ هـ — مارس
١١٨٩ / ١٢ يوليو ١١٩١ .
١٨ — معركة أرسوف : ١٤ شعبان ٥٨٧ هـ — ٧ سبتمبر ١١٩١ .
١٩ — استيلاء الصليبيين على داروم (ج عسقلان) : ٥٨٨ هـ —
٢٢ مايو ١١٩٢ .
٢٠ — صالح الرملة : ٢٢ شعبان ٥٨٨ هـ — ٣ سبتمبر ١١٩٢ .



محادثة بين فارس أيوبى وأمير صليبي

٨ - معارك حصار عكا

(صفر ٥٨٥ هـ - رجب ٨٧٥ / مارس ١١٨٩ - أغسطس ١١٩١)

امتنت صور فلم تسقط في قبضة المسلمين وأصبحت مركزاً هاماً للصليبيين بعد ما انضم اليهم كثيرون من وراء البحر ، ولما أحسوا بقوتهم وأن صلاح الدين يدبر لهم الكمائن ، استقر رأيهم على أن يذهبوا إلى عكا لاسترجاعها ، فيكون بذلك لهم مئنتان عظيمتان على ساحل سورية الأوسط .

بلغ صلاح الدين خبر سير الفرنج من صور إلى عكا ، وإلى حصن الشقيف (بلقورت) ، فظن ذلك خدعة منهم يريدون صرفه عن الحصن ، فترى حتى عرف أنهم جادون في مشروعهم . فأمرع بمكاتبة أمرائه ليأتوا إليه ، فاجتمع إليه جيش عظيم وجمع مجلساً حربياً ليعتار طريق السير ، أيسير الفرنج على الساحل ويقاثلهم قبل وصولهم عكا ، أم يلقاهم هناك على المدينة بعد أن يسلك طريقاً داخلية ماراً بطبرية . فاختار أمراءه الطريقة الأخيرة . وبالرغم من عدم موافقته ، فقد اتبع ما أقره مجلس أمرائه على حسب عادته . وكان أول ما عني به صلاح الدين عند بلوغه عكا أن يرسل إليها الامداد بعثاً بعد بعث قبل أن يستفحل أمر حصار الفرنج لها .

أصبحت عكا بعد زمن قصير محصورة بالفرنج تحت ملكهم « كي » والأمير كونراد ، وأحاط حول الفرنج من الخارج جيش صلاح الدين ، وكان البحر مفتوحاً يمد الفرنج من جهة بما يأتي مع أساطيلهم ، ويمد عكا خفية لأن أسطول الفرنج في البحر كان حينئذ أقوى من أسطول المسلمين ^(١)

اجتمعت قوة الفرنج وقوة الدولة الإسلامية عند عكا في أغسطس عام ١١٨٩ (شعبان ٥٨٥ هـ) . وسنشهد سباقاً عظيماً بين الشرق والغرب استغرق عامين ، حدث في خلاهما معارك كثيرة ، بعضها كبير وبعضها إصطدامات صغيرة إلى أن جاء فيليب ثم ريكارد الانجليزى (قلب الأسد) في ربيع عام ١١٩١ م (٥٨٧ هـ)

(١) محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبي وعصره ، ص ١٥٦ - ١٦٢ القاهرة - ١٩٢٧

فأصبحت قوة الفرنج أكبر من أن يغلبها صلاح الدين . فآثر ترك المدينة اليهم
فسلمت في يوليو عام ١١٩١ م (١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ) . وسنقسم أعمال
القتال بين الجانبين إلى مراحل ثلاثة : الأولى من أول الحصار إلى هجوم شتاء
عام ١١٨٩ م ، والثانية من ربيع سنة ١١٩٠ م ، والثالثة من ربيع سنة ١١٩١ م
إلى سقوط عكا .

المرحلة الأولى للحصار

حدث ما توقعه القائد صلاح الدين ، فعندما وصل إلى عكا ، كان الفرنج
قد إختاروا مكانهم وحصروا عكا حصاراً تاماً وكان عددهم ألفى فارس
وثلاثين ألفاً من المشاة . فكان هدف صلاح الدين الأول أن يجعل في الحصار
ثغرة يستطيع أن يصل بها إلى المدينة بالجنود والأقوات لتقدر على المقاومة .
وانفتح الطريق أخيراً إلى المدينة بعد مشقة ، ولكن الفرنج جعلوا يعاودون
الكرة حتى يتموا الحصار مرة أخرى ، فكانت تنشب المعارك يومياً حول
الأسوار . وكان المتحاربون من الجانبين يقطعون بعض وقتهم في فترات
الحرب ليتحدثوا ويمزحوا ! وقد بلغ الصراع أشده في هذه المرحلة من الحصار
بعد حوالي شهر ونصف من البدء فيه ، فدارت رحى أشد معركة شهدتها
أسوار عكا ، وتقلب الحظ بين الجانبين ، ولكن ثبات السلطان وإخلاص
أفراد أسرته وشجاعة جنودهم . . . كل ذلك جعل النصر للمسلمين بعد أن
قتل من الجانبين عدد عظيم .

جمع السلطان بعد هذه المعركة مجلساً حريماً ؛ وكان يدرك أن هذه
الصدمة الأولى لابد أن تؤثر في نفوس أعدائه ، فإذا تابع الهجوم كان رفع
الحصار عن عكا محققاً ؛ ولكن أمراءه رأوا تفضيل الراحة بعد وقوفهم عند عكا
نحو خمسين يوماً ؛ فنزل على رأيهم وكانت غلطة لأن الراحة أفادت الصليبيين
أضعاف ما أفادت المسلمين . ولم يستأنف بعد تلك الراحة قتال جدى في هذا العام
للدخول الشتاء ؛ فاكتمى صلاح الدين بادخال المؤن والرجال إلى عكا ؛
وتراجع بجزء من الجيش إلى الخروبة تخلصاً من عفونة الميدان حول عكا لما

كان به من جثث القتلى . وكان يتوقع حينذاك وصول الإمداد إلى أعدائه بقيادة ملك الألمان فردريك برباروسا .
المرحلة الثانية للحصار

بعد انتهاء الشتاء أرسل صلاح الدين يدعو أمرائه لاستئناف القتال في ربيع عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) فأتت إليه الإمداد وجاءت مساعدات من الخليفة ببغداد . ووصل إليه النفاطون والزراقون والعاملون على آلات الحصار وحينذاك قام صلاح الدين بهجوم عام من الخارج برا ليشغل جنود الفرنج فيخفف بذلك الضغط على البحر حينما وصل الأسطول المصري . فدارت معركة برية بحرية في وقت واحد وانتهت بانتصار عظيم ودخول الأسطول المصري إلى عكا محملاً بالمحاربين والمؤن . ومن حسن حظه أن حملة الألمان كانت غير موقفة لانتهازها الطريق البري الطويل عبر شرق أوروبا والقسطنطينية ، فضلاً عما قابلته من الصعاب في آسيا الصغرى ومقاتلة فرسان مملكة الروم الإسلامية وملكها قليج أرسلان . ثم مات فردريك غرقاً .

سمع صلاح الدين بالأنباء المريعة وهي اقتراب جيوش فردريك ، فاتخذ الحيلة وأرسل جماعة كبيرة من جيشه المرابطة على منافذ سورية من الشمال ، وما لبث أن أتته أنباء الضعف الذي انتاب ذلك الجيش ، ففرح الناس ، وما زالت الأخبار ترده كل يوم بزيادة الضعف إلى أن عرف أخيراً أن فلول ذلك الجيش قد لجأت إلى أنطاكية . . . وقد شعر الفرنج الذين حول عكا بنقص جنود صلاح الدين عند ما أرسل بعض أمرائه إلى الشمال ، فأرادوا أن ينهزوا الفرصة وهاجموا الجبهة التي نقصت جنودها وهي ميمنة الجيش الصلاحي ، وكان عليها شقيقه الملك العادل ، فدارت هناك معركة عظيمة تعرف باسمه ، وهي المعركة العادلية .

المعركة العادلية^(١) (٥٨٦ هـ - ١١٠٩ م)

استمر النضال أكثر النهار واشترك فيه المحصورون في عكا ، فقد خرجوا على الفرنج من خلفهم أثناء المعركة فتم النصر بذلك للمسلمين وقتل من الفرنج

(١) نسبة إلى الملك العادل شقيق السلطان صلاح الدين .

عدد عظيم ، فزادت الروح المعنوية في عكا . وتعتبر الموقعة العادلة أكبر وقائع المرحلة الثانية لحصار عكا . . ثم جاءت الإمدادات للفرنج بقيادة الكونت هنرى (هنرى دى شمبانيا) . وبدأ الحصار يشتد مرة أخرى وجعل الفرنج يقذفون أسوار المدينة بالمجانيق ، غير أن شجاعة المدينة لم تقل أمام هذه الهجمات العنيفة ، فقد كان بهاء الدين قراقوش ، وحسام الدين أبو الهيجاء بين الجند يوقدون فيهم الشجاعة ، وكان الزراقون والنفاطون يتابعون أعمالهم الجريئة بالنيران والأحجار الثقيلة ، وفي أثناء الحصار حدث كثير من بطولات الشجاعة والجرأة التي تمتلئ بها مؤلفات المؤرخين ، واستمر القتال عنيفا شهرين ظهرت فيها روح صلاح الدين وثباته رغم مرضه ورغم تفشى الأمراض في الجند . وجعل صلاح الدين يحتال على عدوه بتدبير الكائن والهبوط عليه بين حين وآخر .

وأخيرا جاء الشتاء قبل رفع الحصار عن المدينة ، فاضطر السلطان إلى أن ينصرف عن المدينة وجعل يصرف جنوده للراحة ، وهو يشعر بأن المدينة قد حان أجل تسليمها ولسوء حظ عكا ، لم تستطع السفن الآتية من مصر بالموثون أن تدخل إليها وذلك لشدة هياج البحر ، ففرقت وتكسرت . . .

المرحلة الثالثة لحصار عكا

مضى على الحصار صيفان وشتاءان وجاء الربيع من سنة ١١٩١ م ، فأخذت جيوش صلاح الدين تجتمع إليه من أنحاء الدولة ، كما أخذ الفرنج يحددون إغاراتهم على المدينة ويشددون حصارها ، بينما قلت الأقوات في عكا كاتضاء عدد المدافعين فيها . وقد زاد الأمر مشقة مجيء أسطول فرنسي وآخر إنجليزي بحملان جنود فيليب أوجست وجنود ريكارد .

اجتهد الفرنج منذ أول هذه المرحلة في طم الخندق حول عكا ، ولكن أهل المدينة صبروا على المقاومة . وكان صلاح الدين يجد مشقة كبرى في مهاجمة الفرنج لتحصنهم في خنادقهم ، ولهذا أمكن الفرنج أن يضيقوا الحصار على عكا وصار أمرا شاقا أن تصل المؤونة إلى داخل المدينة . ومع ذلك فقد استطاعت بعض السفن الإسلامية تدمير بعض قطع الأسطول الإنجليزي وإغراق من فيها .

وحاول عبثا ملك الإنجليز أن يتفق على صلح مع صلاح الدين، فقد أصر السلطان على أن يتابع الحرب حتى يخضع له عدوه في النهاية .

بدأت ترد إلى صلاح الدين الرسائل من المدينة تعبر عن الضيق والشدة ،
تأخذ الفرنج يقربون من أسوار المدينة حتى أصبحوا بجوارها، ولم يقدر السلطان على مساعدة المدينة مساعدة كبرى مع محاولته ذلك بكل ما استطاع ، وأخيرا لم

يجد بدا من مفاوضة الفرنج في التسليم
بعد نحو ثلاثة أشهر من تجدد الحرب
وكانت شروط الصلح أن تسلم المدينة
الفرنج بما فيها من الآلات والعدد والسفن
وأن تدفع نظير الأسرى المسلمين مائتي
ألف دينار وتطلق ألفا وخمسمائة فارس
من مجاهيل الأسرى الفرنج ، ومائة فارس
معينين وأن يرد صليب الصليبيات وأن
يخرج جميع من في المدينة سالمين بما معهم
من الأقمشة المختصة بهم وذرايعهم
ونسائهم ولكن تلك الشروط لم تنفذ
كلها وقتل مسلمو عكا ١ .

هكذا سلمت عكا للفرنج في ١٧
جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ (١٢ يوليو ١١٩١)
بين حزن الجنود في خارج المدينة وألم
السلطان لما ناله الفرنج من الفوز على
خصومهم وانتعشت روحهم العنوية عقب
ما أصابهم في معركة حطين . .



مقاتل صليبي

٩ - معركة أرسوف

(١٤ شعبان ٥٨٧ هـ - ٧ سبتمبر ١١٩١)

تقويت الروح المعنوية عند الصليبيين، وسرعان ما سار ريكارد إلى جنوب عكا على رأس جيوشه قاصدا الاستيلاء على مدن الساحل وحصونها . ثم إذا ما اطمأن إلى تحقيق أهدافه نفذ إلى الداخل ليستولى على بيت المقدس .

لم يحدث قتال يذكر إلا عند أرسوف^(١) ، فقد اشتد ضغط المسلمين على الصليبيين عند ما اقتربوا من غابة أرسوف يوم ٦ سبتمبر ١١٩١ ، وأخذ ريكارد في الطواف حولها مستطلعا المنطقة الواقعة بين البحر والغابة واختارت جيوشه نصف الغابة بسلام وحط رجاله للراحة على نهر الفلايك وبركة رمضان .

وفي صباح السبت ٧ سبتمبر (١٤ شعبان) ، تحرك الفرنج في اتجاه أرسوف الواقعة على بعد ستة أميال من نهر الفلايك وثلاثة أرباع الميل من الطريق الرملية العامة ، وسارت جموع الصليبيين في خمسة مجموعات : المقدمة ، وبها فرسان الداوية ، ويلهم الإنجليز والأنجويين ، وخلفهم الملك كي وجنده من بواتو ، ثم جماعة من الإنجليز ، ثم المؤخرة وبها فرسان الاستتارية . وانتشر الجيش الصليبي في المنطقة الممتدة بين ساحلي البحر وعساكر المسلمين . وقام الكونت هنري دي شيمانيا وفرقة المشاة بحماية ميسرة الجيش الصليبي من ضربات المسلمين . وبدأت معركة أرسوف في التاسعة من صباح ٧ سبتمبر بهجوم إسلامي عنيف على ساقة العدو ، فاندفع المشاة من بعض البدو والسودانيين بسهامهم ، وخلفهم فرسان الترك فضلا عن الجموع المحتشدة من الحمالين وممالك صلاح الدين

(١) بلدة صغيرة تقع على بعد عشرة أميال شمال يافا بفلسطين . احتلها الملك بلدوين الأول الصليبي عام ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م وأسمها أزوتوس ثم استعادها صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ثم نشبت عندها معركة دامية بين صلاح الدين وريكارد (١١٩١) وأعيدت إلى الصليبيين (١١٩٢) . عادت إلى المسلمين حينما استولى عليها الظاهر بيبرس بعد حصارها ٤٠ يوما (٢٩ أبريل ١٢٦٥) .

الخاصة وأمراء مصر وسورية والعراق بعساكرهم ، وتطورت المعركة من الهجوم على الساقة إلى هجوم تطويقي شامل على الجيش الصليبي جميعه . وسرعان ما امتلأت غابة أرسوف صخباً واندفع الجيش الأيوبي في ثلاث شعب: إحداهما على المقدمة الصليبية لتحول بينها وبين أرسوف ، والثانية على الساقة ، والثالثة صوب الجناح الصليبي الأيسر . وأدرك صلاح الدين أن أعنف المقاومة الصليبية صادرة من الساقة ، فقف بنفسه بين صفوف الطلائع في جماعة من خيالة الفدائيين . وظل المشاة الصليبيون يدافعون الهجمات المتعاقبة حتى نفذ صبرهم . وفي أثناء هذا الموقف اندفع فارسان من الاستتارية صوب الأتراك دون أوامر وتبعتهما فرق الفرسان الباقية ثم حملوا حملة واحدة من الجوانب كلها، فحملت طائفة على اليمين الأيوبية ، وأخرى على اليسرة وثالثة على القلب فاندفع الجند بين أيديهم ، وخشى ريكارد أن يفلت زمام القيادة ويخرج الصليبيون عن طاعته ، فأعطى إشارة ببدء الهجوم ، ودقت الطبول . ولم يتوقع صلاح الدين تغيير خطة العدو المفاجئة^(١) من الدفاع المنتظم إلى الهجوم العنيف وشهد قلب جيشه يفر فراراً كاملاً ، وتبعته اليسرة ، فتحول ابن شداد إلى طلب صلاح الدين ولم يجد به سوى ١٧ فارساً ثبت بهم صلاح الدين وحوله أصحاب الأعلام والكؤوس . وتابع العدو فلول المارين مسافة ميل ثم وقف خوفاً من السكين الإسلامي . وجمع أحد الأمراء وهو تقي الدين عمر شتات سبعمئة فارس تركي من الفارين وكر بهم على الصليبيين وأسر فارساً صليبياً ثم ذبحه . وانتهز الملك ريكارد ما حدث لجيش خصومه ، فحمل على المسلمين مرة ثانية ، فتقهقروا في غير نظام إلى مسافة ميل ثم وقف فوققوا وانتظمت صفوفهم ثانية . وتابع ريكارد زحفه إلى أرسوف فوصاه وضرب خيام مقدمة جيشه خارج أبوابها . وانتهز الملك العادل فرصة هذه الحركة الصليبية السريعة ، فانقض على مؤخرة الصليبيين في عدد كبير من الترك ، غير أن ذلك لم يغير من

(١) د. نظير حسان سعداوى: التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ص ٢٧٣ — ٢٧٤

حركات ريكارد الذي انقض على الجيش الأيوبي للمرة الثالثة حتى أجبرهم على الدخول في غابة أرسوف .

عند ذلك وقف صلاح الدين عند تل يقع عند مدخل الغابة حيث جاءته بعض العساكر . . . وتم النصر للصليبيين ، وقتل من المسلمين كثيرون من الأمراء وأكثر من سبعة آلاف من أصحاب الرتب المختلفة ، ولم تزد خسائر العدو على المائة .

دخل ريكارد أرسوف وقضى فيها يوما ثم غادرها في التاسع من سبتمبر إلى يافا فوصلها في اليوم العاشر وقرر الراحة فيها شهرين استطاع خلالها إصلاح حصونها .

أما صلاح الدين فقد انسحب من أرسوف إلى الرملة حيث كتب إلى الأمراء بإرسال النجيدات إليه سريعا ، وعقد مجلسه مساء العاشر من سبتمبر للاتفاق على خطة المعركة التالية ، فأشار الأمير علم الدين بن سليمان بن جندر بإخلاء عسقلان والاحتفاظ بالقدس لأن هدف العدو بعد يافا هو مدينتا عسقلان والقدس . فاعترض صلاح الدين على هذا الرأي ، ولكن رجحت كفة المعارضة واتخذ المجلس قرارا بتخريب عسقلان ، وإقامة الملك العادل بقرب يافا مع بعض القوات لمراقبة تجمعات الصليبيين وحركاتهم .

خربت عسقلان واشترك صلاح الدين وولده الأفضل في عمليات الهدم التي انتهت منها يوم ٢٣ سبتمبر . ثم قصد إلى الرملة وخرب حصنها وذهب إلى القدس ثم عاد منها إلى الد فهدمها كذلك ، كما هدم حصون النطرون . وغزة ، وغيرها من الحصون الواقعة على طريق يافا — القدس .

بدأ الملك ريكارد حديث الصلح مع الملك العادل ، ثم مع السلطان صلاح الدين فوافق على الشروط المبدئية، ولكن عندما أعلن هذا الخبر بين الصليبيين هاج قسسمهم ورفضوا، وتوقفت المفاوضات مؤقتا. واستمرت الحرب مع الحزب

الصليبي المعارض وهو حزب كونيارد الذي أرسل إلى صلاح الدين يطلب مصالحةً على قاعدة إعطائه صيداً وبيروت ، مقابل خروجه على الصليبيين وقيامه بمحاصرة عكا والقاء القبض على ريكارد وتسليمه إلى السلطان لكسب صداقته والإتفاق معه على قاعدة عامة للصالح .

والواقع أن صلاح الدين لم يخسر شيئاً بل كسب كسباً مادياً ومعنوياً ، لأن إطالة المفاوضات أتاحت الفرصة لوصول الإمداد من مصر في الوقت المناسب ، فضلاً عن أنها أحدثت الفرقة في معسكر الصليبيين .. غير أن ريكارد أراد أن يحاول محاولة حربية سريعة للاقترب من بيت المقدس . فزحف في ٢٢ نوفمبر من يافا شرقاً ، واحتل الرملة ثم وصل بيت نوبة يوم ٢٢ ديسمبر وبذلك أشرف على القدس ولم يستطع التقدم بسبب الأمطار ، وهجمات الأتراك على خطوط المواصلات الخلفية ، وأخيراً استقر رأى الملك على العودة إلى يافا فارتدت قواته إلى الرملة يوم ٨ يناير ١١٩٢ . أما صلاح الدين فانتقل من النطرون إلى القدس فوصلها يوم الجمعة ١٢ ديسمبر ١١٩١ وقدم عليه الأمراء وأخذ في تحصين مواقعه .

وتشاء الظروف ... فقد اغتيل كونيارد في فراشه بمدينة صور يوم ٢٧ أبريل ١١٩٢ ، فتخلص ريكارد من أكبر منافس له ، وأخذ في الزحف من عسقلان جنوباً إلى حصن داروم (بالقرب من رفح) وفتحه عنوة يوم ٢٢ مايو ١١٩٢ وهكذا أصبح الطريق أمام الصليبيين مفتوحاً إلى مصر ، إذا لم يدركهم صلاح الدين . وفعلاً عاد إلى عسقلان ليتجه إلى القدس يوم ٧ يونيو ، فوصل النطرون في اليوم التاسع ، ووصل بيت نوبة يوم ١١ يونيو ، وإلى قلونية يوم ١٦ يونيو . وفي ٢٣ يونيو هاجم الصليبيون قافلة مصرية عظيمة فنهبها وأسروا كثيرين من رجالها ، فتضاعفت قوة الصليبيين وصح عزيمتهم على القدس ^(١) .

ولما علم صلاح الدين وهو بالقدس خبر القافلة المصرية وعزم الصليبيين على استعادة القدس ، عقد مجلس الشورى (أول يوليو ١١٩٢) واتفق من حضره على دفع الصليبيين عن القدس وإفساد المياه الموجودة في ظاهر القدس حتى لا يبقى .

(١) نظير حسان السعداوى : المرجع السابق ذكره ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

حول المدينة ماء أو عشب ينتفع منه الصابيون . وبينما تجرى الاستعدادات العسكرية غير بعض أمراء صلاح الدين أراءهم ، على أن الأقدار شاءت أن تنقذ السلطان ، فقد وصلته الأنباء بأن الصليبيين لم يتفقوا فيما بينهم على استرداد بيت المقدس وقرروا الرحيل إلى حيث أتوا . ومما يدهش أن ريكارد كان ينوى إعداد حملة لغزو مصر . وعلى أى حال ، فلم يغب عن تفكير صلاح الدين ذلك المخطط الصليبي ، فأرسل إلى مصر للاستعداد لصد أى حملة توجه إليها . وبينما كان ريكارد يزحف نحو بيروت ، غادر صلاح الدين بيت المقدس (٢٣ يولييه ١١٩٢) قاصداً يافا ، فوصلها في ٢٨ يولييه ورتب قواته ، وفي اليوم التالي بدأ الزحف عليها ، وعمل النقبون في أسوارها وصوبوا المجانيق ، واستمر القتال خارج أبواب المدينة إلى يوم الجمعة ٣١ يولييه ، ثم أشعلوا النار في الثغرات التي أحدثها النقبون وزحفوا عليها من جميع الجهات ، ودخلوا يافا عنوة وسلمت حاميتها .

استؤنفت مفاوضات الصلح بين الجانبين ، وكانت عسقلان حجر عثرة في تلك المفاوضات حتى نزل ريكارد عنها وعن طلب العوض عنها وصح عزمه في الصلح . وتمت هدنة عامة برأ وبحراً بين المسلمين والصليبيين ، وانتظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع وثلاث أيام وثلاث ساعات على قول بعض المؤرخين . وقد عرف هذا الصلح بصلح الرملة ، ومن شروطه :

أن يكون للصليبيين يافا وعملها عدا الرملة واللد ومجد ليا ، وقيسارية وأعمالها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها عدا الناصرة وصفورية ، وتكون بلاد اللد والرملة مناصفة بين الفريقين ، وأن تخرب عسقلان ، وأن تدخل بلاد الاسماعيلية وانطاكية وطرابلس في الصلح . وأن يسمح للمسيحيين بزيارة القدس ، وأن يتاجر كل من المسلمين والمسيحيين في بلاد الآخر .

وقع كل من صلاح الدين وريكارد على وثيقة الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها . ثم أبحر ريكارد من عكا يوم ٩ أكتوبر ، وعاد الجنود المسلمون

إلى بلادهم بينما عاد صلاح الدين والعاقل معاً إلى القدس فوصلها في ١٢ سبتمبر ١١٩٢، وأمر بإجراء عدة إصلاحات في المسجد الأقصى. وفي ١٤ أكتوبر خرج من القدس ونزل على نابلس ثم رحل إلى بيسان وأمر بتعمير قلعتها ثم نزل بظاهر طبرية وخرج منها إلى قلعة صفد، ثم مر على قلعة هونين ومرج عيون وحط رحاله أخيراً ببيروت حيث تلقاه واليها عز الدين أسامة يوم ٢٩ أكتوبر، وفيها التقى ببيهموند صاحب أنطاكية وصالحه عليها مقابل ١٥٠٠٠ دينار سنوياً ثم رحل صلاح الدين إلى دمشق.

وفي دمشق مرض صلاح الدين وصعدت روحه الطاهرة قبل شروق الأربعاء سابع عشر من صفر سنة ٥٨٩ هـ / ٤ مارس ١١٩٣ وله من العمر ٥٧ سنة، فكانت وفاته خسارة فادحة للعرب والمسلمين. ودفن في قلعة دمشق وبعد ذلك شيد لإبنه الأفضل مقبرة خاصة شمال الجامع الأموي بدمشق ونقل إليها جثمان السلطان سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥



قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي في دمشق

الفصل السادس

الجيش بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي

١ - معركة دمياط

(٦١٥ - ٦١٨ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢١ م)

كانت المائة السابعة للهجرة (المائة الثالثة عشر للميلاد) مشحونة بأنباء غزو الفرنج للشام والثغور المصرية ، فطلّاع جيوشهم كانت تطرق موانئ هاتيك البلاد بين حين وآخر ، ولكنهم يصدون عنها بفضل المآصر البحرية^(١) ذات السلاسل الحديدية المحكمة الصنع ، والأبراج المنيع ، ويردون من حيث أتوا .

كان المؤرخ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) من المؤرخين الذين نقلوا اليها خبر حصر الفرنج مدينة دمياط واستيلائهم على سلسلة مينائها . وسننقل ما قاله :

لما عاد الفرنج من حصار الطور ، أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨) ، فساروا في البحر إلى دمياط ، فوصلوا في صفر ، فأرسلوا على بر الجزيرة^(٢) بينهم وبين دمياط النيل ، فإن بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط ، وقد بنى في النيل برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها في النيل إلى سور البرج لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد في النيل إلى ديار مصر . ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت

(١) المآصر سلسلة أو جبل يشد معترضا في النهر أو البحر يمنع السفن من المضي إلى حصون الميناء أو قلعتها . وكانت الثغور ذات المآصر تتمتع من جهة البحر بسلام لا يضارعا فيها إلا تلك المدن التي تحيطها الأسوار . أنظر: ميخائيل عواد : المآصر في بلاد الروم والاسلام . مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٨ .

(٢) الجزيرة في اللغة هي الناحية وجانب الوادي .

مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها من أقاصى ديار مصر وأدانيها . فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبين دمياط النيل ، بنوا عليهم سوراً وجعلوا خندقاً يمنعهم ممن يريدهم ، وشرعوا فى قتال من بدمياط ، وعملوا آلات وممرات (مراكب كبيرة) وأبراجاً يزحفون فيها فى المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه . وكان البرج مشحوناً بالرجال . وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل ، وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادية جنوب دمياط ، والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدو من العبور إلى أرضها ، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منه بشيء ، وكسرت ممراتهم وآلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ، ثم بعد ذلك ملكوه وقطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح فى النيل ويتحكموا فى البر ، فنصب الملك الكامل عرض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل ، ثم انهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً حتى قطعوه ، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملاًها وخرقها وغرقها فى النيل فمنعت المراكب من سلوكه (١)

ويعتبر شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى المعروف بأبى شامة (ت ٥٦٦ هـ) من أولئك المؤرخين الذين اتصلوا بأمور هذه الحرب ، ووقفوا على كثير من أحداثها وأنبائها وقد وصف برج السلسلة فى ميناء دمياط خير وصف لأنه رآه رأى العيان ، وأفاض فى رواية استيلاء الفرنج على هذه السلسلة ، بقوله :

« وفيها (سنة ٦١٥ هـ) أخذ الفرنج النازلون على دمياط ، برج السلسلة فى آخر جمادى الأولى ، فأرسل الكامل إلى العادل شيخ الشيوخ يخبره ويستصرخ به ، فلما اجتمع العادل ، فأخبره ، فدفق بيده على صدره ومرض مرض الموت .. قالت .. سمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه ، فقال : هو

(١) الكامل فى التاريخ (١٢ : ص ٢١٠ — ٢١١ ط أوروبا ، ١٢ : ص ١٣٣ ط بولاق) .

قفل الديار المصرية ، وصدق . فإنى لما رأيته في سنة ١٢٨ (١٢٣٠) ، كما سيأتى ذكره ، بان لى صحة ما أشار الشيخ على بن محمد السخاوى إليه ، وذلك أنه برج عال ، بنى وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه ، وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى الجيزة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها ، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان والله المستعان ^(١) .

هذا ما جاء فى أهم المصادر العربية بإيجاز ، ولنتقل إلى شرح مراحل هذه المعركة .

ركب الفرنج بجمعهم البحر وانطلقوا إلى دمياط فى صفر ٦١٥هـ (١٢١٨) ، فنزلوا بعد أيام عليها ، وهم فى نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف من المشاة . بقيادة حنا دى برين ملك بيت المقدس ^(٢) ، وخيموا فى الشاطئ الغربى للنيل . تجاه دمياط (القديمة) ، وحفروا حول جنودهم خنادق ، وأقاموا عليها سوراً ، ومن ثم أخذوا فى قتال حامية برج دمياط .

فى ذلك الوقت كان على ضفتى النيل عند دمياط برجان منيعان ، وبينهما سلاسل غليظة من الحديد (ماصر) ، تمتد عبر النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المتوسط من عبور ديار مصر . وكان فى هذين البرجين حامية قوية ، ولا يزال مكانهما يعرف حتى اليوم باسم « بين البرجين » .

(١) الذيل على الروضتين لأبى شامة : ص ١٦٠ ، القاهرة ١٩٤٧ . انظر أيضاً : شمس الدين الذهبى : دول الإسلام ، ج ٢ ص ٨٨ ط حيدر أباد عام ١٣٣٧هـ والمقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٤٩ ، وعنه نقل على باشا مبارك فى خططه : ج ١١ ، ص ٣٦ - ٣٨ . والمقريزى : السلوك فى حوادث ٦١٥هـ ، ص ١٨٨ - ١٩٤ ، ١٩٥ .
(٢) يرجع أن هذه الأرقام التى ذكرها المؤرخون العرب مبالغ ، فإن المكان الذى نزلت فيه الحملة لا يتسع لإيواء هذا العدد الضخم فضلاً عن صعوبة تموينه .

تقدم الفرنج غربى النيل لقتال أهل دمياط ، وصنعوا آلات وممرات وأبراجاً حملوها على السفن إلى البرج الرئيسى لملكوه حتى يتم لهم الاستيلاء على دمياط ، فخرج الكامل على رأس جيشه (٥ ربيع الأول ٦١٥ هـ - يونيو ١٢١٨) بعد أن طلب من والى الغربية بأن يمدّه بمجموع العربان ، ثم تقدم الأسطول المصرى فى اتجاه جنوب دمياط . ثم وصل الملك الكامل إلى ناحية العادلية جنوب دمياط ، وسير القوات لمنع الفرنج من العبور ، وصار يركب فى كل يوم ولأكثر من مرة من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور وعرقلة أعمال الغزاة . ولكن حامية دمياط صمدت فى قتال الأعداء فلم يظفروا بشيء ودمرت مرماتهم .

ظل الحال دلى ذلك أربعة أشهر ، بينما كان العادل يجهز جنود الشام شيئاً بعد شيء ، ويرسلها إلى دمياط حتى أصبح لدى ابنه الكامل عدد وفير من المتحاربين . وفى خلال تلك الأحداث مرض الملك العادل فى سورية ومات (أغسطس ١٢١٨) عن خمس وسبعين سنة ، فخلفه ابنه الملك الكامل سادس ملوك مصر من الأيوبيين .

ذكرنا أن الفرنج نزلوا على الشاطئ الغربى للنيل ، فرأى الكامل أن يسد مجرى النيل فى وجههم وحاول إقامة جسر عظيم يعترض الجرى ، ولكن الفرنج قطعوا الجسر ، فلبأ الكامل إلى عدة مراكب وملاؤها ثم أمر بحرقها وإغراقها فى النيل لتعوق تقدم السفن الصليبية . ولكن الصليبيين تغلبوا على تلك الصعوبة . فلبأوا إلى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجرى فيه قديماً ، فحفروه حفراً عميقاً وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط ، وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلت إلى موضع يقال له بورة^(١) يقابل العادلية حيث أقام الكامل^(٢) ، وبذلك أصبح فى استطاعة الصليبيين الهجوم على المعسكر الأيوبي عن طريق البحر .

(١) بلدة تقع بالقرب من ساحل البحر المتوسط فى شمال غرب دمياط ، وينسب إليها السمك البورى المعروف بمصر . ويصل بين بورة والعادلية الخليج الأزرق .

(٢) المريزى : السلوك ٢ ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

وبالرغم عن سقوط برج السلسلة في أيدي الفرنج فقد ظنوا أن كل شيء أصبح متيسرا لديهم، ولذلك انسحب بقسم كبير من الفرنج ليعودوا إلى بلادهم، ومن ثم صار حنا دى برين ينتظر وصول إمدادات جديدة. وقد وصلت فعلا في سبتمبر ١٢١٨ صحبة الكاردينال بلاجيوس مندوبا عن البابا وقائدا أعلى للصليبيين في حملتهم تلك على مصر، وأخذت القيادتان — حنا دى برين وبلاجيوس — تتنازعا وتنافسان ! .

وفي ٩ أكتوبر ١٢١٨ قام الملك الكامل بمهاجمة معسكر الصليبيين في بورة بمواجهة دمياط، فعبز النيل على رأس أربعة آلاف من رجاله وقام بهجوم مفاجيء على المعسكر الصليبي، ولكن الصليبيين كانوا على حذر فصمدوا وتغلبوا على المصريين، وقد اضطر الكامل ورجاله إلى التراجع إلى الضفة الشرقية للنيل. بعد ما تكبدوا خسارة كبيرة. وقد أراد الفرنج أن يعبروا إلى الضفة دمياط ولكن باءت محاولتهم بالفشل. وقد زاد موقف الكامل سوءا أن قبائل البدو نزحت من سيناء والشرقية لتستفيد من حالة الفوضى التي أعقبت نزول الصليبيين بالدلتا، فقطع البدو الطرق وأغاروا على القرى ونهبوها فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج.

وكان الشتاء قد حل . . . فإذا بالبحر يهيج على معسكر المسلمين ويفمره بالماء. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ألح الفرنج في القتال ليحققوا غرضهم في الاستيلاء على البلاد. وفي هذه الآونة اندلعت بين رجال الكامل فتنة أثارها حماد الدين المعروف بابن المشطوب، بين أتباعه لكي لا يعترفوا بالكامل سلطانا عليهم بعد أبيه، فوقع السلطان في حيرة من أمره وأوجس خيفة على ملكه. فترك العادلية إلى قرية أشموم طناح^(١) وأصبح الجند دون سلطان وساد الهرج

(١) أشموم طناح بلدة مصرية قديمة تقع على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير الذي كان يعرف باسم بحر أشموم نسبة إلى هذه البلدة وكان اسمها المصري القديم شمون أرمان وسميها العرب أشموم طناح نسبة إلى كورة طناح التي كانت تقع أشموم في دائرتها وتعرف اليوم باسم شمون الرمان وهو اسمها القديم عرفا.

بينهم ثم غادروا معسكرهم دون نظام ، ولا نعرف هل كان هذا الانسحاب خطة مدبرة وضعها أمراء الجيش لكي يدخلوا في رؤس الفرنج انهم يتقهقرون ! ومهما يكن من الأمر ، فإن الفرنج علموا في يناير ٢١٩ بما كان من أحوال المسلمين ، فعبروا النيل إلى شاطئ دمياط الشرقي بسلام ، وغنموا ما في معسكر المسلمين .. وكاد الكامل بهم بمفادرة البلاد ولكنه تمكن من الثبات في مكانه والتف حوله رجال الجيش . وبعد يومين وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وهو بأشموم ، فقويت به شوكته .

أحاط الفرنج بدمياط برأ وبجراً ، وضيقوا على أهلها ، ومنعوا وصول الأقوات إليهم وحفروا خندقاً حول معسكرهم المحيط بدمياط وشيدوا عليه سوراً ، وظل أهل دمياط يقاتلونهم أشد قتال ويقاومون الفرنج مع قلة الأقوات عندهم على حين كان الكامل يقاتل الفرنج الذين حالوا بينه وبين دمياط . فلم يصل إليها أحد من لدنه سوى رجل من الجاندارية يسمى « شمائل » كان يخدم في ركاب السلطان « جاندارا » ، وكان يخاطر بحياته ويسبح في النيل بين سفن الأعداء المتناثرة على ظهر الماء ، غير عابئ بشيء ما إلى أن يدخل دمياط ، ويعود إلى السلطان حاملاً أنباء أهلها ، بعد أن يكون قد عمل على تدعيم الروح المعنوية بينهم ، ويطمئنهم بقرب وصول النجيدات ، فلا عجب أن نال حظوة لدى الكامل .

ومع ذلك فقد زاد ضغط حصار الفرنج على دمياط ، وحالوا دون وصول الامدادات إليها ، والدمياطيون يزدودون عن حماها ويصدونهم منها وقد نفذ ما عندهم من المؤن . وإذا أقبلت سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩) بلغت الحال بالدمياطيين حداً لا يحتمل ، وطرق المسلمون أبواب الحيلة لكي تصل الأطعمة إلى دمياط وقد قيل في هذا الصدد أنهم كانوا يأتون بجمل ويشقون جوفه ويملاونه بالطعام ثم يخيطون جلده ويلقون به في النيل ، فيسير منحدرًا مع التيار حتى يصل إلى دمياط ، فيأخذه الدمياطيون . فما عرف الفرنج شيئاً من هذه الحيل حتى

كانوا يحبطونها . وظل المسلمون يحاربون من داخل دمياط ومن خارجها ، والصليبيون يوالون الهجمات ، حتى أمر الكاردينال بلاجيوس أن يهجموا عليها براً وبحراً دفعة واحدة .

وثبت الفرنج السلام على أسوار دمياط ، وجاهد المسلمون ليحبطوا الحصار . فأحرقوا تلك السلام فقتلوا وأغرقوا من الفرنج عدداً عظيماً ، ولكن ذلك كله لم يجد أمام كثرتهم ، وأراد الكامل أن يخفف وطأة هجوم الفرنج على دمياط . فهجم على مخيمهم ليصرفهم عنه ، ونجحت الفكرة وعاد بعض جنودهم عن دمياط لمواجهة الميدان الجديد ، وأصبحت الحرب شديدة الوطأ في ميدانين - بين الدمياطيين والفرنج من جهة ، وبين هؤلاء والكامل من ناحية أخرى .

وأخذ الدمياطيون في محنتهم يتفاهمون مع رجال الكامل كلما ضيق الفرنج عليهم بأن يصعدوا إلى أعلى البرج ، ويوقدون النار قراها جنود السلطان فيعلمون أن أهل المدينة في ضيق . فيهجمون على مخيم الفرنج فيرتد هؤلاء عن محاربة المدينة ليحاربوا جنود السلطان .

استيلاء الفرنج على دمياط

وأخيراً لم تتمكن دمياط الباسلة المقاومة .. فتسور الفرنج الأسوار واستولوا على المدينة يوم الثلاثاء ٢٤ شعبان ٦١٦ هـ (أكتوبر ١٢١٩) فكانت مدة الحصار ستة عشر شهراً وإثنين وعشرين يوماً . وحينما استولوا على دمياط أعمالوا السيف في الناس وتجاوزوا في ذلك حداً يقف منه التاريخ جازعاً ، وحولوا مسجد أبي المعاطي إلى كنيسة سموها كنيسة القديسة مريم ، وظلت هكذا إلى أن استرد المسلمون دمياط .

وبعد ذلك بيومين رحل الكامل مع قواته أمام طلغا على رأس بحر أشموم^(١) دمياط ، وخيم بالمنزلة التي عرفت بالمنصورة^(٢) والبحر المذكور يحول عينه وبين الفرنج .

(١) يعرف اليوم بحر أشموم باسم البحر الصغير أحد فروع الرى الشهيرة بالدقهلية
(٢) المنصورة أنشأها الملك الكامل منزلة لمسكره وسمّاها المنصورة ، تيمناً بانتصاره =

بدأ الفرنج في تحصين دمياط ثم أخذوا يستعدون للاستيلاء على القاهرة فنازلوا الكامل عند المنصورة وصار بينهم وبين جيش المسلمين بحر أشموم وبحر دمياط في مائتي ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس على ما ذكرت المراجع العربية وهو رقم يظهر فيه المبالغة .

حشد الكامل مائة قطعة من السفن تجاه المنصورة : وفي تلك الأثناء زاد القلق في القاهرة وسائر أنحاء البلاد . ثم وصل الأمير حسام الدين يونس ، والفقيه تقي الدين طاهر الحلبي لدعوة شعب بالقاهرة ومصر إلى الجهاد ، فلقيت الدعوة من الجماهير حماسة وأقبلوا يتجمعون لإستعداداً للسير إلى الجهاد .

أما الكامل فقد بدأ في إعداد الخط الثاني للقتال ، وحشد ألفي فارس ، وآلاف من العربان بالقرب من شار مساح^(١) وسارت السفن ومعها حراقة كبيرة إلى رأس بحر المحلة^(٢) وعليها الأمير بدر الدين بن حسون ، وبذلك انقطعت مواصلات الفرنج برأ وبحراً .

وفي ذلك الحين قدمت النجيدات من الشام ، كما وصلت الإمداد للفرنج واستعد الجانبان للمعركة المقبلة .

كانت أولى النجيدات الاسلامية التي قدمت نجدة الملك الأشرف موسى . ابن العادل ، فالملك المعظم عيسى ، والمنصور صاحب حماة ، والناصر صلاح الدين قلعج أرسلان ، والمجاهد صاحب حمص ، والأبجد بهرام شاه صاحب بعلبك وغيرهم ، فكان لهذه النجيدات أثر في تغيير الوضع الحربى .

بدأ قدوم تلك النجيدات في ١٣ جمادى الآخرة عام ٦١٨ هـ (يوليو ١٢٢١)

== على الفرنج ولم يزل بها حتى استرجع دمياط ، فصارت المنصورة بعد ذلك مدينة كبيرة بها المساجد والحمامات والفنادق والأسواق (الخطط المقيزية ج ١ ص ٢٢١)

(١) شار مساح قرية بالدقهلية تقع على فرع دمياط شمال شربين وبينها وبين دمياط خمسة كيلو مترات .

(٢) بحر المحلة ترعة تتفرع عن بحر ملبج الذى يخرج من فرع دمياط عند بلدة ميت عطار قرب بنها الحالية ، وكان يخرج بحر المحلة جنوب بلدة طفت ثم يسير نحو الشمال الغربى ومارا بالهياتم وبلقينة حتى يصب في فرع دمياط قبالة شار مساح على الشاطئ الآخر .

وتتابع وصبوها حتى بلغ عدد فرسان المسلمين حوالى ٤٠٠٠٠ ، فحاربوا الفرنج برا وبحرا ، وأخذوا منهم ست شوان وجلاسة (سفينة حربية كبيرة) ، وبطسة (سفينة حربية كثيرة القلاع) ، وأسروا منهم أيضاً ألفين ومائتى رجل ، فتطمع الفرنج نتيجة تلك الخسائر وبعثوا يسألون المفاوضات .

استمرت المفاوضات بين الجانبين فى منزلة المنصورة حيث كانت قوات الفرنج تتقدم أحياناً . ولكن انقضت السنة والفرنج يقاومون المسلمين عند رأس بحر أشموم ودمياط مقاومة عنيفة ، مما دعا الكامل إلى متابعة الرسل فى طلب النجدة من البلدان الشقيقة ، فكانت تصل إليه باستمرار ، واشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً ، وكانت العامة تكرر على الفرنج بشدة ، فى حين تقدمت فصائل الجند إلى بحر المحلة من الشاطئ الغربى للنيل وقاتلوا الفرنج . وزحفت السفن الاسلامية فى النيل للاشتباك مع سفن الفرنج ، وتمكنت الأولى من أن تستولى من الثانية على ثلاث قطع برجالها وأسلحتها .

وبينما كانت تدور رحى القتال ، وصل الرسل من جانب الفرنج فى طلب الصلح بشروط منها أن يستردوا القدمى وعسقلان وطبرية وجبله واللاذقية ، وما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل . فوافق أمراء المسلمين على التنازل عنها ما خلا الكرك والشوبك ، فأبى الفرنجة قائلين : لانسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله . فرفض الكامل وأجاب زعماء الفرنج : « لا بد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس مع أخذ ما ذكر من البلاد ، واسترداد الكرك والشوبك أيضاً .

فلما فشلت المفاوضات استؤنف القتال ، ثم عبرت جماعات من المسلمين بحر المحلة إلى الأرض التى أقام عليها الفرنج مخيماتهم ، وفتحوا ثغرة كبيرة فى شاطئ النيل وكان فى أقصى الفيضان . وكان الفرنج فى غفلة لا يدركون ماذا يصنع المسلمون . فلم يشعروا إلا والماء قد غطى أكثر الأراضى التى اتخذوا فيها موقفهم . وصار حائلاً بينهم وبين دمياط . بل أصبحوا وليس لهم منفذ يسلكونه سوى طريق واحد ضيق . وهذا الموقف هو الذى تصوره الكامل ورجاله

للجيش الصليبي. فأمر في الحال بوضع الجسور عند بحر أشموم طنح ، وسرعان ما عبر الجنود المسلمون عليها ، واستولوا على الطريق التي تسلكها الفرنج إلى دمياط ، فأحاط بالصليبيين الماء من كل جانب . وتصادف مرور مرمة (سفينة) كبيرة في النيل للفرنج وحولها عدة حركات تحميها كانت محملة بالسلح والمؤنة فنشبت معركة بحرية ، إلتصر فيها المسلمون واستولوا على المرمة والحراقات . فت ذلك في نفوس الفرنج ، وألقى الرعب في قلوبهم وتوقعوا الفشل ، وكانت جنود البر ترميهم بالقذائف السهامية ، فاختلف صفوفهم ، ولكن ما لبثوا أن جمعوا جموعهم وعزموا على أن يحملوا حملة صادقة على المسلمين ، فلم يوفقوا لكثرة الوحل والمياه التي ركبت الأرض حولهم ، وعجزوا عن المحافظة على مواقعهم وركنوا إلى طلب الصلح ، وبعثوا يسألون الكامل وإخوته الأمان على أن يسلموا دمياط دون عوض .

رأى الكامل إجابة الفرنج ، بيد أن إخوته رأوا القضاء عليهم والتخلص من شرهم . فخشى الكامل إن فعل ذلك ، أن يمتنع من بقى من الفرنج في دمياط ولا يسلمونها ، وأن يحتاج الحال إلى مواصلة القتال فترة طويلة . لأن الفرنج بعد ما استولوا على دمياط زادوا في تحصينها .

وحافظ الكامل على تأمين الفرنج إلى أن وافقه بقية الملوك ، بشرط أن يبعثوا برهائن من ملوكهم - وليس من أمراءهم - إلى أن يسلموا دمياط في مقابل أن يأخذوا ابن الملك الكامل لديهم رهينة إلى أن تعود لهم رهائنهم . وعلى هذا أقسم ملوك المسلمين والفرنج .

وبعد أيام أرسل الفرنج عشرين من ملوكهم رهنا ، كان فيهم حنا دى برين ونائب البابا وأرسل الكامل إليهم إبنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وله من العمر خمس عشرة سنة ومعه جماعة من خواصه .

وعند ما أقبل ملوك الفرنج عقد لهم الكامل مجلساً عظيماً ، ووقف الملوك من إخوته وأهل بيته بين يديه بخارج البرمون^(١) في يوم الأربعاء التاسع عشر من رجب ٦١٨ هـ (سبتمبر ١٢٢١) ، فهاج الفرنج ما شاهدوه . وقدمت قسوس

(١) البرمون البحرى والقبلى وكلاهما شمالى بحر تنيس بين المنصورة وشرين

الفرنجة و رهبانهم إلى دمياط ليسلموها إلى المسلمين ، فقسامها هؤلاء في اليوم المذكور . . . ولما دخل المسلمون دمياط تبينوا مناعة التحصينات التي أقامها الفرنجة حتى أصبح الإستيلاء عليها بالقوة شيئاً عسيراً . ثم تبادل الفريقان الرهائن . فعاد الملك الصالح ومن كان معه من حاشيته وقرر الهدنة بين الصليبيين والمسلمين مدة ثمانى سنوات ، على أن يطلق كل من الفريقين من في حوزته من الأسرى . وحلف الكامل وإخوته كما حلف ملوك الفرنجة على ذلك . ثم رحل الفرنج عن دمياط بعد أن ظلت في قبضتهم سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً ، فدخلها الملك الكامل بجنوده وأهله بين معالم الفرح والابتهاج وعمت البشرية وتوالت تهنئته الشعراء .



خط سير حملة حنادى برين ضد مصر خلال ١٢١٨ / ١٢٢١ م

٢ - معركة غزاة الأولى وغزاة الثانية

(١٣ نوفمبر ١٢٣٩ - ١٧ أكتوبر ١٢٤٤)

ظلت بيت المقدس منذ نجاح الأمبراطور فردريك الثاني في استردادها باتفاقه مع السلطان الكامل وبموجب صلح يافا سنة ١٢٢٩ حتى غزاها الخوارزمية سنة ١٢٤٤ مدينة مفتوحة غير محصنة ، وكان من حق المسلمين أن يدخلوها ويشرفون على أما كنهم الدينية داخلها ، كما أن حكومة مملكة بيت المقدس الصليبية لم تنزع إليها كعاصمة عقب هذا الصلح واستمرت تتخذ عكا قاعدة لها .

ونلاحظ في خلال الربع الثاني من القرن الثالث عشر جهود الأيوبيين أمام الصليبيين في الشام ، فلم يحاولوا استغلال الظروف السيئة التي أصبح فيها الصليبيون بعد أن عاد فردريك الثاني إلى الغرب دون ملك قوى برعى مصالحهم ، ولم يفكروا في استرداد بيت المقدس رغم بقائها غير محصنة . ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك التردد والإحجام ، تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي . وقد دأب هؤلاء على تهديد الخلافة العباسية في بغداد ، ومحاكاة المغول في تدميرهم البلاد التي يجتاحونها حتى ولو كانت هذه البلاد إسلامية . وقد أفرغت همجية الخوارزمية حكام المسلمين في البلدان المجاورة ، وتحالف الأيوبيين مع عدوهم علاء الدين كقباد الأول سلطان السلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمي . وانتصروا عليه وتمزقت دولته (١٢٣١) ، وهامت جموع الخوارزميين في كثير من بلدان الشرق الوسيط يعرضون خدماتهم على من يرغب في شرائها من حكام المسلمين^(١) .

ومع ذلك فإن الخطر ما زال باقياً ، يتمثل في جحافل المغول ، الذين واضلوا نشاطهم ، ففتحوا بلاد فارس سنة ١٢٣١ وأصبحت خطوتهم التالية وضع أيديهم على العراق وتهديد أملاك الأيوبيين في الجزيرة وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى . ثم عاد العداء مرة أخرى بين سلاجقة الروم والأيوبيين ، ولم يلبث أن انقسم

(١) محمد سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٢٨ - ١٠٣ - القاهرة ١٩٣ -

البيت الأيوبي على نفسه، فانشق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر السلطان الكامل وبدأ يدبر ثورة شاملة ضد الكامل مستعيناً في ذلك بصاحب حمص . على أن الظروف شاءت أن يموت الملك الأشرف (١٢٣٧) صاحب دمشق قبل نشوب الحرب الأهلية بين أبناء البيت الأيوبي ^(١) . ثم خلفه شقيقه الصالح حماد الدين إسماعيل وسرعان ما أعاد تكوين الحلف الأيوبي ضد الكامل . علم الكامل بتلك الحركة المدبرة ضده ، فأسرع بالحضور من مصر وحاصر دمشق وقطع عنها المياه في أواخر عام ١٢٣٧ وأوائل ١٢٣٨ فاستسلمت له المدينة وعزل الصالح حماد الدين إسماعيل عن دمشق وأعطاه إقطاعاً صغيراً . ولم يلبث السلطان الكامل أن توفي بعد قليل (أوائل مارس ١٢٣٨) . وجاءت وفاته نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية ثم انهيارها .

وخلف الكامل ابنه العادل الصغير (الثاني) ، بيد أن سرعان ما وقع في نزاع مع أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل . . . وانضم المواليون إلى كل فريق منهما ، أضف إلى ذلك فريق الصالح إسماعيل الذي حكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠ - ١٢٤٥) . . . ثم استطاع الأمراء عزل العادل الثاني (مايو سنة ١٢٤٠) واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب الذي دخل القاهرة في ١٩ يونيو سنة ١٢٤٠ ليصبح سلطاناً على مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٩) . ومع ذلك فقد بدأت صفحة جديدة من النزاع بين هذا السلطان وعمه الصالح إسماعيل ملك دمشق . . . الذي أوقع الدولة الأيوبية في حالة شديدة من الفوضى . . . في الوقت الذي تعرضت الشام فيه لغزو جموع الخوارزمية من ناحية وتهديد المغول من ناحية ثانية ، ثم مجيء حملة صليبية إلى الشام من ناحية ثالثة .

معركة غزة الأولى (١٩ نوفمبر ١٢٣٩)

ولتبدأ الكلام بتلك الحملة الصليبية الفرنسية التي تزعمها ثيودوت الرابع . فقد وصلت إلى عكا عام ١٢٣٩ وكان على رأس ألف وخمسمائة فارس عدا

(١) محمد سعيد آشور: المصدر السابق من ١٠٣١ - ١٠٣٢ .

المشاة. ولم تتفق كلمة قادتها على الخطة العسكرية، ثم استقر رأيهم على أن يقصدوا عسقلان أولاً لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها ، وبعد ذلك يقصدون دمشق. لا نزاعها من المسلمين . وسرعان ما بادر الصالح إسماعيل إلى تحصين دمشق ، في الوقت الذي أرسل فيه العادل الثاني جيشاً كبيراً من مصر إلى غزة للدفاع عن عسقلان^(١) . غادر الصليبيون عكا في أوائل نوفمبر قاصدين عسقلان في طريق يافا. وفي الطريق انشقت جماعة من الصليبيين المغامرين للاسراع إلى الاستيلاء على غزة للحصول على ما يفتومونه وحدهم . فتمزقت تلك الحملة الصليبية على يد المسلمين قرب غزة في ١٣ نوفمبر ١٢٣٩ ، وقتل منهم ألف وثمانمائة ، وأسر بعض زعماء الصليبيين وأمرائهم فضلاً عن ٢٥٠ راجلاً سيقوا إلى القاهرة .. وعند ما وصلت أنباء تلك الكارثة إلى بقية الجيش الصليبي عند عسقلان ، اضطرو الصليبيون إلى الانسحاب في ١٤ نوفمبر إلى يافا ، ومنها إلى عكا^(٢) .

وفي صيف عام ١٢٤٠ تمت مؤامرة عزل العادل الثاني من حكم مصر وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدله في السلطنة (١٩ يونيو ١٢٤٠) ، كما أشرنا فيما سبق . . ولكن استاء من ذلك الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، ولم يجد سوى أن يستعين بالصليبيين . فطلب محالقتهم ضد الصالح أيوب في مصر والناصر داود في الأردن ، وفي مقابل ذلك تعهد الصالح إسماعيل بإعطاء الصليبيين مدينة بيت المقدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن . وبإدراج فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان ، وقلعة الشقيف أرنون وأعمالها ، وقلعة صفد وبلادها . . الخ . وسرعان ما ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل ، وندد العلماء بمسلك هذا الرجل المشين .

ومع ذلك فقد امتنعت حامية قلعة الشقيف (أرنون) عن التسليم ؛ فاضطر الصالح إسماعيل إلى الحضور بنفسه لمحاصرة القلعة حتى سلمت الحامية وعندئذ عاقب أفرادها ! أما الصليبيون فقد أسرعوا إلى استلام القدس ؛ ثم رابطوا

(١) محمد سعيد عاشور : المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٣٥ — ١٠٣٦ .
(٢) تعرف هذه المعركة بمعركة غزة الأولى ، أما غزة الثانية فسيرد الكلام عنها بعد صفحات .

بعد ذلك بين يافا وعسقلان ، وحشدوا بعض قواتهم صوب غزة وساندهم بعض قوات الصالح إسماعيل ! ولكن لم تقبل هذه القوات الشامية فكرة مخالفة الصليبيين ضد إخوانهم المصريين ، فلم يلبثوا أن انقضوا عن زعيمهم عند غزة . وانضموا إلى القوات المصرية ليشاركوا معاً في قتال الصليبيين فأسروا كثيرين . وهكذا كانت خيبة أمل الصليبيين كبيرة^(١) فانسحبوا إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٠ ثم بارحت الحملة عكا في ١١ أكتوبر ١٢٤٠ . ووجهت جهودها إلى دعم الحصون والقلاع لتأمين موقفهم في فلسطين ثم عادت من حيث أتت (١٢٤١) .

ومنذ ذلك الحين أخذت بوادر الشقاق تعصف بين صفوف الصليبيين ومع ذلك فقد واصلوا ، ولا سيما فرسان الداوية إعتداءاتهم على مدن المسلمين . كما استمر الصراع شديداً بين الصالح نجم الدين أيوب من جانب ؛ وبين الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الأردن في جانب آخر .
ساء الموقف الإسلامي : كل جانب يعرض التحالف مع الصليبيين . وفي ذلك الوقت ذاته عرض السلطان الصالح نجم الدين أيوب على الصليبيين مخالفته ضد صاحبي دمشق والأردن مقابل الثمن نفسه الذي عرضه هذان الملكان . .
وبذلك يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة : الصالح أيوب والصالح إسماعيل ؛ والناصر داود قد أقروا في تلك السنة ١٢٤٣ / ١٢٤٤ مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف ! الأمر الذي جعلهم فعلاً يسيطرون على تلك الأماكن الطاهرة ويسيطرون استخدامها ؛ ويؤذون شعور المسلمين .

ولم يقف الخطر عند ذلك الحد المتهين . فوقف الصليبيون في جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الأردن والمتصور إبراهيم ملك حمص ، وسرعان ما فكر هؤلاء الثلاثة في غزو مصر بمساعدة الصليبيين . فجمعوا قواتهم عند غزة ؛ وتمر المتصور بيكاليغري الصليبيين على مشاركتهم

(١) ذكر المقرئ أن الصالح نجم الدين أيوب استخدم أسرى الصليبيين في تلك المعركة في تمييز قلعة الروضة والدرسة الصالحية . بالقاهرة .

غزو مصر بعد أن مناهم ببلاد جديدة في الشام ؛ كما وعدهم بجزء من بلاد مصر . . أما الصالح أيوب سلطان مصر ، فلم يجد بداً في ذلك الموقف من الاستعانة بالخوارزمية ، مما أدى إلى تغير الموقف في بلاد الشام تغيراً سريعاً :

وأزاء ذلك الخطر الخوارزمي ، اجتمعت جموع الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وغيرهما وأنزلت بالخوارزمية أقبح هزيمة ، وتبدد شملهم واتقطع دابرهم ، وكان ذلك قرب الرها في أوائل إبريل عام ١٢٤١ وطردها جموع الخوارزمية من الأماكن التي احتلوها في الجزيرة ، وظل هؤلاء لا يجرؤون على دخول الشام حتى استعان بهم الصالح أيوب سنة ١٢٤٤ ضد ملوك دمشق والأردن وحمص الذين عزموا على غزو مصر بمساعدة الصليبيين .

ولم تكد دعوة الصالح نجم الدين أيوب تصل إلى الخوارزمية حتى اندفع عشرة آلاف منهم نحو بلادهم « الصليبية » فأغاروا على المدن والقلاع التي صادقتهم في طريق دمشق ، فأنهبوا صوب الجليل واستولوا على طبرية ، ثم على نابلس ، ومنها قصدوا بيت المقدس وهم ينهبون ويقتلون ويسلبون ، واقتحموا المدينة الجليلية في ١١ يوليو ١٢٤٤ واستولوا عليها في سهولة ، وخرج الفرنجة منها إلى يافا . أما كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المسيحية داخل القدس ، فقد اعتدى عليها الخوارزمية ، ودمروا وأتلفوا معظمها . وامل أهم ما حدث في تلك الحقبة ، كان عودة بيت المقدس إلى أحضان المسلمين ^(١)

معركة غزة الثانية (١٧ أكتوبر ١٢٤٤)

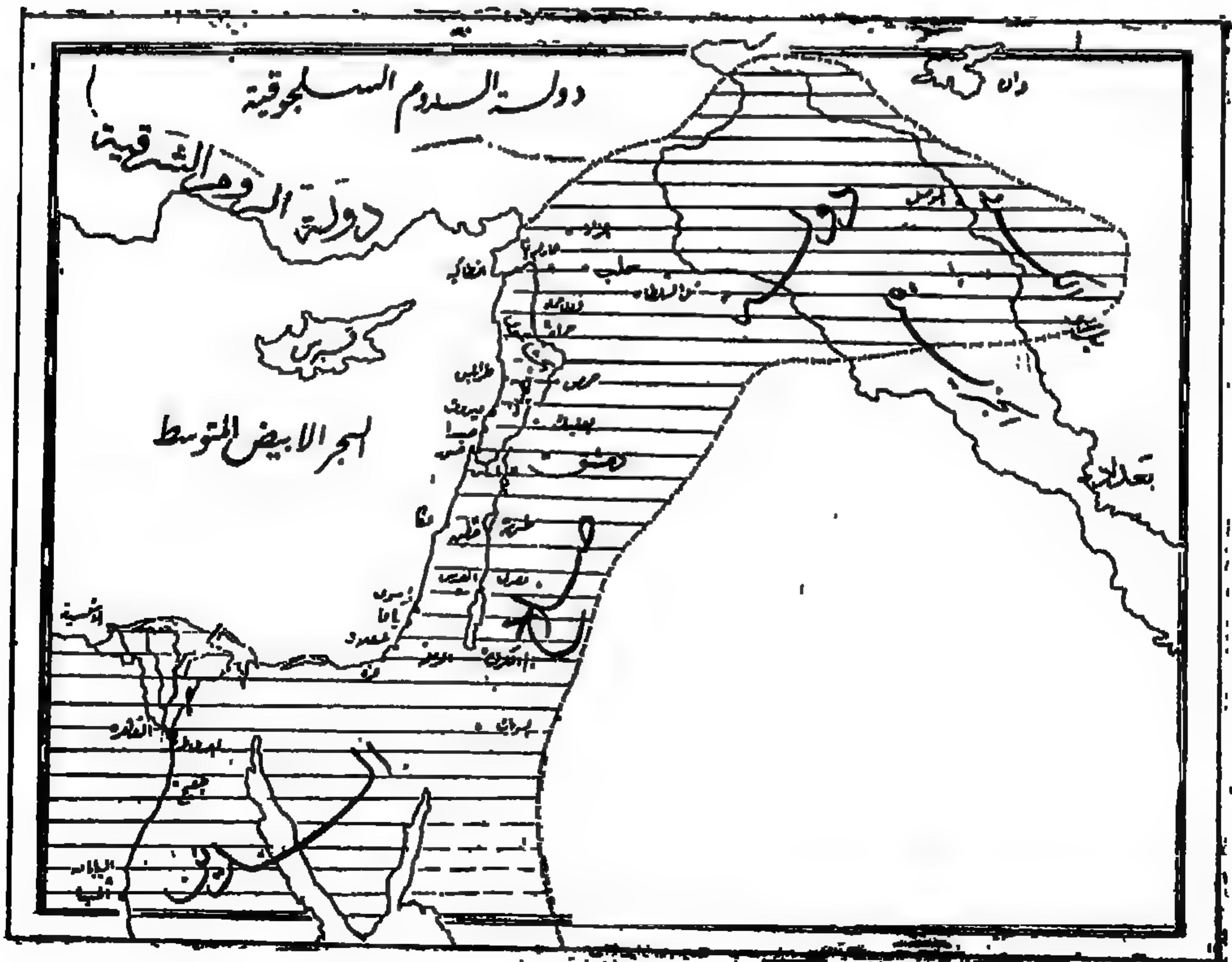
أخذ الخوارزميون يتجهون صوب غزة للانضمام إلى الجيش المصري الذي أرسله السلطان الصالح أيوب بقيادة القائد ركن الدين بيبرس الذي قبل بأن يتحالف مع الخوارزميين ، وكان ذلك في أكتوبر ١٢٤٤ .

ومما يؤسف له أن مؤرخينا لم يعنوا بتلك المعركة بما تستحقه من الاهتمام .

(١) محمد سعيد عاهور : الحركة الصليبية من ١٠٩٥ إلى ١٠٩٩ .



دولة صلاح الدين والدولة الصليبية في آخريات القرن ١٢



دولة صلاح الدين الايوبي

مع أن بعض المؤرخين أطلقوا عليها معركة « حطين الثانية » نظراً لأهميتها في تاريخ تلك المرحلة من التفكك الأيوبي ، وتعتبر فاتحة الانتصار العظيم على الحملة الصليبية السابعة التي دحرت في معركة المنصورة عام ١٢٥٠ وقد عني المؤرخ البريطاني ستيفن رانسمان بهذه المعركة وكتب عنها عدة صفحات (١)

تجمعت فرسان الصليبيين وقواتهم خارج غزة ، ثم انضمت اليهم جيوش حمص ودمشق تحت قيادة المنصور إبراهيم ملك حمص ، كما جلب الناصر جيش الكرك . وفي رابع أكتوبر ١٢٤٤ أخذت القوات المتحالفة تجمد السير إلى الجنوب وبمحاذاة شاطئ البحر . ومع أن الناصر ورجاله البدو كانوا مستقلين في سيرهم ، فإن الصفاء كان كاملاً بين رجال الفرنج وجنود المنصور إبراهيم وينبغي أن نقرر هنا حقيقة هامة وهي أن الجيش الصليبي وقتئذ كان أكبر جيوشهم عدداً بعد معركة حطين : فيليب مونتفورت وفرسانه الستمائة ، صاحب قلعة الشقيف وصيداء وأمير يافا (والتبرين) ، ورجال الاسبتارية والمعبدين بقيادة إثنين من زعمائهم وهما : أرماند بيريجور ، ووليم شاتونوف ، وكوكبة من الفرسان التيتون ، وفصائل كثيرة جاءت من جميع موانئ سورية .

اجتمع الجيش المصري بعد انتظامه للقتال أمام غزة بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس ، وكان يتألف من خمسمائة آلاف من الجنود المصرية المختارة . وجموع الخوارزمية . أما جيوش الأعداء فقد تجمعت في قرية حربية (٢) بالسهل الرمل الذي يمتد من شمال شرق غزة . . وكان ذلك يوم ١٧ أكتوبر ١٢٤٤ وسرعان ما عقد هؤلاء مجلس للشورى ، واقترح المنصور إبراهيم بأن يبقوا في أماكنهم ويحصنوها جيداً ضد أي هجوم يقوم به الخوارزميون . وكان

(١) Runciman, Steven : A History of the Crusades Vol. II1, p. 225 - 228.

(٢) في المراجع الصليبية أطلق على هذا المكان La Forbie المرحح السابق ص ٧٧٦ أنظر أيضا : Glubb

يظن أنه بمرور بعض الوقت فسوف يقصد الخوارزميون صبرهم ، وأضاف إلى ظنه أيضا أن الخوارزمية لا يميلون إلى مهاجمة المواقع المنيعه ، وأن المصريين لا يقومون بأى هجوم دون معاونة الخوارزمية ، وهكذا فقد انسحب الجيش المصرى إلى مصر دون قتال. وبعد ما شرح وجهة نظره وافقه عليها كثير من قادة الفرنج ولكن والثر أميراً يافا فضل أن تقوم القوات المتحالفة بهجوم مباشر فى الحال ، معتمداً على كثرة قواتهم واستعدادها ، وفى ذلك تدمير شامل للخوارزمية والقضاء على تهديدات الأيوبيين فى مصر . ويبدو أن وجهة نظره هى التى نالت الموافقة . . فقد نهض على رأس قواته ثم تحرك الجيش للهجوم فكان الفرنج فى الميمنة ، وقوات دمشق وحمص فى القلب ، ورجال الناصر فى اليسرة .

أما المصريون فقد صمدوا أمام الهجمات الفرنجية وثبتوا فى مواقعهم . وفى الوقت ذاته أسرع الخوارزميه فى الانقضاض على حلفاء الفرنجة من المسلمين . وفى اللحظات الأولى من المعركة ، ثبت المنصور إبراهيم ورجاله أهل حمص وردوا الصاع صاعين ، أما قوات دمشق فلم يقاوموا الصدمة العنيفة التى وجهها الفرنج إلى صفوفهم ، ثم أداروا وجوههم وولوا الأدبار ، وشاركهم الناصر وجيشه فى هربهم وتركهم الميدان . وبينما كان رجال المنصور إبراهيم يقاتلون جيداً لتجنب الهزيمة ؛ التف الخوارزمية وداروا حول جناح الفرنج وضغطوا عليهم حتى أصبحوا قريبين من الكتائب المصرية وتحت رحمتهم . ومع ذلك قاتلوا بشجاعة لكن دون جدوى . فقد ذابت قواتهم بعد ساعات قليلة وفقدوا معظم قاذبتهم ؛ بمن ماتوا أو فروا أو وقعوا أسرى . وقدر عدد قتلى الصليبيين بما لا يقل عن خمسة آلاف وربما كان أكثر ؛ بالإضافة إلى ثمانمائة من الأسرى إرسلوا إلى مصر^(١)

كان نصراً حاسماً : . لبصر وحلفائها :

(١) المقرئى فى السلوك ، ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨

وسرعان ما اتجه الجيش المنتصر إلى عسقلان، وكانت في قبضة الاستتارية فقاومت حصونها هجمات المصريين ولذلك لجأوا إلى حصارها بالسفن . ثم اتجه الخوارزمية إلى يافا وكان أميرها أسيراً في قبضتهم ، فشجعهم على المقاومة ولذلك تخلى الخوارزمية عنها وتركوها .

وكان الخوارزميون يتوقعون أن يسمح لهم الصالح أيوب باستيطان مصر تقديراً لمناصرتهم له ولكنه لم يسمح لهم بذلك ؛ فانتشروا في ديار الشام يعبثون الفساد والفوضى ؛ ويهاجمون حصون الفرنج والحكام المسلمين على السواء . وبعد أشهر استسلمت دمشق لجنود مصر في أكتوبر ١٢٤٥ ، ومنع الخوارزمية من دخولها وأقطعوا الساحل . فثاروا واستعادوا معظم المدن التي كانوا استولوا عليها . وزحفوا على دمشق وحاصروها ثلاثة أشهر ومع ذلك فلم ييأس الصالح نجم الدين ، واستمال إليه الحلبيين وغيرهم ؛ وتجمعت حوله الناس ضد الخوارزميين ؛ حتى تمكنت جيوشه وقوات حلفائه من إنزال هزيمة ساحقة بالخوارزمية بين بعلبك وحمص في ٢٠ مايو ١٢٤٦ ؛ فتبدد شملهم ولم تقم لهم بعدها قائمة . وطارد الصايبيين في عسقلان واقتحمها أسطوله في منتصف أكتوبر ١٢٤٧ ثم أمر بتدمير تحصيناتها وتخريبها .

وفي عام ١٢٤٨ / ١٢٤٩ زار الصالح نجم الدين أيوب بيت المقدس بعد أن عادت إلى أحضان الدولة الإسلامية فدعم تحصيناتها . وحضر إليه فيها كثيرون من حكام الشام ليقدّموا إليه فروض الولاء .



نودج لا كانت عليه مدن الجولان القديمة التي احدثت كدنة الهرما ملا

٣ - حملة لويس التاسع ومعركة المنصورة

٤ ذو القعدة ٦٤٧ هـ - الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ .

قبل إيضاح تفاصيل هذه المعركة الحاسمة في تاريخ الشرق العربي عامة ، وبخاصة تاريخ مصر ، سنتناول الكلام عن مهادتها ، أي تلك الأحداث التي سبقتها سواء أكانت في الغرب أم في الشرق العربي .

٢٨ يونيو - ١٧ يوليو ١٢٤٥

اجتمع المؤتمر الكنسي في مدينة ليون بفرنسا برئاسة البابا أنوسنت الرابع وتناقش المجتمعون مسألة فلسطين بعد فقد بيت المقدس وغيرها ، وكان من آثار المؤتمر إثارة الرأي العام الفرنسي وفي باقي بلدان أوروبا برعاية الملك لويس التاسع الفرنسي الذي أخذ على عاتقه النهوض بالحملة الصليبية السابعة .

عقد الملك مجلساً كبيراً حضره القاصد الرسولي وكبار رجال المملكة ورجال الدين وخطب الملك في الحاضرين داعياً إياهم لحمل الصليب ، وبادر فقيد اسمه في سجل الحرب المقدسة واقتدى به إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتو وشارل كونت أنجو ؛ والفونس كنت بواتيه ؛ وانضم إليهم جوفانفيل الذي صار فيما بعد مؤرخ الحملة ومن أشهر فرسانها ؛ وكذلك زوجة الملك - مرجريت دي بروفانس . وفي خلال ثلاث سنوات وفي حوالى منتصف يونية ١٢٤٨ كان قد تم تدير معدات الحملة واستؤجرت السفن واستكملت الذخيرة والمؤن ؛ واختيرت جزيرة قبرس لكي تكون قاعدة الحملة الصليبية للاطباق على مصر .

١٢ يونيو ١٢٤٨

غادر الملك لويس باريس قاصداً ميناء أجمورت^(١) وبصحبه عدد كبير من اللصبيين من بينهم زوجته وأخواه ؛ أما شقيقه الثالث كونت بواتيه فقد بقي

في فرنسا بعض الوقت لجمع الأمداد على أن يالحق بالجيش فيما بعد .

٢٥ أغسطس ١٢٤٨

أبحر الأسطول من إجمورت وكان يتألف من سفن لنقل الجنود وأخرى من سفن القتال .

١٧ سبتمبر ١٢٤٨

رمى الأسطول في ميناء ألسون (لياسول) جنوبي قبرص كما أبحر بعض الصليبيون ومنهم جوانفيل من مارسيليا .

١٧ سبتمبر ١٢٤٨ — ١٢٤٩

تأخر الأسطول في قبرص بلامبرر ، وفي خلال تلك الأشهر نفذ جزء من المأون والنبيد ولم يستطع الأسطول التحرك إلا بعد تنظيم عتاده من جديد ؛ كما نفذت أموال الحملة وتسربت أخباره إلى مصر مما أتاح الفرصة للاستعداد وتحصين دمياط ، ففقد الصليبيون مزية المفاجأة . وكان في وسعهم إدراك محصول البلاد محصوداً ومحشوداً في الأجران مما يعاونهم على تموين جنودهم وحيوانهم .

٣ صفر ٦٤٧ هـ — ١٨ مايو ١٢٤٩

وصل السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق إلى مصر ؛ ونزل في أشموم طناح وكان العنل يستمر في تحصين دمياط

٢٠ — ٢٢ مايو ١٢٤٩

أقلعت الحملة على دفعات من ميناء ألسون (لياسون) متجهة إلى مصر

٣٠ صفر ٦٤٧ هـ — يونيو ١٢٤٩

وصل الأسطول إلى الفرع الشرقي للنيل ودرست بعض سفنه بالبر الغربي تتجه دمياط (جيزة دمياط — أو جزيرتها) لأن دمياط تقع على الجانب الأيمن للفرع الشرقي للنيل عند اتصاله ببحر الروم . ولم يكن مع الملك سوى ثلث الحملة — أما الباقي فقد جرفته الرياح العاصفة معها ؛ فاتجه إلى الشمال الشرقي . وتوغل حتى لم يمكنه أن يدرك الملك وينضم إلى قواته إلا بعد انقضاء وقت طويل . وقد نصح المستشارون — الملك بأن ينتظر هذا الجانب المتخلف

من الأسطول قبل النزول إلى البلاد المصرية ولكنه ، رفض كلامهم قائلاً (إن التردد ربما يشجع العدو على مهاجمته بجرأ . وفي اليوم التالي (٥ يونيو) استقر الرأي على النزول إلى البر الغربي للنيل أمام دمياط .

كانت قوات المصريين بقيادة الأمير فخر الدين مرابطة على الشاطئ الشرقى ، ومتأهبّة للقتال وإلى جانبها عدد من السفن المسلحة لمنع الفرنج من النزول .

٢١-٢٢ صفر / ٥-٦ يونيو ١٢٤٩

شرع الصليبيون في النزول إلى البر ، وانسحب فجأة القائد فخر الدين من دمياط بالرغم من منعتها ، وربما كان ذلك للاستحواذ على الحكم ، إعتقاداً منه أن مملكته قد وافته المنية ، بالرغم من مناوشات وقعت بين المصريين والفرنج ، استشهد فيها من القادة الأمير نجم الدين والأمير صارم الدين . هرب أهل دمياط ولحقوا بالجنود في أشموم طنّاح .

جزعت القاهرة عند وصول النبأ وهلع السلطان في أشموم طنّاح . وقرر السلطان المريض الانتقال منها إلى المنصورة لميزة موقعها ، فإن النيل يحميها غرباً وبحر أشموم يفصل بينها وبين الفرنج في الشمال . وفي يوم الثلاثاء ٨ يونيو ١٢٤٩ وصل السلطان إلى مخيمه بالمنصورة ، بينما كان الصليبيون يدعمون حرا كزهم في دمياط وفيما حولها ، ثم توقفت الأعمال الحربية زهاء خمسة أشهر ونصف .

لم يجد الفرنسيون مشقة في النزول إلى الماء الضحل بقرب الشاطئ ، فنزل إلى البر ألوف الفرسان في دروعهم الثقيلة حاملين سيوفهم المستقيمة وممتطين ظهور جيادهم ، ويتبعهم حملة القسي ، كل هؤلاء ملأوا رحاب الشاطئ على حافة البحر وعلى رأسهم ملكهم والعلم الملكي أمامهم ، وواصلت القوات نزولها من الجانب الغربي من فرع دمياط ، في حين أن دمياط كانت على الشاطئ الشرقى للنهر ، ومن ثم اضطروا للعودة إلى سفنهم مرة أخرى لأنه لم يكن في استطاعتهم أن يعبروا النيل تحت رحمة الجيش المصرى المرابط في دمياط .

خطابان متبادلان

قلنا إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب وصل من دمشق — وهو مريض أثر ما بلغه عن حملة الفرنج . قتل بأشموم طنّاح في شهر المحرم ٤٦٧ هـ (١٢٤٩) وجمع في دمياط من الأقوات والسلاح شيئاً كثيراً ، وبعث إلى الأمير حسام الدين بن أبي على نائبه بالقاهرة لكي يجهز له الشواني في دار صناعة مصر . فشرع الأخير في تجهيزها وسيرها شيئاً بعد شيء ، ثم أمر قائد الجيش الأمير فخر الدين أن ينزل إلى جزيرة دمياط وصار النيل بينه وبينها ولم يقدر السلطان على الحركة لمرضه ثم وصلت سفن الفرنج بعد أن انضم إلى جموعهم الحاشدة فرنج الساحل السوري كله وأرسل الملك لويس للسلطان كتاباً نصه :

أما بعد ، فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى اعترف بأنك أمين الأمة الحمدية ، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إيماننا الأموال والمدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونحلى منهم الديار وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصيح إلى النهاية فلو حلفت لي بكل الإيمان ودخلت على القسوس والرهبان وحملت قداس الشمع طاعة للصلبان ماردي ذلك عن الوصول إليك وقتالك في أعز البقاع عليك . فإن كانت البلاد لي فهي هدية وقعت في يدي وإن كانت البلاد لك والغلبة علي ، فيدك العليا ممتدة لي وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء^(١)

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرئ عليه إغروقت عيناه بالدموع وقال « إنا لله وإنا إليه راجعون » وأرسل الرد بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء :

« بسم الله الرحمن الرحيم » وسلام الله وصلواته على سيدنا محمد رسول الله.

(١) المقريزي . السلوك لمعرفة دول الملوك . نشره الأستاذ محمد مصطفى زيادة ص ٤٤٤ - ٤٤٥

الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فتحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه فلورأت عينك — أيها المغرور — حولنا سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وأخربنا منكم ديار الأوائل والأواخر . لكان لك أن تقضى على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا إلى أى منقلب يتقلبون ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل . أتى أمر الله فلا تستمجلوه . وكن على آخر سورة ص . ولتعلمن نبأه بعد حين . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، وإلى قول الحكماء إن الباغى له مصرع وبغيك مصرعك — وإلى البلاد بقلبك والسلام »

سقوط دمياط

اشتدت المعارك بين جنود الفرنسيين والقوات المصرية واستشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام والأمير صارم الدين أزيلك الوزيرى ، وظلت المفاوضات قائمة إلى أن أرخى الليل سدوله ، فانطلق القائد الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معه من الجنود وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى يحتوى مدينة دمياط تاركين الجانب الغربى للفرنج ، ورحل فخر الدين قاصداً أشموم طنح — ولكن الجنود نسوا في عجلتهم أن يرفعوا الجسر من على النيل ، فانقض عليه الفرنسيون واحتلوه وبهذا انفتح لهم الطريق .

فلما رأى أهل دمياط رحيل الجنود تبعوهم ولم يبق بالمدينة أحد البتة وفروا إلى أشموم طنح — حيارى لا يدرون ماذا يفعلون — ومن الغريب أن دمياط احتملت في أيام الملك الكامل حين نازلها الفرنج خسائر أقل مما تحملت في هذه المرة ، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على انتزاعها أيام الكامل إلا بعد انقضاء عام بعدما حل الوباء والجوع في أهلها فأفنى منهم عددا كبيرا واستولى

الفرنج على المدينة عند شروق اليوم التالي ، وغنموا ما فيها من الآلات الحربية ، والأسلحة المظيمة والمسدد الكثيرة والأقوات والذخائر والأموال والأمتعة ، وغيرها ، وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بني كنانة الذين فروا . وإذا أدركت القوات أشموم طناح كتم السلطان غيظه ونهض بالرغم من مرضه ، فأحيا الأمل في قلوب رجاله وبقدر ما كان في جسمه من الأعياء والوهن تجلّت في روحه قوة الشكيمة وعزم الرجال فانتفض في فراشه كالأسد الجريح وقد ألهب ثأثرته فرار الحامية من دمياط ، فأصدر أمره بإعدام خمسين رجلاً من بني كنانة ، وعبثاً حاولوا الدفاع عن أنفسهم وتبرير مسلكهم فلمنه صاح فيهم أنهم يستحقون الموت إذ سلكوا مسلك الجبناء بفرارهم قبل تلقى أوامره
حملة بدون خطة (٢٤ أكتوبر ١٢٤٩) :



وصول حملة لويس التاسع إلى البر أمام دمياط القديمة

دخل رجال الحملة الصليبية دمياط فوجدوا حصنها خالياً من حماته ولكن مخازنه كانت مكتظة بكل ما تشتهيه الجيوش فاستمروا البقاء شأنهم في قبرس من قبل وتوالت الشهور وأحس المصريون بمخلود الفرنسيين إلى الراحة فتشجعوا

على مناوشتهم وشنوا عليهم الغارات متوالية هوجاء وراح السلطان يمنع قطعة ذهبية عن كل رأس من رموس الأعداء يأتيه به أحد جنوده فضلاً عن الأسرى. وحينئذ اختل النظام في معسكرات الفاتحين وأصبحت دمياط مسرحاً للتهتك وبؤرة للمفاسد ، ولكم ساد الإفراط الفاضح في الملذات والفجور ، وطفقت المؤونة تنفذ بسبب جشع التجار، ولم يكف كل هذا بل تعاقبت العواصف العنيفة على الوجه البحرى فخطمت ما ينوف على مائتين وأربعين سفينة من الراسيات على الشاطئ بالقرب من دمياط، فندحت الخسارة في الأرواح وتدمرت المخازن بما فيها من ذخيرة ومؤونة .

فلما وصل « الكونت دى بواتيه » من نبلاء الحملة إلى دمياط على رأس نجدة (٢٤ أكتوبر ١٢٤٩) جمع الملك مجلساً من الأشراف للبحث في اختيار الطريق التى يسلكها الجيش ، وجرى الاستفتاء فى أى الطريقين أفضل . . . طريق الأسكندرية أو طريق القاهرة فكان من رأى الكونت ببيردى بريتانى ومعه بعض البرونات أنه يجب الزحف أولاً على الأسكندرية نظراً لأن مرفأها يصلح لأن يكون قاعدة أمينة ولأن إمداد الجيش بمحاجاته فى الأسكندرية أسهل منه فى دمياط .

ولعل أصحاب هذا رأى كانوا ينظرون إلى أن الأسكندرية أعظم شأناً من دمياط وأنها مدينة لا يجوع الجيش فيها بسهولة وذلك فضلاً عن سائر الاعتبارات العسكرية من حيث سلامة الطريق إلى القاهرة العاصمة وخلوه من العوائق الطبيعية . . . بيد أن الكونت دارتوا لم يوافق على هذه الخطة واستهجنها قائلاً أنه لن يسير إلى الأسكندرية إلا إذا استولى الجيش أولاً على القاهرة (بابلون) التى كانت مقر السلطان . ثم عزز رأيه بأن من يريد قتل الأفعى فيجب أن يبدأ برأسها ، فأمن الملك على رأيه وطرح جانباً الخطة الأولى التى لاشك أنها كانت الأفضل والأسلم ، عاقبة ونحن لا ندرى لماذا لم يستفد الملك لويس من أخطاء حملة « جان دى برين » (١٢١٨) فاتبع الطريق التى سار فيها سلفه ، ولا سيما بعد أن حظى بالتوفيق فى بداية الأمر — على النقيض من

سلفه — إذ سقطت دمياط بعد عراك ضئيل . ولكنه ضيّع ستة أشهر في انتظار



المؤن والإمدادات،
بينما كان السلطان
يعبئ جيشه .
ويقوم العراقيين في
سبيل الفرنسيين ،
وأكبر الظن أن
لويس التاسع
وأركان حربه لم
يمنوا عناية كافية
بدراسة الممارك
التي دارت قبل
ذلك بين الصليبيين
والمسلمين في مصر،

وأنهم لم يدرسوا
طبيعة الأراضي المصرية دراسة طيبة ، وحسبنا أنهم وقعوا في عين الأخطاء التي
وقع فيها أسلافهم .

٢٠ نوفمبر ١٢٤٩

بدأ الصليبيون في مغادرة دمياط ويتقدمون إلى القاهرة تاركين المدينة في
حراسة قوية وكان ذلك في يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ .

ولذلك أمر السلطان بالانسحاب إلى المنصورة وحمل في حراقة^(١) حتى أنزل

(١) الحراقة سفينة حربية كبيرة تحمل مكاحل البارود (المدافع) والمنجنقات التي يرمى
بها النفط المشتعل على الأعداء والحراقة أقل من الشونة حجما وتمتاز بالمنجنقات كما تمتاز الشونة
بالقلاع وتستخدم لحمل الأسلحة النارية الإغريقية وكانت بها مرام تلقى منها النيران على العدو
واستعمل في مصر نوع منها لحمل الأمراء وكبار رجال الدولة في الاستعراضات .

بقصر مظل على النيل ، وجرى إصلاح السور المقام على النيل وستره بالستائر^(١) .
وقد تمت الشواني المصرية^(٢) بالعدد الكاملة والجنود وأقبل الجند والمجاهدون
من عامة الشعب ، ووصلت وفود من العربان وأخذوا في الفارة على الفرنج
ومناوشتهم وبدأوا بأسرون جنود الأعداء فوصل إلى القاهرة سبعة وأربعين أسيرا
من الفرنج وأحد عشر فارسا من خيرة فوارسهم وظفر المسلمون بعد أيام بمسطح^(٣)
الفرنج في البحرية في أثناء مقاتلة بالقرب من نستراوه^(٤) .

فلما كانت ليلة الإثنين يصف شعبان عام ٦٤٨ هـ (٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ م)
مات السلطان الملك الصالح أيوب بالمنصورة وهو في مقاتلة الفرنج ، فكانت مدة
حكمه للديار المصرية تسع سنوات وثمانية أشهر وعشرين يوما بعد ما عهد لولده
الملك العظيم توران شاه وكان يقيم في حصن كيفا . وهنا يبدو دهاء الملكة شجرة
الدر في إخفاء أمر وفاته ، فقد حملت جثة السلطان في تابوت إلى قلعة الروضة ،
ثم نقلته عقب ذلك بمدة إلى ضريحه بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة ، وبقي
الأمير حسام الدين بن أبي علي المذباني على وخليفة نيابة السلطنة بالقاهرة .

بعد موت السلطان أحضرت زوجته شجرة الدر الأمير نحر الدين بن شيخ
الشيوخ والطواشي جمال الدين محسن . وكان أقرب الناس إلى السلطان وحدثهما
بأمر الوفاة وأوصتهما بالكتمان خشية أن يتسرب الخبر إلى الفرنج ، فاتفقا مع
شجرة الدر على القيام بتدبير الملكة إلى أن يقدم الملك المعظم توران شاه ،
ومن ثم استدعت شجرة الدر الأمراء (القواد) الذين بالمعسكر وقالت لهم :
« إن السلطان قد رسم أمراً بأن تحلفوا له ولإبنه الملك المعظم غياث الدين

(١) جميع ستارة وهي حائط خارجي مقام من الخشب أو غيره يحتمى وراءه المدافعون
عن حصن أو سور ويستخدم المهاجمون الستائر أيضا للوقاية من قذائف العدو وكانت تعمل
أحيانا من اللباد وبطول المكان الذي يراد رميه بالمقذوفات كسر للرماح .

(٢) كانت الشواني أكبر سفن الاسطول المصري استعمالا وهي سفن كبيرة ذات أبراج
وقلاع تستخدم للدفاع والمجور وتجهز في أيام الحرب بالسلاح والنفطية وتحشد بالمقاتلة
والجنود البحرية .

(٣) نوع من السفن جمعه « سطحات » والغالب أنه سمي بذلك لأنه كان له سطح أو أكثر .

(٤) كانت تطلق في تلك العصور على بلدة البرلس الحالية وعلى بحيرة البرلس أيضا .

توران شاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانا من بعده ، وللأمير نخر الدين بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية (قيادة الجيوش) وتدير المملكة. فقالوا كلهم «سما وطاعة» ظنا منهم أن السلطان حى وحلفوا بأمرهم ، كما حلفوا سائر الأجناد والممالك السلطانية

الصلبيون في فارسكور



مسرح المعارك البرية والنيلية بين الأيوبيين والصلبيين عام ١٢٥٠ م

سار من العسكر الفارس أقطاي — وهو يومئذ من رؤوس الممالك البحرية لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا^(١) فخرج في خمسين فارسا وكاد يقتل في

(١) يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من مدينة آمد (ديار بكر) .

عبوره نهر الفرات إلا أن الله نجاه . أما الفرنج فلما بلغهم أن السلطان قد مات خرجوا من دمياط ونزلوا على فارسكور (١٢ ديسمبر ١٢٤٩) وكانت قرية من كورة الدقهلية — ثم رحلوا منها قاصدين المنصورة متجهين إلى الضفة الشرقية للنيل وظلت قواتهم تواصل السير نهراً وبرا مسرعة تارة متوقفة أخرى إلى أن اعترضت طريقها ترعة أشموم (أشمون) — وهي تمتد على مقربة من شمال المنصورة وعلى الضفة الأخرى منها ترابط القوة المصرية . فكانت أول عقبة جدية صادفت الحملة منذ قيامها السوء الذي جعلها تلقى رحلها هناك وتضطر إلى إقامة معسكرها .

أما تلك التربة التي واجهت المغيرين فهي ترعة يسمونها الآن البحر الصغير ، والحق أنها لم تلبث على حالها الأول إذ تغير مجراها منذ ذلك الحين تغيراً ملحوظاً فأصبح يتفرع عن النيل في نقطه قريباً جداً من المنصورة في حين كان موضع التقائه في تلك الأيام يبعد عن المدينة المذكورة إلى جهة الشمال بما يقرب من أربعة إلى خمسة أميال . وعلى صدر الرقعة الواقعة خلال هذه المسافة كانت القوات المصرية التي وقفت متأهبة للقاء الغزاة .

وكانت هناك جماعة كبيرة عدتها خمسمائة من الفرسان الأيوبيين تكمن بالرصاد في معسكر على مسافة غير بعيدة جنوبى فارسكور في انتظار وصول الصليبيين ، وهم في زحفهم إلى تلك المدينة . ولذلك لم يكد الفرنج يدخلون فارسكور دون مقاومة حتى أخذ قائد الجماعة اليقظة في ترتيب فرسانه لمناوشتهم وتعويقهم عن الزحف جنوباً قدر الإمكان^(١) ، على حين أطلق حمام الزاجل بأخبار هذا الزحف، فوصلت هذه الأخبار إلى معسكر المنصورة في بضع ساعات وطير الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ هذه الأخبار بدوره في اليوم التالي.

(١) لازالت مدينة المنصورة في موقعها الذي داهمها فيه الفرنسيون ولكنها استأرجأوها وامتدت أطرافها امتداداً كبيراً وعلى الأخص ناحية الشرق .

(٢) د . محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة . — المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ص ١٢٨ — ١٣٢ ، وملحق رقم ١ ، ص ٢٦٤ ب

(الجمعة) إلى القاهرة ، ومعها رسالة حرية من إنشاء الكاتب الشاعر بهاء الدين زهير ، وقرئت هذه الرسالة على الناس في صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وغيره من الجوامع والمساجد بالقاهرة ، وكان لها من الأثر أن أوضحت للسامعين ضرورة المساعدة العاجلة بالامداد والأموال والرجال للقوات الدفاعية الواقعة بالمنصورة وضاحتها جديدة ، حتى تستطيع هذه القوات أن تظل على المقاومة والثبات في مواضعها ضد الزحف الصليبي ، لأنه إذا « اندفع العسكر الذين بالمنصورة إلى ورائهم مرحلة واحدة ، ملكت ديار مصر أجمعها في أسرع الأوقات » ، على قول المؤرخ ابن واصل نفسه .

ويبدو أن الملك لويس أفسح لجماعة الخمسمائة من الفرسان المصريين الأيوبيين أن تقوم بهجومها على الصليبيين ، وهم في فارسكور ، إذ أخفى فرسانه وجنوده في أطراف المدينة ، وبدا أغوى طلائع جماعة الخمسمائة بالدخول إليها للاستطلاع ، حتى إذا توغلت الجماعة نفسها بعد ذلك في فارسكور ، أمر الملك لويس بالإطباق عليها من كل ناحية ، ولذا لم تجد هذه الجماعة سبيلا للنجاة سوى الفرار قبل فوات الأوان . وكانت هذه الواقعة في يوم الأربعاء مستهل رمضان سنة ٧٤٦ هـ الموافق ٨ ديسمبر ١٢٤٩ ، واستشهد فيها الأمير العلّامى أمير مجلس ، وجماعة من الأجناد . وفي رواية جوانفيل أن جماعة الفرسان المصرية الأيوبية أبيت عن آخرها بين قتيل وغريق ولذلك لم تذكرها المراجع العربية .

ولم يلبث الملك لويس ٩ أن وصل إلى شارمساح وهي على مسافة عشرين كيلو متراً تقريباً جنوبى فارسكور ، ثم سار الملك من شارمساح ، وكان نزوله على البرمون ، وهي على مسافة عشرة كيلو مترات جنوبى شارمساح ، وكان نزوله على البرمون يوم الثلاثاء ١٤ ديسمبر سنة ١٢٤٩ الموافق ٧ رمضان سنة ٦٤٧ هـ .

وباستيلاء الملك لويس التاسع على البرمون لم يبق بين الصليبيين والعسكر المصرى الأيوبي فى المنصورة ، وفى ضاحيتها جديدة ، سوى مرحلة نهائية واحدة

وترعة كذلك واحدة ، إلا إذا قرر الملك لويس ومشيروه أن يحاولوا الوصول بحملتهم إلى مشارف معسكر المنصورة مباشرة عن طريق النيل ، وقد اضطرب الناس في أنحاء الدلتا والقاهرة .

وهذه المرحلة النهائية ، ومساقها عشرة كيلو مترات أخرى تقريباً ، اجتازتها حملة لويس دون أن تلقى مقاومة ، ولم تلبث الحملة أن وصلت إلى نهاية هذه المرحلة أمام معسكر جديدة أى قبالة الجانب الشرقى من مدينة المنصورة ومعسكرها ، وذلك يوم الثلاثاء ١٢ رمضان سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٢٤٩ ، وأما الترعة الواحدة فهى البحر الصغير ، ولم يكن بد من عبوره به للوصول إلى المنصورة وجديدة ، واسم هذه الترعة فى المراجع العربية المعاصرة للحملة بحر أشمون طنّاح ، وفى جوائفل قناة دراكسا نسبة إلى بلدة الدراكسة شمالى دكرنس الحالية .

وبإزاء المعسكر الصليبي شمالى بحر أشمون طنّاح أُلقت السفن الصليبية مراسيها فى النيل ، وعلى مسافة منها فى النيل كذلك ، بإزاء المنصورة نفسها وقفت أنواع ممائلة من السفن المصرية الأيوبية بالمرصاد ، ومعنى ذلك أن قوات الجانبين تراءتا بعضهما إلى بعض فى البر والنهر ، ولم يكن يفصل بينهما سوى الماء فى الحالين (محمد مصطفى زيادة ، ص ١٣٣) .

الطرفان يتحدى أحدهما الآخر وليس يحتاج هذا الموقف سوى معركة حاسمة ... لن تحدث إلا بعد عبور الصليبيين من الجانب الشمالى لبحر أشمون طنّاح ، حيث معسكرهم ، إلى الجانب الجنوبى الذى فيه معسكر المنصورة أو العكس ، ليلتحم الفريقان بعد ذلك بقواتهما البرية الرئيسية من المشاة والخيالة فضلاً عن قواتهما النهرية فى عرض النيل ، وأدرك الملك لويس التاسع أن هذا العبور لا يمكن أن يتم بإنشاء جسر عائم من السفن الصغيرة ، ليعبر عليها الصليبيون من جانبهم إلى الجانب الآخر من بحر أشمون ، بل يحتاج إلى سد بحر أشمون طنّاح بجسر ثابت من الطين والخشب ، تبنيه مشاة الحملة الصليبية وعملها على غرار ما حدث أثناء الزحف الصليبي جنوبى دمياط مباشرة . ولما

كان هذا العمل ضخماً ويتطلب حماية العاملين بينائه أثناء العمل ، ولذلك أمره الملك لويس بإنشاء سقيفتين يستطيع المشاة من الجند وعمال الجسر أن يعملوا تحت حمايتهما وهم آمنون ، مع إقامة برجين خشبيين متحركين لحماية السقيفتين وثمانية عشر منجنيقا على جانبي البرجين الخشبيين ، للرمي منهما على المعسكر المصري .

استغرقت هذه المعدات مدة طويلة ، تخطتها أيام من المناوشة والترشق بالسهام والحجارة ، فضلا عن كرات النبط التي انقردت بها فرقة النفاطين في الجيش المصري الأيوبي . ففي اليوم الذي وصلت فيه الحملة الصليبية قبالة المنصورة وجديلة ، أى يوم الثلاثاء ١٤ رمضان سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٢٤٩ عبرت فرقة استطلاعية صغيرة من الخيالة المصرية بحر أشموم طنّاح كما جاء في إحدى المراجع الأوربية وبغمت هذه الفرقة الاستطلاعية جنود الصليبيين في معسكرهم قبل أن يزيلوا عن أنفسهم تراب السفر ، وعادت من حيث أتت ، بعد أن فقدت من رجالها عدداً طارده الصليبيون المذعورون من أطراف المعسكر الصليبي إلى شاطئ النيل ، حيث مات أولئك الرجال غرقاً في الماء ...

وبالإضافة إلى تلك المعدات البنائية اللازمة لبناء الجسر ، قام الصليبيون بحفر خندق وبناء سور لوقايه الجانب الشمالى البرى من معسكرهم ، غير أن الأمير قر الدين لم يمهلم طويلا ، إذ أنفذ من خيالته سرية كبيرة عبرت بحر أشموم طنّاح بعد أربعة أيام من عودة سريته الأولى ، أى يوم السبت ١٨ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٢٤٩ ، ثم فاجأت الصليبيين بالضربات العنيفة وهى فى طريقها إلى داخل المعسكر الصليبي فأمرع الفرنج فى ارتداء ملابس الحرب ودفعوا المهاجمين المصريين إلى خارج المعسكر ولذلك أمر الملك لويس بأن يسرع رجاله فى بناء السور وحفر الخندق وبناء الجسر المطلوب .

تطورت الحرب بعد ذلك إلى مناوشات قام بمعظمها الجند النظاميون من الجيش المصرى فضلا عن جماعات من غير النظاميين تسميهم المراجع العربية باسم الحرافشة والعامه ودأبت هذه المناوشات على الهجمات الفجائية برأ ونهراً عن طريق المعرات والمخاضات السرية التي عرفت بها القيادة المصرية وجهلها الصليبيون. وفي ٧ يناير سنة ١٢٥٠ في أثناء تلك المناوشات عاد المصريون بأحد الكوتات الفرنسيين أسيراً إلى معسكر المنصورة.

٢ يناير ١٢٥٠

وفي يوم الخميس ٧ شوال سنة ٦٤٧ هـ / ١٢ يناير ١٢٥٠ استولت البحرية المصرية الأيوبية على سفينة (شينى) وبها قرابة مائتى صليبي على رأسهم كونت كبير ... وبعد سبعة أيام أخرى ، أى يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢٠ يناير سنة ١٢٥٠ هجمت فرقة من الجيش المصرى على طول الناحية الشمالية البرية من المعسكر الصليبي وكان الملك لويس على معرفة سابقة بهذا الهجوم المصرى وميغاده بوساطة أحد عيونه . ولذا وزع الملك لويس قبيل وقوع هذا الهجوم قواته بين نواحي المعسكر توزيعاً محكماً وأسند القيادة فى كل ناحية إلى واحد من إخوته ، فجعل روبرت كونت أرتوا على ناحية بحر أشموم طنّاح ، حيث تكدست المعدات الهندسية لبناء الجسر . وجعل شارل كونت آنجو على الناحية الوسطى ، حيث وقف الملك كذلك بالجيش الرئيسى ، كما جعل ألفونس كونت پواتييه ومعه سائر الجيش من الإنجليز والشمبانين والبورجنديين والبريتانيين على ناحية فرع دميّاط من النيل .

ويذكر أستاذنا محمد مصطفى زيادة (ص ١٣٩) أن الهجوم المصرى وقع على الناحية الوسطى من المعسكر الصليبي فاستطاع قائدّها كونت آنجو أن يرد ذلك الهجوم رداً عنيفاً ، مما أدى إلى كثير من الخسائر فى الجانبين وكاد الكونت يقع أسيراً فى أثناء ذلك الهجوم . ثم حول الجنود المصريون هجومهم إلى ناحية فرع دميّاط من المعسكر الصليبي ، حيث لقيتهم قوات ألفونس كونت پواتييه ، وصدّمتهم صدمة ثانية أسفرت عن خسائر متبادلة أخرى بين الطرفين ...

وفي تلك الأثناء تمت المعدات التمهيدية اللازمة للشروع في بناء الجسر الصليبي « الذي تكلمنا عنه » عبر بحر أشموم طنّاح ، وبدأ العمل فعلا في ذلك الجسر منذ أول شهر يناير ١٢٥٠ ، وتمس الملك وأعوانه وجميع جنودهم لإنجاز ذلك العمل الضخم ، غير أن طبيعة بحر أشموم طنّاح تعاونت - فيما يظهر - مع القيادة المصرية الأيوبية على إفساد مراحل ذلك العمل مرة بعد مرة ، فكلما أنجز المهندسون والعمال الصليبيون سد جزء من مجرى بحر أشموم ، اشتد التيار في الجزء الباقي من المجرى واستعصى على أية إضافة جديدة ، وفي الوقت ذاته عكف المهندسون والعمال المصريون على حفر خنادق لتوسيع مجرى الماء في ناحيتهم بقدر ما ضاق نتيجة لبناء الجسر في ناحية الصليبيين . وهكذا ذهبت جهود الملك لويس التاسع وجنوده سدى ، وهدم المهندسون والعمال المصريون في يوم أو يومين ، ما بذله الصليبيون من عمل شاق مدة ثلاثة أسابيع . أضف إلى هذا أن المجانيق المصرية وهي التي أقامها الأمير نحر الدين يوسف في جديلة على الضفة الجنوبية لبحر أشموم طنّاح ، وعدتها ستة عشر كانت أمتن صنعا وأدق رميا من مثيلاتها من المجانيق الصليبية على الضفة الأخرى ، ويرجع بعض السر في هذا التفوق المصري الأيوبي إلى قذائف النار الإغريقية وهي كرات النفط المشتعلة التي كانت تفتك بالأهداف الصليبية فتكا ذريعا وتشعل الحرائق ، منها ما حدث في يوم الخميس ٢١ شوال سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢٧ يناير سنة ١٢٥٠ وكانت النار الإغريقية تعتبر أفك آلات الحرب حينذاك . لقد فوجئ الفرنسيون بشعالات رهيبية من اللهب تنصب على رؤوسهم كأنها تدفقت من السماء . مزيج الرعب والموت والسر الرهيب الذي أنقذ الإمبراطورية البيزنطية من الدمار ، والذي ظل مغلقا كالطلسم أمام الشعوب الأخرى أربعة قرون حتى كشف المسلمون - قبيل هذه الحملة الصليبية مكنونه فعرفوه - وهو مركب عجيب اخترعه كالنيكوس وهو مصمم مدينة هيرابوليس في سوريا على عهد قنسطنطين يوجوناتوس الذي حوصرت القسطنطينية في إبان حكمه ست سنوات على يد القزاة العرب ، فلم ينقذها منهم غير هذا السلاح المريع ، وكذلك على عهد

ليوالإزاولى إذ قام المسلمون بأعظم هجوم لهم وكانوا حينئذ - ولمدة قرنين بعد ذلك - في قمة قوتهم وعنفوانهم ، ولم ينصرفوا عن القسطنطينية إلا بعد حصار دام ثلاث سنوات ، فكانت هذه النار الإغريقية أهم ما أنقذها من الوقوع في أيديهم .

وصفت الأميرة أنا كومنيننا إبنة اليكسيوس كومنينوس الذى شهد عصره الحرب الصليبية الأولى هذه النار في كتابها عن سيرة أبيها ، فصورت مقدار روعتها حين تملأ النار في الجو وحين تشتعل ثم حين تنفض كقطعة من الجحيم فتشوى الناس وتتركهم مع متاعهم رمادا تذروه الريح ، وأشارت إلى بعض عناصرها فقالت إنها مزيج من النفط والزيت والكبريت بمجد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال ، وكان هذا المزيج الناري يعبأ في أنابيب من النحاس لها فوهة توقد منها وفي مؤخرها قوس تنطلق فتدفعها إلى الأمام . وكانت تلك الأنابيب توضع بكميات كبيرة في أسطوانة مستديرة وتلقى في مكان بالمنجنيق ثم تقذف على العدو فتصليه نارا حامية إذ تنفجر بقوة الاصطدام فيندلع منها لهيب لا يمكن للإنسان أن يخمده وينتشر شررها في كل جانب فتجعل ما حولها أتونا متلظيا . ذلك هو السلاح الذى حطم به المصريون ما أعده الجيش الصليبي للهجوم ، ويأتى على وصفه الفارس « دى جوانفيل » وقد بلغ به العجب مبلغا فيقول :

« فى غسق الليل جاء المسلمون بآلة عجيبة ووضعوها تجاه الأبراج التى كنا ساهرين على حراستها أنا والسير والتر كوريل ، ثم قذفونا منها بشيء مלא قلوبنا بالدهشة والرعب .. نار كأنما هى الدنان المشتعلة وذبولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء ولها نور ساطع جداً من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء حتى أنك ترى كل ما فى المعسكر كما لو كان فى وضوح النهار ، وقد رمى المسلمون علينا هذه النار فى تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة وأربع مرات من القسي العريضة .

وذهب جوفانفيل فتحدث .. كيف أن أولئك « الأتراك » وضعوا قاذفة النار تجاه الصليبيين في اليوم التالي لكي يحطموا أبراجهم وأسوارهم وكأنما فتحوا باب جهنم فجأة في وجوههم. فاندلعت النار في برجهم الخشبيين وامتدت ألسنتها تلتهم كل ما تصل إليه .

وإزاء هذا كله صمم الملك على بناء مجموعة أخرى من الحصون والأبراج التي احترقت ، بيد أنه لم يجد خشباً في تلك المنطقة فاضطر إلى جلبه من السفن الراسية في دمياط ومن ثم شيد عدداً آخر من البروج تحت وابل من قذائف الأحجار ولكن لم يسكن حظها أوفر من سابقتها إذ ساءت أحوالهم الجهنمية عليها فاشتعل فيها اللهب .



فارس صليبي

معركة المنصورة

الاثنين ٧ فبراير ١٢٥٠

لم يبق للصليبيين حينئذ حيلة ما، فيئسوا وقرر نشاطهم بعد أن ذهبت محاولاتهم سدى في عبور القناة والاشتباك مع عدوهم . فاستدعى الملك مجلسه الحربى لشرح خطته لعبور مخاضة ضحلة المياه كانت تعرف بمخاضة سلمون ، مستعيناً بالخيالة الصليبية فقط ، وخلاصتها أن يزحف الملك لويس وأخوته الثلاثة ، ومعظم كتائب الفرسان والخيالة الصليبية من الفرنسيين والإنجليز والفلاندرين والبريتانيين والشمبانيين ، فضلا عن فرسان الداوية نحو مخاضة سلمون ، بينما يظل هيو الرابع دوق برجنديا وبارونات قبرس والشام ، بقوات خيالتهم ، وقوات المشاة والرماة الصليبية عموماً ، في مواطنهم من الخطوط الصليبية ، شمالى بحر أشموم طنح لحراسة المعسكر الصليبي ، وانتظار ما سوف يصدر إلى دوق برجنديا من تعليمات تالية .

وكان رأى النهائى قد استقر على أن يعبر الملك لويس ٩ وإخوته الثلاثة والفرسان والخيالة الصليبية المتفق عليها ، وطائفة الفرسان الداوية مخاضة سلمون ، فجر الثلاثاء الثامن من فبراير سنة ١٢٥٠ في ثلاث وحدات كبرى على رأس كل كل منها أحد إخوة الملك لويس ٩ ، على أن تسير طائفة الفرسان الداوية في أول وحدة الطليعة ، ووراءها فرقة روبرت كونت أرتوا ومعها فرقة الإنجليز والبريتانيين المرافقون للحملة ، ثم فرقة شارل كونت لانجوى ومعها الشمبانيون ومعهم جوفانفيل ، ثم فرقة ألفونسو كونت پواتيه ومعها دوق فلاندر ، ووراء أولئك جميعاً الملك لويس التاسع على رأس فرقة الخيالة الملكية لحفظ المؤخرة من أى هجوم خلفى مفاجئ . . .

ويواصل الأستاذ المؤرخ الأستاذ محمد مصطفى زيادة كلامه :

وصدرت تعليمات مشددة ذلك اليوم ، بأن تقف كل فرقة من هذه الفرق الصليبية بعد عبور المخاضة في ترتيبها المتفق عليه ، وأن ينتظر كل منها في موضعه هناك ، حتى تصل إليها تعليمات جديدة من الملك لويس التاسع بعد عبوره المخاضة هو وفرقتيه من الخيالة الملكية . وأراد الملك لويس بتلك التعليمات أن يكون الزحف الصليبي العام إلى معسكر جديدة في قوة كافية ، ليتسنى بذلك إحداث الصليبيين بالقوات والمعدات المصرية الأيوبية فجأة ، وإخراج هذه القوات أولاً من جديدة ، ثم تعطيل المجانيق ذوات النار الإغريقية في سرعة بإتلافها أو الاستيلاء عليها قبل أن ينهض القائد نحر الدين يوسف لمقاومة هذه الحركة ، وعلى ذلك يحقق الملك لويس هدفه باستيلائه على جديدة ولجعل منها قاعدة لعملياته المستقبلية وأول تلك العمليات توجيه المهندسين والعمال لإتمام الجزء الباقي من الجسر المطلوب لعبور بحر أشموم طنّاح ، لتستطيع المشاة الصليبية أن تصل بوساطته إلى جديدة ، وليستطيع الملك أن يزحف بالخيالة والمشاة الصليبية معاً إلى المنصورة ، وتلك هي العملية الثانية من عملياته ، ثم يزحف من المنصورة إلى القاهرة ، وتلك هي الثالثة والأخيرة من العمليات المتفق عليها .

بدأت عملية العبور صفّاً صفّاً ، على الترتيب الذي استقر الرأي عليه نهائياً . فعبرت فرقة فرسان الداوية في أول وحدة الطليعة الصليبية ، وتبعها فرقة روبرت كونت أرتو ، وهكذا فرقة بعد أخرى ، غير أن هذه العملية لم تخل من صعوبات ، نظراً لكتافة الطين في قاع مجرى بحر أشموم طنّاح ، ولانحدار جانبي مخاضة سلمون إلى درجة لم يدركها الملك لويس حين تفقد المخاضة بنفسه سابقاً ، دون أن ينزل إليها بفرسه ، ولذا وجد عدد من الخيالة الصليبية صعوبة كبيرة في إنزال خيلهم وتوجيهها وهم على ظهورها عبر المجرى ، مما أدى إلى انزلاق بعضهم عن ظهور خيلهم وموتهم غرقاً في الماء . وتم ذلك في ظلام الساعات الأخيرة من الليل ، دون أن يرى الحرس الأمامي المصري أو يسمعون شيئاً من حركات العدو ، ثم لم يلبث الحرس المصري أن كشف جماعات الصليبيين وهم يتخذون مواضعهم المتفق عليها ، عند الجانب الجنوبي من مخاضة سلمون في متنفس الفجر .

وهذا الحرس الأمامي وعدته قرابة ثلاثمائة من الخيالة المصرية الأيوبية كـتقدير جـوانفيل لم يثبت للقتال لأنه ليس من واجبه أو من طاقته ، بل أمرع راكبا إلى جديلة ليعطى الأمير فخر الدين يوسف آخر أنباء الصليبيين ، ولينذر بدوره مدينة المنصورة وقائد معسكرها . وانطلق في أثر هذا الحرس الراكض وروبرت كونت أرتوا بفرقة من وحدة الطليعة الصليبية ، قبل أن تبدأ الوحدات الكبرى الأخرى في العبور . وخالف الكونت بذلك تعليمات أخيه الملك . ولم يحترم الحقوق التي اختصت بها طائفة الفرسان الداوية ، إذ تطلبت هذه الحقوق أن يكون ترتيبه وراءها على أية حال . وساء فرسان الداوية ، ورئيسهم وليام سوناك أن يعاملوا بهذا الاحتقار . . . ولذا لحق فرسان الداوية ، وفرسان الإنجليز والبريتانيين معهم ، بفرقة كونت أرتوا ، بعد أن رفض الكونت أن يستمع إلى نصيحتهم ، فأمرع الجميع مشتركين في مطاردة الخيالة المصرية الراكضة إلى معسكر جديلة ، ولم يلبثوا أن افتحموا أطراف هذا المعسكر صبيحة ذلك اليوم وهو اليوم الثامن من فبراير سنة ١٢٥٠ .

كانت مفاجأة للمصريين في معسكر جديلة ، وكان القائد فخر الدين في الحمام فخرج فوراً وامتطى صهوة جواده دون أن ينتظر حتى يلبس درعه وانطلق يلم شعث المسلمين ، والتحم بالعدو مقتحماً صفوفه في شجاعة ، واسكنه سقط مثخناً بالجروح بعد أن اعتورته السيوف من كل ناحية حتى غدا جثة هامدة .

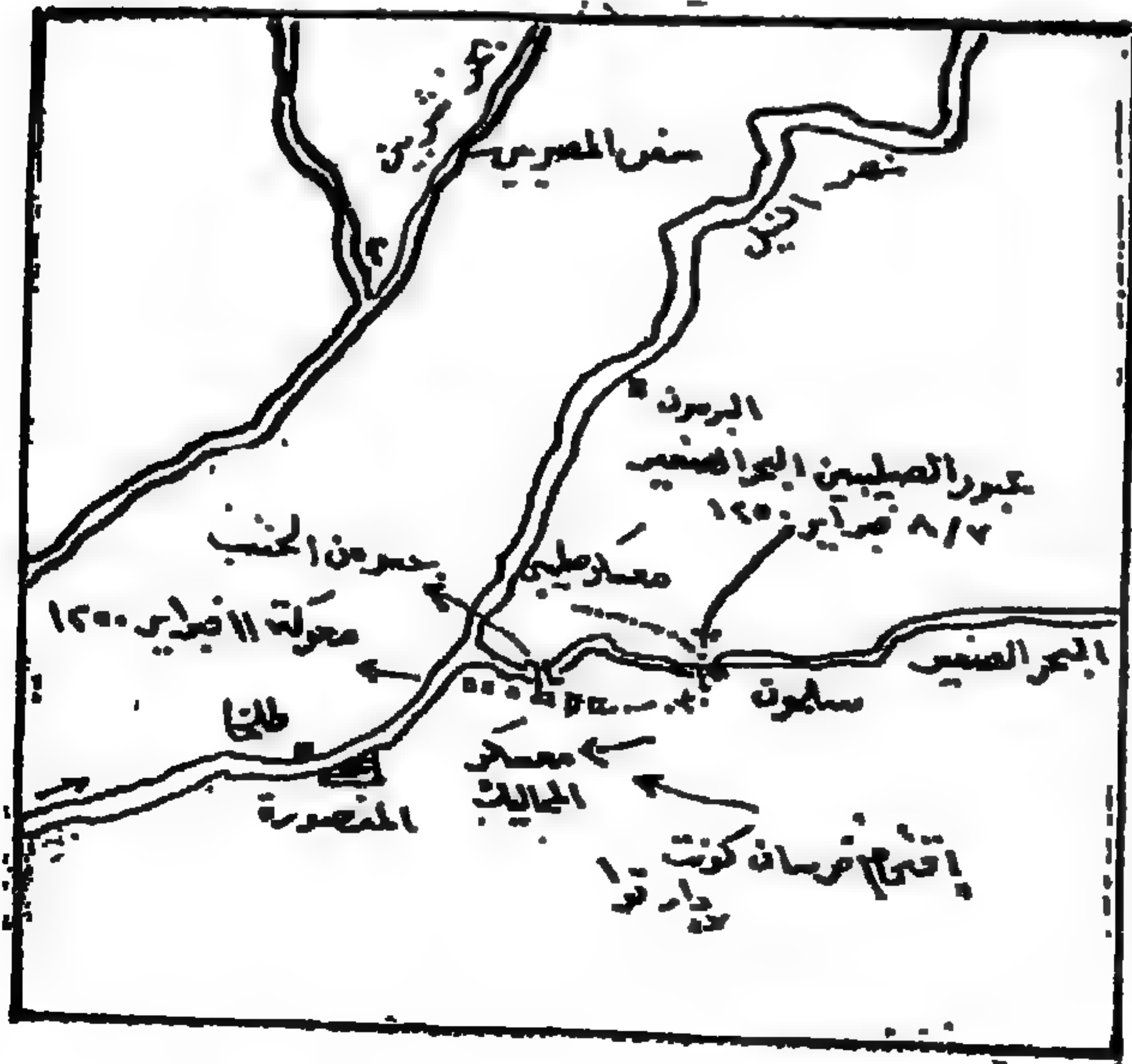
ونزل الصليبيون على تل جديلة^(١) وكانوا قرابة ألف وأربعمائة فارس يتولى قيادتهم الكونت دا أرتوا . أما القوة المصرية التي كانت في جديلة فلبجأت إلى المنصورة مؤقتاً ، ولا سيما بعد أن تحرك الكونت وفرقة ، وملحقاتها من الفرق الأخرى ظهر ذلك اليوم إلى مدينة المنصورة . وطار حمام الزاجل بهذه الأخبار السيئة إلى القاهرة ، ووصلت البطاقة العسكرية بها إلى الأمير حسام الدين ابن أبي علي الهذباني نائب السلطنة عصر ذلك اليوم ، أي يوم الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ .

(١) يعرف تل جديلة في العصر الحاضر باسم الماقولة حيث توجد مقابر هذه البلدة الصغيرة

اقتحام المنصورة وممركتها

ظهر يوم الثلاثاء ٤ ذى القعدة سنة ٥٦٤٧هـ - ٨ فبراير ١٢٥٠

اقتحمت قوات الصليبيين تلك ، أحد مداخل المنصورة الشرقية وانطلقت جميعاً خلف المسلمين الذين سرعان ما توزعوا في أنحاء المدينة وحواليها . ودخلوها دخول الفائزين ، وقد ظن قائدها أن عسكر المنصورة وأهلها هربوا عنها بعد أن سمعوا ما حل بعسكر جديلة ، وانتشر الفرسان الصليبيون بخيولهم الضخمة في الشوارع والأزقة والحارات ، غير أنهم في لحظة خاطفة ، طار ذلك النصر من أيديهم ، إذ باغتهم جيش المماليك الأتراك ، وكان في انتظارهم خارج المدينة ، فردهم على أعقابهم وطارد فلولهم في كل مكان ، ثم أخذ يتعقبهم في الشوارع والأزقة . فلما لاذوا بالبيوت يبتغون الاحتماء بداخلها ، إنهمال عليهم بالضرب سكانها وهم في مجموعات صغيرة وتساقطت فوق رؤسهم القذائف من السطوح والنوافذ ، ولولا وصول الملك نفسه ومعه قوات صليبية أخرى لهلكوا عن آخرهم .



كانت معركة المنصورة معركة الشعب والجيش .. ولا شك أنه لولا تهور قائد هذه الطليعة « الكونت دارتو » شقيق الملك لما حدثت تلك النكبة الشنيعة والهزيمة المنكرة ، فقد غلبت عليه

معركة المنصورة في ٨ و ٧ فبراير و ١١ فبراير

الحماسة وحب السبق ، فاندفع على إثر عبوره المخاضة بفرقة نحو كوكبة من خيالة

المسلمين، فطاردها وتعقبها إلى المعسكر المصري، وعلى يد رجاله ورجال فرقة الداوية التي لحقته كان حتف الأمير فخر الدين. ثم تقدم الكونت دارتوا إلى معسكر المسلمين واستولى على الجهة التي كانت بها الأسهم الحربية والمجانيق، ويظهر أنه كان ينبغي الانفراد بظفر ذلك اليوم من دون بقية الجيوش الفرنجية فلم يقف منتظراً وصولهم إلى حيث وصل، بل تقدم مسرعاً إلى المنصورة ودخلها منصورياً — لجأ إلى بيت قريب من قصر السلطان واعتصم به. ينبغي إيجاد وسيلة سريعة للفرار لكن النصارى لم يلبثوا أن اقتحموا عليه هذا البيت وأخرجوه منه قتيلاً مشغناً بالجراح.

وقتل في هذه المعركة ألف وأربعمائة فارس وكثير من نبلاء فرنسا — بعد أن أبدى الفريقان في القتال بسالة منقطعة النظير، وكان قائد المسلمين في ذلك الهجوم البارع الروع هو بيبرس قائد المماليك البحرية الذي سرعان ما طبقت شهرته الآفاق والذي غدا بعد عشر سنوات سلطاناً على مصر، وهكذا حمل «المسلمون» على الفرنج حملة صادقة زعزعت أركانهم وهددت صفوفهم. أما الصليبيون فقد أظهر ملكهم وأشقائه بسالة رائعة وتضحية نبيلة، إذ كانوا مع جنودهم جنباً إلى جنب، وعرضوا حياتهم لأشد الأخطار حتى أن السيد «جوانفيل» يؤكد أنه لولا شجاعة الملك لهلك في ذلك الوقت الجيش برمته، وهو يصور القتال في هذه المعركة فيقول:

أظهر العدوان مهارة فائقة وصلابة ودربة وقام أبطالهم بأعظم الأعمال وأروعها إقداماً وجراً إذ أن العراك فيها لم يكن بقوس ولا برمح ولا بقذيفة مدفع، إنما كانت صورة مروعة للمحمة هائلة اشتبكت فيها الأجساد البشرية وهي تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف والرماح مختلطة ببعضها ببعض، فليس هناك إلا ضربات ذات اليمين وذات الشمال وهنا وهناك وعلى الرؤوس وفي الصدور وخلف الظهر صيحات تزار وأنات تزفر وكاس المنايا على شفاه الصرعى تدور — وبينذاك طارت ضربة طائشة فصادفت الكونت دارتوا فخر صريعاً لتوه. فأخذ القائد درعه ورداءه أمام المصريين ولكي يوجب نار

الحماسة في صدورهم قال لهم : « هذا هو درع الملك ورداؤه فإن الملك عدوكم قد مات » .

انتصرت المنصورة : شعبا وجيشا ، ويحق لها وحدها أن تفخر بما أفادت على التاريخ المصرى الأيوبي ، والتاريخ المصرى المملوكى بعده ، من أفضال ثلاثة متتابة في ثلاثين سنة ، وهى المدة الواقعة بين نشأتها الأولى زمن السلطان الكامل ، وبين معركة المنصورة التى اشترك فيها المنصوريون بدورهم المجيد ، دفاعا عن مدينتهم . فمن المنصورة وحاراتها وشوارعها وأزقتها الضيقة المسدودة فى كثير من الأحيان ، تجمعت أنواع المقاومة العسكرية النظامية ، وأنواع المقاومة المدنية غير النظامية ، وتعاونت كلها على إفناء الصليبيين المعتدين . . . وكانت تمهيدا للطرد هؤلاء من بلادنا ، فعادوا من حيث أتوا خاسرين نادمين . . .

معركة جديدة

فى مطلع الفجر من اليوم التالى لمعركة المنصورة الكبرى ، أى يوم الأربعاء ٥ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ هـ هجمت فرقة من المشاة والخيالة المصرية الأيوبية على معسكر جديدة حيث بات الملك لويس ٩ وجوانفيل فى حراسة بقايا المجانيق التى غنمها الصليبيون سابقا من ذلك المعسكر بعد مقتل الأمير فخر الدين . ولم يتوقع الملك لويس وأعوانه أن القوات المصرية ستعود إلى الهجوم والمناوشة بهذه السرعة ، ولذا وقع بمعسكر جديدة من المفاجأة للصليبيين ، مثلما وقع به فى اليوم السابق من المفاجأة للقوات المصرية الأيوبية ، غير أنه القياس هنا مع الفارق الكبير بين الحادثين ، لأن الفرقة المصرية الأيوبية ، المهاجمة لم تزد وقتذاك عن كتيبة مشتركة من المشاة والخيالة ، وكان غرض هذه الكتيبة — المناوشة الخفيفة الخاطفة ، ولذا عادت أدراجها بعد أن تحملت خسائر قليلة وبعد أن أصابت عددا من الصليبيين .

وأهم ما حدث فى ذلك اليوم أيضا احتفال قائد القوات المصرية الأيوبية

الجديد، وهو الأمير بيبرس البندقدارى بمظاهرة عسكرية بمدينة المنصورة نفسها. وقد أمر الأمير جلويشيتنه أن ينادوا أيضاً في موكب المظاهرة بأن الاستعدادات جارية على قدم وساق لافتراض الفرصة لمهاجمة الصليبيين بكل قوة ممكنة ، يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ . . . ومما يدهش أيضاً أن أخبار ذلك الموكب ونداءاته وإنذاراته وصلت إلى أسماع الملك لويس التاسع وهو منهمك في إحاطة المعسكر الصليبي الجديد بجديلة بسور خشبي ، بعد أن قوى الجسر الذي أصبح واصلًا بين جديلة والمعسكر الصليبي الشمالى . . ولا ندرى لماذا لم يقيم الملك بعد أن قوى مركزه في جديلة بعمل هجومى كبير نحو المنصورة كشف مدى ما حاق بالطليعة الصليبية على يد شقيقه روبرت كونت أرتوا .

وكيفما كان الأمر ، فقد استجاب الملك لويس إلى نداءات الأمير بيبرس البندقدارى وإنذاراته ، بالإسراع في عملياته التحصينية بمعسكر جديلة ، ثم رتب جيشه من الخيالة والمشاة خلف السور الخشبي لمقاومة الهجوم المصرى المنتظر ، وكانت المشاة الصليبية أكثر عدداً من الخيالة نظراً لكثرة ما خسر الصليبيون من فرسانهم وخيالاتهم في المناوشات السابقة ، وجعل الملك لويس في أقصى اليمين المستندة إلى فرع دمياط أخاه شارل كونت أنجو على رأس فرقة ومعه فئات من بارونات قبرس وفلسطين ، وفي القلب وقف الملك بفرقة الخيالة الملكية ومعه فرقة الفرسان الداوية والبارونات الفرنسيين ، وفي الميسرة وقف ألفونس كونت بواتييه ، ومعظم جنوده من المشاة ، ووراءهم جماعة المهمات وباعة الأطعمة والأتباع ، وأسهب جوانفيل وغيره من المراجع الأجنيبة إسهاباً في وصف ترتيب الجيش الصليبي يومذاك وفي تعيين وحداته وقياداتها الرئيسية والفرعية ، أما المراجع العربية فليس فيها شيء من هذا الإسهاب ، سواء فيما يتعلق بالجيش المصرى أو الجيش الصليبي .

ويذكر جوانفيل أن الأمير بيبرس البندقدارى جعل قواته المصرية الأيوبية في جبهة تشبه قوساً من الفرسان والخيالة ، بلغت عدتها أربعة آلاف ، بحيث

وصلت أطرافها إلى أقصى أطراف لليمنة والميسرة الصليبية ، وطوقت المعسكر الصليبي كله تطويقاً تاماً من ناحيته ، واصططت وراء هذه الجبهة من الفرسان والخيالة المصرية الأيوبية جموع كبيرة من المشاة والرماة لحماية حركاتها الهجومية ، كما اصططت وراء هؤلاء وأولئك جموع احتياطية مشتركة لحماية المؤخرة من أية حركة جانبية . ووقف الأمير بيبرس وسط فرسانه وخيالته ومشاته ، وأجال بصره في تنظيمات الملك لويس ووحداته الصليبية ، فكلماً شاهد تركيزاً صليبياً جعل قبائله تركيزاً مصرياً أيوبياً مشابهاً ، على حين أنفذ فئة كبيرة عدتها ثلاثة آلاف من العربان للزحف شرقاً إلى مخاضة مجهولة الاسم ، بعيدة عن الجبهة لعبور بحر أشموم طناح ، ومهاجمة دوق برجنديا والمعسكر الصليبي الشمالي .

وظل الأمير بيبرس منذ صباح يوم الجمعة إلى الظهيرة ، وهو يتنقل بين الصفوف استعداداً للهجوم العام ، ووقف لويس التاسع وقادته خلف السور الخشبي وقفة المتربص للدفاع ، وفي ذلك ما يدل دلالة على أن القوات المصرية الأيوبية كانت على أهبة الانتفاع بنتائج معركة المنصورة ، بأخرى مثلها أو أشد منها ، وذلك بهجوم خاطف حاسم ، وأن في نيتها القضاء على الجيش الصليبي واسترجاع معسكر جديدة بأى ثمن .

وضح هذا العزم حين صدرت الأوامر إلى القوات المصرية بالهجوم العام ، إذ امتلأ الجو بأصوات الطبول والكوسات والنقارات والابواق ، وزحفت الخيالة والمشاة المصرية من جميع الجهات إلى المواقع الصليبية في وقت واحد تقريباً ، وأخذت نبال الرماة وقذائف النيران الإغريقية تعمل عملها الذريع بين فئات الصليبيين . وكانت تعليمات الملك لويس أن يثبت القادة الصليبيون في مواضعهم بالجبهة ، مهما تكلفوا في سبيل ذلك من الخسائر ، وأن يحفظوا لصفوفهم تكويناتها الدفاعية حتى تنتهى وطأة الهجوم المصرى الأيوبى ، بانتهاء ما به من حماسة ، ولذلك حمى القتال بين الجانبين إلى درجة ارتفعت بتلك المعركة إلى مستوى المارك الحاسمة .

ثم وصل الخبر إلى لويس بأن الميمنة الصليبية قرب فرع دمياط بقيادة

أخيه شارل تكاد تنهار تحت أقدام الخيل والخيالة المصرية ، فضلا عن فتك النار الإغريقية وأن حياة شارل في خطر . فركض الملك لويس شاهراً سيفه ، وشق الصفوف الصليبية المتراصة لتخليص أخيه قبل قوات الأوان ، وأصابته النار الإغريقية ذيل الفرس وهي راكضة ، فزاد ركضها عنفا واختل توازنها . ولم يلبث الملك أن وصل إلى حيث كان أخوه شارل واقفاً يدفع عن نفسه يميناً ويساراً ، وجنوده يقاومون الهجوم المصرى مقاومة مستميتة وتتحمل الخسائر في سبيل البقاء في مواضعها ، وبفضل وصول الملك لويس إلى الميمنة الصليبية ، نجح شارل ككونت أنجو من مصير حاق مثله سابقاً بأخيه روبرت ككونت أرتوا ، يوم معركة المنصورة ، وتحول الهجوم المصرى الأيوبى إلى أطراف القلب الصليبي ، حيث كانت أشد أنواع المقاومة الصليبية ثباتاً وصلابة منذ بداية القتال^(١) .

أما في ناحية الوسط من القلب الصليبي ، حيث وقف رئيس فرسان الداوية وليام سوناك ، وحوله الفئة القليلة التي بقيت له من فرسانه ، بعد ذهاب معظمها في معركة المنصورة . وأصابته شظية عين الرئيس سوناك فأضاعها ، مع العلم بضياغ الأخرى قبل ذلك في معركة المنصورة ، ثم لم يلبث الرئيس سوناك أن مات متأثراً بجراحه الكثيرة التي أصابته في ذلك اليوم ، كما مات معظم البقية الباقية من فرسانه لكثرة ما انهال عليهم من رمى النبال وقذائف النار الإغريقية .

أما الصفوف الصليبية الأخرى من ناحية الوسط من القلب حتى اليسرة ، فكان أقربها إلى مواضع فرقة الفرسان الداوية ، فرقة فرنسية ألحقت النار الإغريقية بها كذلك خسائر فادحة ، ثم فرقة الفلاندرين بقيادة كونتها ، ووراءها فرقة جوانفيل والشمبانين ولم تنزل بفرقة كونت فلاندر خسائر غير عادية .

أما اليسرة الصليبية وعلى رأسها الفونس كونت بواتيه ، فتألف معظمها من المشاة ، وكان نصيب هذه الفرقة الهزيمة ، فضلاً عن وقوع الكونت في

(١) المصدر السابق ، ص ١٧١ — ١٧٢ .

الأسر عند أول الهجوم المصرى الأيوبي ذلك اليوم . وخشى جماعات المهمات والتموين والأتباع مما سوف يحل بهم من الأسر ، فاندفعوا نحو المهاجمين من القوات المصرية اندفاعاً جنونياً ، وما زالوا فى اندفاعهم حتى وصلوا إلى كونت بواتييه وأرجعوه معهم إلى فرقته . وهكذا انتهى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه زهرة الجيوش الصليبية ، ورجعت القوات المصرية إلى قواعدها سالمة بعد أن أدت واجبها الهجومى كما أرادها قائدها الأمير بيبرس . ويقول المؤرخ محمد مصطفى زيادة أن ذلك اليوم ينبغى أن يسمى يوم معركة جديلة الكبرى ، تمييزاً له من يوم معركة جديلة السابقة ، وهو يوم الكارثة التى استشهد فى أولها الأمير فخر الدين يوسف . ويقع يوم جديلة الكبرى فى يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ ، وما يثير الدهشة أن المراجع العربية المعاصرة منها والمتأخرة لم تذكر هذه المعركة ! مع أنها وردت مفصلة فى جوفانفيل ومخطوطة أخرى تعرف بالروتلانية .

ثم وقف القتال فجأة بين الفريقين المتقاتلين لأسباب غفلت عنها المراجع كلها . ومن المحتمل أن الصليبيين شغلوا فى ذلك الحين بقتلهم وانتشالهم من المياه ودفنهم ، وكذلك العناية بجرحاهم وأخيرا ، شغلوا فى إعادة تنظيم صفوفهم^(١) .

أما أسباب توقف القوات المصرية الأيوبية عن أية حركة بعد أن أدت واجبها يوم معركة جديلة الكبرى ، فيبدو منها أن الهجوم على الخطوط الصليبية ذلك اليوم ، برغم قلة خسائرها بالقياس إلى خسائر العدو ، استلزم إعادة تنظيم الصفوف المصرية قبل القيام بأى هجوم عام آخر . ثم كانت هناك حالة القلق التى نجمت عن وصول توران شاه إلى المنصورة ولا سيما عند القادة المماليك الذين تحملوا أعباء القتال والنصر . ولعل الجفوة الصامتة التى نشأت

1. Dauvies : The Invasion of Egypt by Louis IX of France. Sampson Low, London 1897.

بين توران شاه ، وقادة القوات المصرية في المنصورة ومعظمهم من المماليك هي ، التي أدت بالسلطان توران شاه إلى التحول عن متابعة الهجوم البري على مواقع الصليبيين في جديدة إلى خطة نهريّة محورها تجويعهم في ذلك المعسكر بقطع مواصلاتهم في النيل مع دمياط ، دون حاجة إلى الاستعانة في تنفيذ ذلك بالقوات المصرية الأيوبيّة البرية بدليل انعدام أية معركة برية بين المتقاتلين بعد معركة جديدة .

ويصف المؤرخ جوافيل خطة الهجوم التي أحكمها بيبرس والتي تدل على مهارته وحنكته في تدير حركات المارك ، فيقول :
« أرسلت الشمس أو خيوطها ، ورأينا الأرض كأنها تتحرك أمام ناظريها . وقد أقبل أربعة آلاف فارس يحملون سلاحهم ، ويتهادون على ظهور جيادهم في منظر رائع ، ووقفوا تجاهنا في أبدع نظام . وبعد قليل ظهر من خلفهم جيش جرار من المشاة ، حجب من كثرتهم أمامنا وجه الأفق . . فأحاطوا بجيشنا كله وعلى الأثر تبدى من وراء هؤلاء جيوش أخرى لا يعرف البصر مداها فاصطفت في المؤخرة على نسق عجيب . ولاح القائد المصري على رأس جيوشه بنظامها ويرتب صفوفها وأماكنها فلما انتهى من ذلك ، تقدم وحده على ظهر جواده ، وسرح البصر في قواتنا . . فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جنودنا أوفر ، وباتقاصها في الأماكن التي يرانا فيها أقل قوة . وظل هذا القائد منهمكا في تلك العمليات حتى إذا ما انتصف النهار وقف وسط جنوده في مهابة وجلال ، وبإشارة من يده دوى في الفضاء فجأة صوت الطبول وضرب النقرزان ، وكأنما زلزات الأرض وانتفضت السماء بقصف الزعود . فامتلاّت بالدهشة والروعة قلوب أولئك الفرنسيين الذين ما دق سمعهم من قبل مثل هذا الصوت الرهيب . ثم بدأ الفرسان والمشاة في السير معا في خطوة واحدة وفي كل جانب وبدأ الهجوم

وتنقلت فرق العدو على رقعة الميدان بنظام عجيب ، كأنها لاعب ماهر ينقلها على رقعة شطرنج ، واندفع مشاتهم نحو رجالنا فأصلوهم بالنار الإغريقية .

ثم انقض فرسانهم في سرعة عظيمة وحماسة هائلة على فرقة الكونت دانجور فأنزلوا بها هزيمة نكراء . وكان الكونت منتصباً على قدميه ، ومعرضاً نفسه للخطر المحقق لولا أن أنقذه أخوه الملك ورد الأعداء عنه . بيد أن الجيش أصيب بضربة قاضية . فبين الفرق السبع التي يتألف منها هلكت اثنتان إحداهما بقيادة فرايار ولیم سوناك قائد الفرسان الداوية وكان قد دخل المعركة بمن بقوا على قيد الحياة من رجاله بعد موقعة يوم الثلاثاء المروعة . ولما كان شاعراً بضعفها فقد أقام أمام معسكره حاجزاً من المتاريس الخشبية يكون من بعض ما غنموه من العدو وما جمعه من كتل الخشب . ولكن هذا كله كان عبثاً لا طائل تحته — فقد أحرقه المصريون بنارهم ، وأطبقوا على رجال الفرقة في شدة عنف ، وسرعان ما قضوا عليهم القضاء المبرم . وكان قائدها سوناك فقد إحدى عينيه في معركة يوم الثلاثاء الآتفة الذكر ، ففقد الثانية في هذه المعركة ثم سقط قتيلاً وهو يدافع لآخر رمق دفاع الأبطال .^(١)

أما الفرقة الأخرى التي فتك بها العدو فكانت بقيادة الكونت دي بواتيه ، وهي تتألف من المشاة عدا الكونت قد كان راكباً جواده ، فأيدت هذه الفرقة عن آخرها وأسرت قائدها غير أنه تمكن من الفرار إلى معسكر الفرنج .

والفرقة التالية لفرقة الكونت (دي بواتيه) كان على رأسها جوسيران دي برانسون وهي أضعف الفرق جميعاً وتشكون من المشاة ، فنفذ العدو بين صفوفها في كل جانب وأوشك أن يفنيها كلية لولا أن أدركها الكونت « دي كون » بجماعة كبيرة من جنود حملة القسي من الضفة الأخرى للبحر الصغير ، فأنقذوا بعض رجالها وإن كان دي برانسون سقط قتيلاً وخر بجواره صفوة فرسانه ومعظم البواسل من جنده .

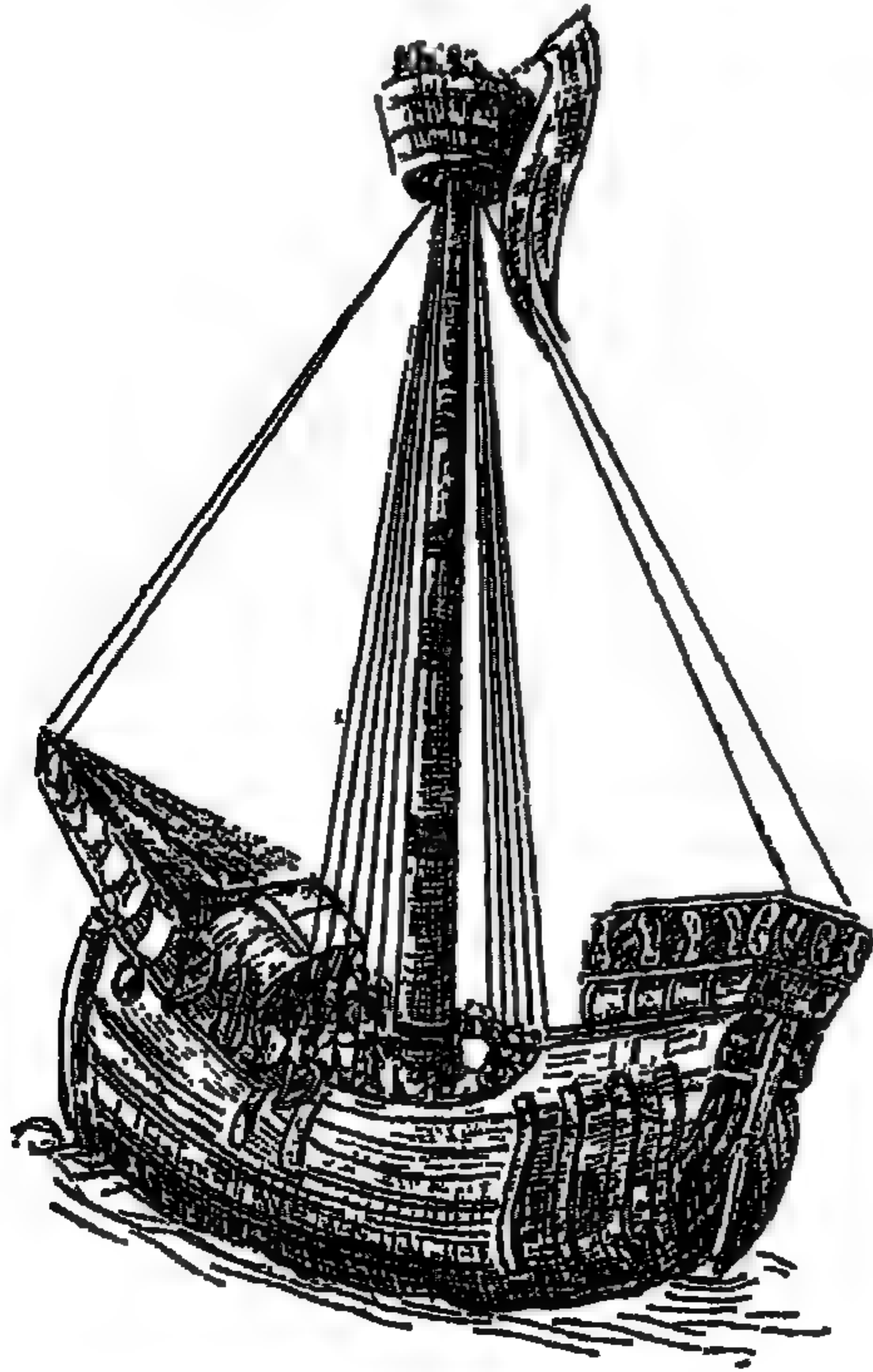
توقف المصريون عن القتال وتركوا الفرنسيين في أخطر المواقف وأحرجها

(١) ذكرنا ذلك في كلام سابق

فإن محاولتهم — بعد ذلك الهجوم على المصريين كانت مستحيلة في حين أن بقاءهم في أماكنهم كان معناه الهلاك المؤكد — ومع ذلك فمن المدهش أنهم لم يتحركوا وأضاعوا الوقت كما أضاعوه مراراً من قبل . . فكان كل يوم يمر يزيد مركزهم سوءاً ، إذ تنفّس فيهم مرض مزيع ولم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا أن يلقيوها في النيل والقناة ، غير أنه بعد أيام قلائل طفت هذه الجثث على سطح الماء طبقة من الجثث المشوهة ، هي كل ما بقي من أولئك المحاربين التمساء .

والواقع أن الوباء انتشر بسرعة مدهشة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ظهر أيضاً مرض الاسكربوط نتيجة لنفاذ المؤونة وقلة التغذية — فأصيب معظم رجال الجيش ، حتى الخيل لم تنج منه ونفقت . ومع كل هذا فإن فكرة الانسحاب لم تدر بخاطر الصليبيين حتى ذلك الوقت .

وفي يوم ٢٥ فبراير ١٢٥٠ وصل توران شاه إلى المنصورة وما أن دخل المدينة حتى نودي به سلطاناً على مصر — ووضعت شجرة الدر سلطتها بين يديه . وعندئذ أعلنت وفاة السلطان صالح نجم الدين رسمياً .



حراقة مصرية

عمليات الأسطول النهرية

معركة بحر المحلة

تنفيذاً للخطة النهرية الجديدة ، أمر السلطان توران شاه بعد استقراره بالمنصورة ، بسحب عدد من المراكب المصرية الراسية جنوباً عند إحدى الموانئ النيلية القريبة ، وفك هذه المراكب قطعاً على ظهور الجبال إلى بحر المحلة ، ثم إعادة تركيبها وشحنها بالمقاتلة هناك ، لإقلاعها شمالاً إلى مصب هذا البحر في النيل قرب شربين الحالية ، حيث تكمن هذه المراكب بالمرصاد للسفن الصليبية-التموينية التي يعتمد الصليبيون على وصولها إليهم تباعاً من دمياط . وانتهت هذه العملية في سرعة هائلة . وسارت قافلة صغيرة من هذه المراكب المصرية في بحر المحلة سيراً حاذراً حتى وصلت إلى فوهته قرب شربين الحالية . وتسالت من

هناك على حذر

إلى مجرى النيل،

لكن السفن

الصليبية المكلفة

بحراسة المجرى

بين المنصورة

ودمياط، لم تلبث

أن كشفت هذه

المراكب المصرية

القليلة وكانت من

النوع المعروف

باسم الخرايق ،

فهاجمتها واستولت

على سبع منها ،



معركة مسجد النصر النهرية

بعد أن أفلت بجارتها منها لكي لا يقوا في أيدي الصليبيين . وكان ذلك في

يوم الإثنين مستهل ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٧ مارس سنة ١٢٥٠ أى بعد ١١ يوماً من وصول توران شاه إلى المنصورة .

وبعد أيام تكاملت المراكب المصرية في بحر المحلة وازداد عددها وظهر بينها مراكب حربية كثيرة من النوع المعروف باسم الشوانى (واحدتها شينية) . وكن عدد من هذه الشوانى الحربية عند فوهة بحر المحلة في انتظار قافلة من سفن «المؤونة الصليبية» التى بارحت دمياط وقتذاك ، كما خرج عدد آخر من هذه الشوانى إلى مجرى النيل وسار فيه جنوباً حتى وقف على مسافة جنوبى شربين لقطع الطريق على السفن الصليبية ، إذا هى نجحت فى الإفلات من الشوانى المصرية «الكامنة» لها بالمرصاد . فلما جاوزت القافلة الصليبية شربين ، تحركت فى اتجاهها الشوانى المصرية من كمينها ولحقت بها واشتبكت معها فى معركة نهريّة كبيرة ، ولاسيما بعد تعزيزها بالشوانى التى انحدرت إليها عائدة من ناحية جنوبى شربين . وهكذا هجمت الشوانى المصرية الأيوبية على السفن الصليبية من ناحيتين فى وقت واحد ، وأخذتها أخذاً ويلاً ، وكانت عدة هذه السفن الصليبية اثنتين وخمسين سفينة ، واستولت الشوانى على حمولات تلك السفن الصليبية التوينية كما أخذوا رجالها أسرى وعدتهم قرابة ألفى رجل وأرسلوهم على ظهور الجبال إلى المنصورة . . ويقول المؤرخ محمد مصطفى زيادة أنه ينبغى أن تسمى هذه المعركة باسم معركة بحر المحلة .

هزيمة صليبية فى معركة مسجد النصر

تلا معركة بحر المحلة هزيمة نهريّة أخرى ، وتناخص فى أن قافلة ثانية من قوافل المؤونة الصليبية القادمة من دمياط ، وعدتها قرابة ٣٢ سفينة محملة بالحبوب والأعلاف ومن بينها سبع شوان صليبية حربية حارسة ، حاولت اختراق خط الشوانى الحربية المصرية التى غدت مهيمنة على مجرى النيل تمام السيطرة ، واصطدمت هذه السفن الصليبية بالشوانى المصرية عند موضع غير معروف على وجه التحديد ^(١) حتى العصر الحاضر ، واسمه مسجد النصر فى المراجع العربية ،

(١) محمد مصطفى زيادة : حملة الملك لويس التاسع على مصر من ١٨٠ — ١٨٢ .

وهو على مسافة سبعة كيلومترات شمال المنصورة حسب تقدير جوفانفيل ، وهناك
نسبت معركة نهريّة هائلة ، وانتهت هذه المعركة بوقوع السفن الصليبيّة في أيدي
رجال الشوانى المصريّة ، ماعدا سفينة صليبيّة صغيرة تابعة لكونت فلاندر فقد
أفلتت في الظلام ، وأخبرت باستيلاء الشوانى المصريّة على القافلة الصليبيّة كلّها ،
فضلا عن حولتها التموينية . وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٩ ذى الحجة سنة ٦٤٧هـ
أي يوم وقفة عرفات ، الموافق ١٥ مارس سنة ١٢٥٠

وتعتبر معركة مسجد النصر النهريّة خط تقسيم المصائر في تاريخ حملة لويس
على مصر فقد أكّدت سيطرة المراكب الحربيّة المصريّة على الطريق النهري بين
دمياط والمنصورة ، وجعلت الجيوش الصليبيّة تحت رحمة هذه السيطرة التامة .

• • •

ولكى يتقّى الملك لويس هذه المصائب ، جنح إلى سياسة إنقاذ ما يمكن
إنقاذه ، ورأى أولا أن يجلو الجيش الصليبي عن جديلة ، بالانتقال عن طريق
الجسر المعروف إلى شمال بحر أشموم طناح ، حيث أقام دوق برجنديا بجزء
كبير من القوات الصليبيّة منذ بدأ القتال ، ووافق جميع البارونات الصليبيين
على ذلك المشروع ، وبدأوا في تنفيذه . فأقاموا برجاً خشبياً واطنّاً عند مدخل
الجسر ، وشحنه بفتة من رماة النشاب لحماية الفرق الصليبيّة في أثناء انسحابها
من معسكر جديلة ولإخفاء عبورها عن أنظار المصريين على قدر الإمكان ،
وترتيب عملية العبور بحيث جعل الملك لويس التاسع فرقة الملكيّة في المؤخرة
وراء جميع الفرق الصليبيّة الأخرى ، على أن يكون القائد الفرنسي والتر شاتيون
في آخر تلك المؤخرة لحماية الجيش الصايبي المنسحب من أية حركة مفاجئة معادية ،
ولذا لم يلبث معسكر جديلة أن عمته الحركة بعدما خيم عليه سكّون اليأس والوباء
والجّاعة مدة ثمانية أسابيع ، أي منذ معركة جديلة الكبرى ومعركة مسجد
النصر النهريّة ، ولحّت القيادة المصريّة الأيوبيّة هذه الحركة ، دون أن تهتدى
إلى أهدافها ، لكنها اتخذت العدة لجميع الاحتمالات^(١).

(١) المرجع السابق ذكره ، ص ١٨٣

وأخيراً، ومن المحتمل يوم ١٦ ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢٢ مارس ١٢٥٠ بدأت الفرق الصليبية فرساناً ومشاة في العبور ، فهجمت عليها من فورها كتيبة من الخيالة المصرية وحملت على البرج الخشبي عند رأس الجسر . وتلقت فرقة المؤخرة الملكية الصليبية هذا الهجوم المصري ، وقصدت له وشغلته بالمناوشة حتى انتهى عبور جميع الفرق الصليبية إلى شمال بحر أشموم طنوح ، ثم عبرت المؤخرة الملكية حسب الترتيب . ولذا لم يبق من الفرق الصليبية عند رأس الجسر سوى فرقة شاتيون وهى نهاية المؤخرة الملكية . فتعرضت هذه الفرقة لواابل كثيف من رماة كتيبة مصرية ، وكادت عساكرها تقع في الأسر ، لولا عودة شارل كونت أنجو لنجدها وتمكنه من معاونتها في العبور .

ومع ذلك فإن انسحاب الملك لويس بجيشه كله إلى المعسكر الصليبي الشمالى لم يخفف شيئاً من أحوال المجاعة والمرض بين عساكره ، بل أخذت القوات تنفذ من المخازن لنقص الوارد منها إليهم من أية ناحية وارتفعت الأسعار ، في عيد الفصح وكان يوافق ٢٧ مارس ١٢٥٠ . ولذلك لجأ الملك لويس إلى وسيلة طلب المفاوضة والمهادنة مع السلطان المعظم توران شاه .

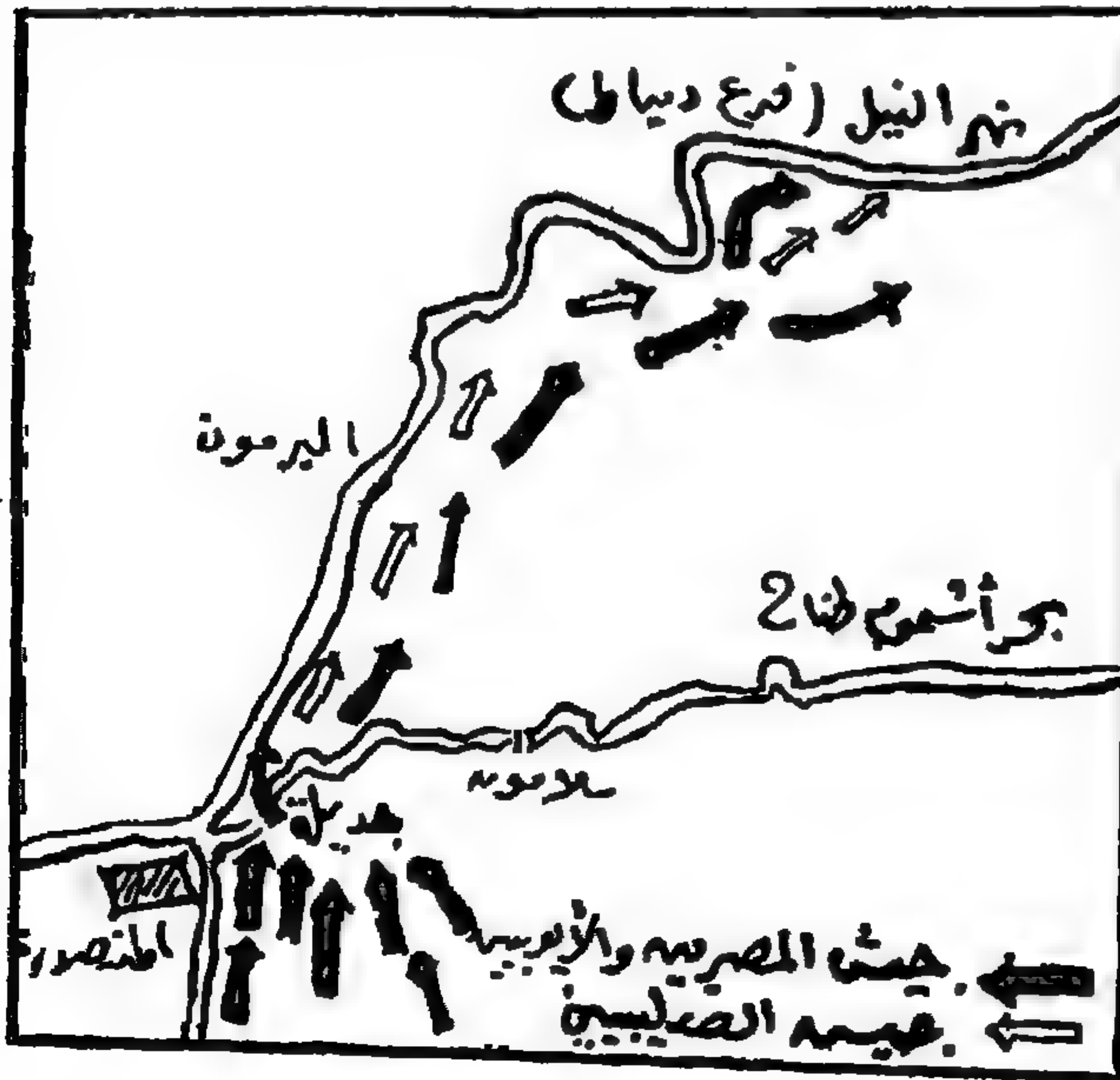
وفي أواخر مارس ١٢٥٠ جاء إلى المنصورة وفد صليبي يرأسه كونت فيليب مونتفورت زعيم البارونات الصليبيين المحليين ، ومن أقرب المقربين إلى الملك ومعه فارس آخر ، وقابل هذا الوفد نواباً مفوضين رسميين من عند السلطان ، ومنهم قاضى القضاة بدر الدين حسن بن يوسف السنجارى ، والأمير زين الدين أ.ير جاندر . وعرض الوفد الصليبي استعداد الملك للانسحاب بحملته شمالاً إلى دمياط ، تمهيداً للجلاء التام عن السواحل المصرية ، على شروط نزول السلطان توران شاه لملكة عكا الصليبية عن مدينة بيت المقدس وبعض المدن الساحلية في فلسطين ، غير أن الجانب المصرى كان عليماً بالحال في المعسكر الصليبي ولذا لم يجد المقوضون المصريون مسوغاً لقبول هذه الشروط العجيبة ، وفشلت المفاوضات وانتهت وكأنها لم تبدأ ...

ونتيجة لفشل هذه المفاوضات واستمرار سوء الحال عند الصليبيين ، اختمرت

في رأس الملك فكرة الانسحاب بالجيش الصليبي كله براً ونهراً إلى دمياط ، عاجلاً وبأية وسيلة ، غير أن بعض البارونات اقترحوا على الملك أن يسبق هذا الانسحاب العام بالرحيل بنفسه خلسة إلى دمياط في ظلام الليل مع فئة من حاشيته عن طريق البر أو النهر، وذلك ليكون بعيداً عن أخطار الانسحاب السريع ، ولكن الملك لويس أبي أن يعمل بهذا الاقتراح ، بل أعلن أن موضعه سوف يكون في آخر المؤخرة وراء المنسحبين ، كما حدث أثناء الجلاء عن جديلة .

الانسحاب :

ولم يكن هذا الانسحاب سهل التنفيذ ، نظراً لضعف الروح المعنوية في الجيش الصليبي ، فضلاً عن طول المسافة من المنصورة إلى دمياط العصور الوسطى ، وهي قرابة ٢٢ كيلو متراً من شمال المنصورة إلى شرماسح ، وثمانية وعشرين كيلو متراً من شرماسح إلى فارسكور ، وعشرين كيلو متراً من فارسكور إلى دمياط العصور الوسطى ، وتبلغ هذه المسافات في مجموعها سبعين كيلو متراً ، وهي كثيرة المراقيل المائية .



الانسحاب الجيش الصليبي العام

وقرر أن يكون البدء في تنفيذ الانسحاب مساء يوم الثلاثاء بعد عيد الفصح الكاثوليكي أي مستهل المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٥ أبريل سنة ١٢٥٠ ، فتحرك الصليبيون

متجهين صوب الشمال تاركين وراءهم أكداساً مكدسة من العتاد الثقيل والذخيرة والمهمات وحاجات الجيش . . نعم تركوها غنيمة للمصريين .

وكان الجيش المصرى يجوس طوال الليل أنحاء الجبهة ويتصيد من يقع فى يديه من المتعبين أو المهارين فى الوقت الذى كانت فيه مؤخرة الصليبيين بقيادة السير والتر شاتيلون تبذل الجهد الجبار لستر الانسحاب .

تبع المصريون الجيش المنسحب وهما فى حالة يرثى لها ، واستمر النضال وطالت المطاردة حتى وصلوا إلى فارسكور وهى تكاد أن تكون فى ثلثى المسافة إلى دمياط ، وهناك توقفوا إذ أصاب المصريون الجهد من جراء المطاردة والقتال . وفى خلال ذلك كان الملك لويس مريضاً بالدوسنطاريا المنتشرة بالمعسكر الصليبي وهو لا يكاد يستطيع الحراك ، لكنه رفض أن يكون طريح الفراش على ظهر إحدى السفن المنسحبة فى النيل مع سائر المرضى والجرحى العاجزين ، وأصر على البقاء فى موضعه من المؤخرة . وفى آخر الليل هبت رياح عكسية قللت من سرعة السفن الصليبية الحربية وغير الحربية ، ولم تلبث هذه السفن أن وجدت نفسها قبالة المراكب المصرية المصطفة عند موضع مسجد النصر على أهبة القتال ، وفى محاذاتها فئة من الفرسان والرماة المصريين المزودين بالنبال والنار الإغريقية . وعندئذ هربت مجموعة السفن الصليبية المكلفة بحراسة السفن الحملة بالمرضى والجرحى الصليبيين ، واتخذت سبيلها فى النيل إلى الشمال للنجاة قبل فوات الأوان ، على حين نشبت معركة نهريّة بين السفن الصليبية الحملة بالمرضى وبين القوات المصرية فى البر والنهر ، ونزلت القذائف المصرية الأيوية على هذه السفن الصليبية فى أثناء تلك المعركة ، من رماة فى البر وفى النهر . . . واختلط الحابل بالنابل وكثر عدد القتلى من المرضى والجرحى الصليبيين بهذه السفن بعد الاستيلاء عليها فى سرعة ويسر . وبلغت الغنائم التموينية التى استولت عليها السفن المصرية من وفرة الكمية . مثلما بلغ القتلى الصليبيين من كثرة العدد ، ويقع جوا نفيلى فى الأسر، ولماعرف أسر وه أنه قريب الملك أحسنوا معاملته واستضافه أمير السفن المصرية حتى يوم ١٠ أبريل سنة ١٢٥٠ وأركبه معه فرساً للنزهة على شاطئ النيل

بعض الأحيان . ثم ذهب جوفانفيل مع الذاهبين من الأسرى الصليبيين إلى معسكر المنصورة ، حيث علم أن الملك لويس التاسع ، ومعظم البارونات الأوربيين والمحليين وقعوا كذلك في الأسر ، وأن الانسحاب الصليبي العام في البر ، كان أتعس حظاً وأشد كارثة مما حل بالسفن الصليبية في النيل .

الانسحاب البري

وكانت بداية الانسحاب الصليبي البري العام كبداية الانسحاب النهري مساء يوم الثلاثاء، واتخذت الفرق الصليبية البرية من الليل ستاراً كما حدث في الانسحاب النهري بعد أن جعل الملك موضعه في ذيل المؤخرة وازداد المرض عليه في ذلك المساء حتى أمسى لا يستطيع امتطاء فرسه لشدة ما كان يشعر به من الاضطراب المعوي .. ولصعوبة المراقيل المائية ، تطور الانسحاب الصليبي البري إلى سير متعثر بطيء تعوقه الهجمات المصرية الجريئة العنيفة بقيادة بيبرس دون أن

يستطيع الصليبيون الدفاع عن أنفسهم ... وازدادت حالتهم سوءاً ساعة بعد ساعة



وفي صباح الأربعاء ٦ أبريل ١٢٥٠ تراءت القوات المصرية الزاحفة وهي تسير في شكل قوس ضخم يحتوى على أعداد هائلة من الفرسان والمشاة، وهذه القوات تنتظر إشارة من قائدها بيبرس للاطباق من طرفي هذا القوس على الوحدات الصليبية المنسحبة

صورة محفورة على الخشب مأخوذة من كتاب فرنسي صدر عام ١٥٢٢ يظهر فيها الملك لويس عابساً ومقيداً في يديه ويحاط به أحد أخويه وحولهما جند مصريون أيوبيون

المدعورة ، وعند منتصف هذا القوس وقعت مناقشات متكررة على مؤخره الصليبيين تبتغى الوصول إلى شخص الملك لأمره بأية وسيلة ولحمل الصليبيين على الاستمرار في القتال دون ملك يقودهم . . وبعد ساعتين من هذا الصباح أخذ شكل القوس المصرى يضيق رويداً رويداً ، ويتحول من شكل قوس إلى شبه حلقة ناقصة ، ثم لم تلبث القوات المصرية الأيوبية أن أحبطت حوالى ظهر ذلك اليوم على الصليبيين لإبادتهم عن آخرهم قبل أن يصلوا إلى شار مساح للاحتماء بها ، وخشى فارس الملك جودفرى مما عسى أن يحل بسيدته الملك الذى كان لا يستطيع حرا كما لشدة مرضه ، فبادر جودفرى إلى الفرار به . وأوصله إلى مكان معروف له من قبل فيما يبدو ، بقرية ميت الخولى عبد الله الحالية على الشاطئ الشرقى للنيل ، وهناك اعتصم الملك لويس بموضع اسمه تل قونه حيث آوى إلى نيت ريفى من بيوت هذه القرية ولحقه بها أخواه وكثير من كبار بارونات . وكان الملك وقتذاك فاقد الوعى ومعنى عليه . وكان الأمل فى بقاءه حياً يتضاءل^(١)

ويقرر المؤرخون العرب أن فى قتال الانسحاب قضى من الصليبيين ثلاثون ألف رجل وقد يكون هذا التقدير مبالغاً فيه . ولكن الشئ المفروغ منه هو أن من بقى من الجيش الصليبي عقب ذلك كان عليه الاختيار بين الموت أو العبودية إلا إذا اعتنق الإسلام ، وأحاط المسلمون بالقوات الفرنجية وأجروا فيهم سيوفهم واستولوا عليهم بين قتل وأسرى ، أما ماغنموه من الخيل والبغال والأموال فكان مما لا يحصى .

ويرجع فضل كبير فى تحقيق هذا النصر إلى بلاء المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى بلاء حسناً ، وشجاعتهم وانتهازهم فرصة انسحاب العدو فى صورته التعيسة .

(١) المرجع السابق لزيادة ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

الملك الأسير

يروى « جوانفيل » قصة اعتقال الملك كما سمعها من بين شففى مولاه ،
فيقول : « تخلف الملك عن فرقته وانضم إلى فرقة السير « والتردى شاتيلون »
الذى يقود مؤخرة الجيش ، وكان ممتطياً صهوة جواد صغير ولم يكن معه من
رجالاه سوى ذلك الفارس الأمين « سير جيوفرى سيرينجتين » الذى دافع عنه
حتى بلغ الإعياء بالملك مبلغاً قاتلاً ، فتوقف الملك ومن معه على مقربة من بلدة



تدعى منية
عبد الله على
مسيرة بضعة
فراسخ فى الشمال
من المنصورة ،
وهناك أحاط
بهم العدو
وأصبحت
المقاومة إذ ذاك
عبثاً ، فسلموا
أنفسهم بعد أن
أمنهم العدو على
حياتهم وكان
عددهم يربو على
الخمسمائة
ومعظمهم من
الفرسان النبلاء ،
وفى الحال أخذ

الملك لويس التاسع فى الأسر

المصريون الملك على إحدى السفن ونقلوه إلى المنصورة حيث اعتقل في دار إبراهيم
ابن لقمان كاتم سر السلطان ، وهناك ألقوه مقيداً بالسلاسل ، وألقوه في حراسة
الخصي صبيح الذي أمر بأن يعامله بما يليق بمقامه من التجلة والاحترام .
ولا تزال هذه الدار التي أسر فيها الملك لويس التاسع باقية بالمنصورة
بجوار مسجد الشيخ المواقى ، ويقوم فيها اليوم متحف تاريخي لتخليد آثار الانتصار
في المعركة .

وتذكر المصادر العربية أن السلطان المعظم أرسل غفارة الملك^(١) إلى نائب
دمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور فلبسها وهي أسكر لاط أحمر^(٢) تحته
فرو سنجاب وفيها مشد من ذهب ، فنظم الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن إسرائيل
مقطعات ثلاثاً ارتجالاً كل مقطعة بيتان في مدح السلطان والأمير : الأولى
إن غفارة القرنسيين التي جاءت حياء لسيد الأمراء
بياض القرطاس في اللون لكن صبغتها سيوفنا بدماء
والمقطعة الثانية للأمير :

يا واحد العصر الذي لم يزل يجوز في نيل المعالي المدا
لازلت في عز وفي رفعة تلبس أسلاب ملوك العدا
والثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب إلى السلطان :

أسيد أملاك الزمان بأسرم وتنجزت من نصر الآله وعيده
فلا زال مولانا يفتح حتى العدى ويلبس أسلاب الملوك عبيده

نهاية السلطان توران شاه (٢ مايو ١٢٥٠) (يوم الاثنين ٢٨ محرم
٦٤٨ هـ)

وفي خلال المارك الدامية بين المسلمين ، انفجر بركان ثورة مفاجئة ، فانقلب
كل شيء وتبدل مؤقتاً سير الأمور .

ذلك أن توران شاه كان قد ورث عن أبيه الصالح نجم الدين ذلك الوجه

(١) غفارة الملك ، بضم العين أو كسرهما ومعناها غطاء الرأس أو العباءة (Manteau) .
(٢) عباءة من النسيج الأحمر .

العبوس، فأثار طغيانه واستبداده المبكرين دهشة القادة المصريين، وكان قد أتى في ركابه من حصن كيفا بعض الندماء الشبان، وهؤلاء سرعان ما تسلطوا على تفكيره وأصبحوا وحدهم محل رعايته، الشيء الذي أوغر صدور الأمراء وأوقد غيرتهم وطرود توران شاه كثيرا منهم من وظائفهم ابتغاء مرضاة هؤلاء الندماء، وجردهم من مظاهر الشرف والسلطان ليسبغها عليهم، وبدلا من اعترافه بالجميل الذي أسداه إليه هؤلاء الأمراء في الدفاع عن مصر. راح يبدى في كل أعماله الريبة وانعدام الثقة نحو أولئك الرجال الذين صدوا عن بلاده غزو الغزاة. وبلغ من إخلاصهم له أن نادوا به سلطانا وهو ما يزال غائبا في بلاد نائية.

كان توران شاه وعد القائد آقطاي بأن يعينه حاكما للاسكندرية، ولكنه أخذ يسوف ويماطل في الوفاء بكلمته، فخلق له — من ثم في شخص هذا الرجل عدوا رهيبا فضلا عن أن ندماءه الخليعين قد أثاروا حقدده وضميرته على السلطنة والأمراء إذا ما فتشوا يرددون على مسمعه أنه ليس سلطانا إلا بالإسم، وأما السلطنة الحقيقية فهي في أيدي هؤلاء الأمراء وعلى رأسهم شجر الدر ويسخرون منه قائلين « لماذا جئت إلى مصر إذن؟ أفما كان من الأفضل أن تبقى في العراق، ثم راحوا يوسوسون له بأن يسارع بالاتفاق مع ملك فرنسا على أن يسلم الصليبيون دمياط وينسادر أرض مصر وبذلك يتخلص من نير الأمراء ويخلو له الجو، فيمكنه إذ ذاك الانتفاع بخدمات ندمائه المخلصين.

ووجد الدس تربة صالحة له فيما وأثمر، وكان من ثمرته أن انفتحت هوة عميقة من العداء والبغضاء بين السلطان وأمراء الجيش وازدادت تلك الهوة مع الأيام عمقا. وكان من ثمار ذلك الدس أيضا أن نشب شقاق عنيف بين السلطان الجديد وشجر الدر. فبالرغم من أنها خدمته بإخلاص، وبالرغم من أنه يدين لها بعرشه وتاجه وبنجاة مصر من أعدائها في غيبته، فقد بدأ في مضايقتها واستفزازها بأن طلب منها، أن تقدم له حسابا مفصلا عما صرف من أموال الدولة، وعن المبالغ التي تركها أبوه في الخزانة مع بيان كامل بالثروة التي خلفها

فأعلنت السلطنة في سخط وحنق أن المال قد أنفق في المرافق العامة وعلى الحرب ضد الصليبيين .

وإذ أحست شجر الدر بالخطر المحدق بحريتها وحياتها تملكها الاتزعاج والذعر ، والتجأت إلى أنصارها من أمراء المماليك البحرية ، لما يكونونه نحوها من الحب والإخلاص ولما يشعرون به من القلق على أنفسهم من تصرفات السلطان — إذ أنه كان إلى جانب كل تلك النواحي القبيحة في طبعه — سكيرا ماجنا ، يعكف كل وقته على الشراب والفجور ، ولم يكونوا على غير علم بأنه — بين خمره وسكره وفي وسط أصدقائه المازلين — كان يفوه بأوقع الألفاظ ضدهم . فمن ذلك أنه راح في إحدى الأمسيات وهم على مائدة العشاء يضرب بسيفه رؤوس الشموع الموقدة أمامهم صائحا في كل ضربة ، وهكذا ساقطع رأس فلان، ذا كرا أسماء كبار ضباط الجيش . ومن ثم عقدوا النية فيما بينهم على التخلص منه والاستئثار بسلطته قبل تسليم دمياط .

وكان توران شاه قد أمر بتشيد سراشق فخم على ضفة النيل بالقرب من فارسكور بسياج جميل ، وفي حديقته الغناء حمام فاخر وعلى جانبيه أبراج من الخشب أحدهما أعلى من باقيها وقريب إلى النهر .

ففي فجر أول مايو ١٢٥٠ (محرم ٦٤٨ هـ) تناول توران شاه طعام الإفطار مع بعض ضباطه ، ثم قام ليستريح في الدهليز السلطاني ، وهناك اقتحم مضجعه فجأة أحد الأمراء — ويقال إنه بيبرس قائد المماليك البحرية — وجرد سيفه وهوى به على رأس السلطان، ولكن هذا تفادى الضربة بذراعيه فزقت أصابعه ثم أغشى عليه . فلما رأى ذلك المعتدى دم السلطان متفجرا من جرحه تملكه الفزع لما اقترفه وانطلق هاربا . وللحال ضرب النفير وهرب إلى السراشق كثير من الضباط والخدم فلما سألوا السلطان عن جرحه، أجاب بأنه واحد من المماليك البحرين ، فقالوا يظهر أنه أحد الإسماعيليين فهز رأسه قائلا : كلا أنا واثق أنه واحد من البحرين ، وحينئذ تقرر في لوح القدر مصيره، إذ عرف المماليك البحرية أن الأمر لم يعد يحتمل صبرا فإما حياته وإما حياتهم .

ونقل توران شاه إلى البرج وضمد جرحه ولكن سرعان ما تكاثرت حول البرج عدد من المماليك وعلى رأسهم أقطاي ونادوا لكي ينزل إليهم ، فوجد عندئذ أنه وقع في الفخ . فراح يتوسل إليهم ويستدر عطفهم وشفقتهم وعرض عليهم أن ينجز وعده بجعل أقطاي حاكما للاسكندرية ، بل أبدى رضاه بأن يتنازل عن عرشه في نظير أن يبقوا على حياته ويتركوه يعود إلى حصن كيفا . ولكنهم خوفا على أنفسهم قسوا قلوبهم وضيقوا عليه الخناق . فلما لم يسلم نفسه إليهم أتوا ببعض النار الإغريقية وألقوها على البرج ، فاندلعت فيه ألسنة اللهب . وعندئذ فزع السلطان وجرى نحو النيل لعله يصل إلى إحدى سفنه ، ولكنهم لحقوا به وهو يسبح وقتلوه في الماء بجانب السفينة التي كان على ظهرها «جوانفيل» . وقد رأى بنفسه كل ما حدث .

وعلى الرغم من أن الجيش قد علم بكل ما يدور هناك إلا أنه لم يحرك ساكنا ، فإن أعمال السلطان في الفترة القصيرة التي قضاها بين جنوده جعلته مكروها من الجميع ، ولم تبذل سوى محاولة واحدة لإيقاظه إذ تشفع من أجله الأمير حسام الدين ، ولكن البحريين وقفوا في وجهه وجردوا سيوفهم وصاحوا بأن السلطان قد مات ، وكذلك كان نائب الخليفة في بغداد موجودا إذ ذاك في المعسكر ، فحاول أيضا مساعدة السلطان إلا أنهم اعتقلوه وهددوه بالموت لو أنه تدخل ، وتركت جثة السلطان ملقاة على ضفة النهر يومين كاملين حتى قام بدفنها بعض الفقهاء .

وبموت توران شاه انتهى حكم الأسرة الأيوبية في مصر . وقد كانت من مبدئها إلى منتهاها دولة فتح وجهاد . ولولا وقوفها في وجه الصليبيين لا تقرر الإسلام من الشام والجزيرة ومصر وشمال أفريقية ، وقد خلفها في حكم مصر سلاطين المماليك الأتراك (البعربة)

مفاوضات التسليم

كان المماليك قد عقدوا العزم على إعدام جميع الأسرى ، إذ أنهم دفعوهم دفعا وألقوا بهم إلى جوف السفينة فوق بعضهم ، وقد اختلطت — كما يقول

جوانفيل — رؤوسهم بأقدامهم — وظلوا طول الليل على هذه الحال، فهو يقول كانت أقدامى في وجه الكونت بيردى بريتانى، وكانت أقدامه في وجهى . على أنهم في الصباح، أطلقوهم من هذا المكان المكتظ، وقرر المالِك أن الملك لن يسمح له بمغادرة مصر إلا إذا دفعت زوجته الملكة . . . وكانت لاتزال في دمياط — مبلغ أربعمئة ألف دينار (تساوى حوالى ٢٢٠٠٠٠ جنيه) فدية له، وضمانة لذلك قرروا الاحتفاظ بجميع الرضى الذين كانوا في دمياط بالإضافة إلى المخازن والأسلحة .

ومرة أخرى يبدو للصليبيين كأنما المخاوف قد انتهت . ولكن كان الخطر مع ذلك لا يزال قائما ، إذ علق المسلمون رضاهم بالصلح على أن يقسم الملك بصيغة معينة على الشروط التى انتهوا إليها . فلما سمع الملك هذه الصيغة التى وضعت بوساطة بعض المسيحيين المرتدين، حالته بعض جمل فيها وبادر إلى رفضها رفضا باتا . إذ جاء فيها « أن الملك لويس إذا نكث عهده فإنه يعتبر قد حلف زورا ويكون ملعونا كسيحى أنكر الله والممودية والإخلاص والإيمان » فحينما سمع الملك ذلك القسم . وهو يتلى عليه تميز غيظا وحنقا وصاح قائلا إنه مستحيل أن يقترف هذه الجريمة أو ينطق لسانه بهذا الإثم . وحينما بعث العلامة « نيكول » إلى الملك قائلا أن الأمراء فى أشد الغضب وأنه لبشر شعورا أكيدا بأنهم مصممون — إن لم يقسم الملك القسم كما وضعوه له — أن يقتلوه هو وجميع رعاياه، ولكن الملك أصر مع ذلك على الرفض . . .

ثم يقول جوانفيل فى سرارة « لا أدري ان كان الملك قد فاه بالقسم أم لا » ولكن كيفما كان الأمر فقد وافق القواد وأمراء الأسطول على ما أقسم به الملك وأرسل « السير جيوفرى دى سيريجين » إلى دمياط أمرا بإخلاء المدينة للمسلمين، فلما تم الجلاء كان من المتعين بعدئذ أن يطلق سراح الملك مع الأسرى الآخرين .

وكان من الشروط التى قبلت بمقتضى القسم أن يدفع الملك قبل أن يغادر مصر مبلغ مائتى ألف جنيه، أما الباقي وقدره مائتا ألف جنيه أخرى فيسده

من عكا وضمنا لدفع هذا المبلغ قرر المسلمون الاحتفاظ بجميع المرضى الذين يعالجون في دمياط ، أما كل المهمات والأسلحة وآلات القتال واللحوم الملحقة الموجودة فيها فاشترط ألا تعاد هذه كلها إلى الملك إلا إذا دفع باقي الفدية .

والظاهر أن بعض أمراء المسلمين ترددوا في قبول الفدية من الملك الأسير ولكن تم الاتفاق أخيرا على تسليم دمياط وكل ما فيها .

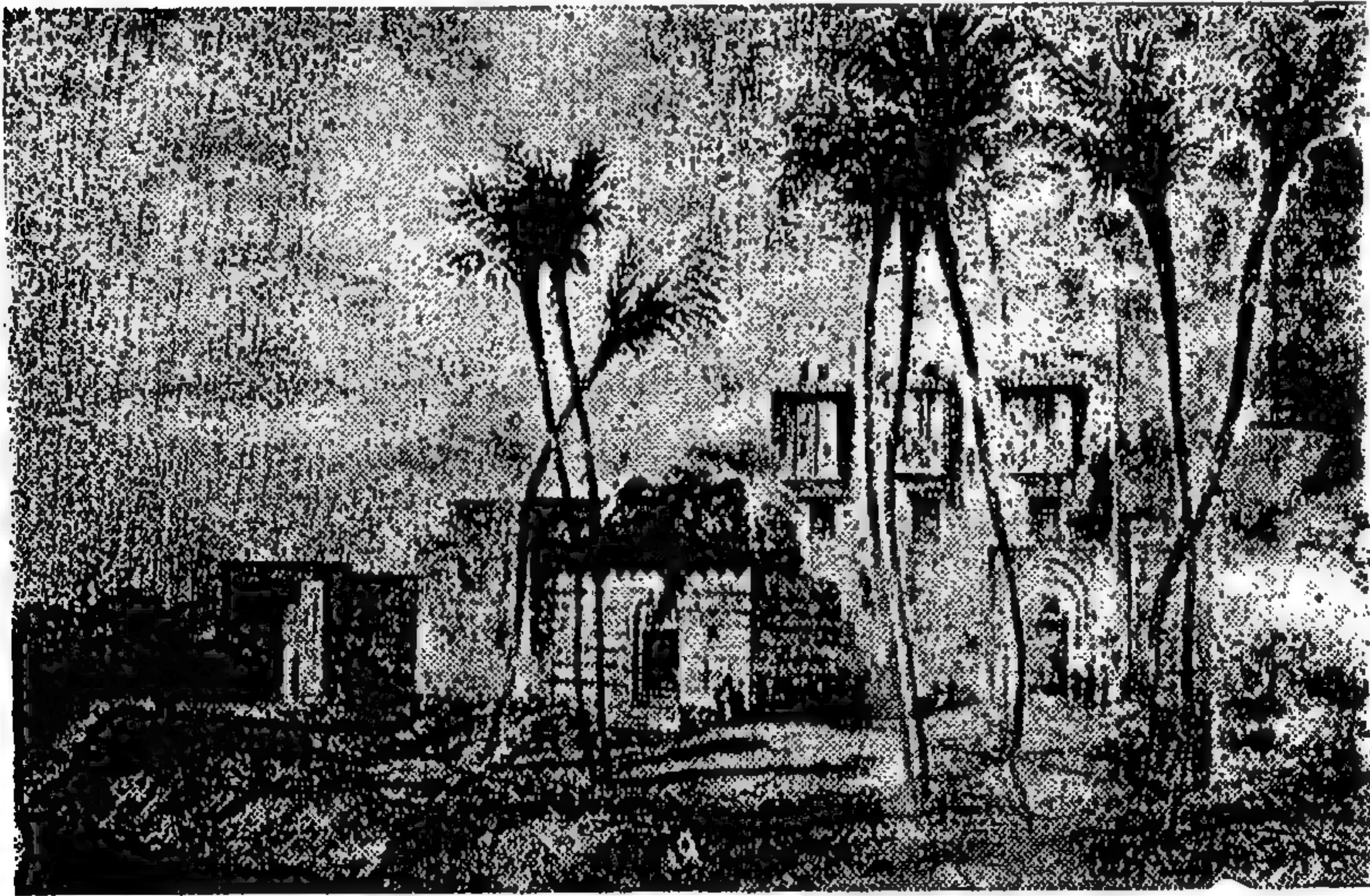
وفي إثر إبرام هذا الاتفاق نقل الملك وفي معيته بعض النبلاء إلى فارسكور وتسلم المصريون دمياط بعد أن ظلت في يد الفرنج أحد عشر شهرا وتسعة أيام ، وأفرج عن الملك بمجرد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار كما أدخل سبيل أخيه وزوجته ، ومن بقي من أصحابه وسائر الأسرى الذين بلغ عددهم حوالي ١٢٠٠٠ أسير^(١) .

أصبح الملك في أمان ، غير أن شقيقه « الكونت دي بواتييه » كان لا يزال في يد العدو وكان الملك متشوقا إلى أن يدفع الفدية في سبيل إطلاق سراحه .

وفعلا أرسل المال من لدن الماسكة التي غادرت دمياط قبل الجلاء عنها وقد استغرق دفع هذه النقود يومين كاملين وكان تقديرها باللوزنات وكل وزنه تبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب حوالي ٥٧٥٠ جنيهها ، وفي مساء اليوم التالي وجد اتباع الملك أنه ما زال باقيا عليهم ثلاثون ألف قطعة ذهبية ناقصة من مبلغ الفدية ، فنصح جوفانفيل للملك بأن يقترض هذا المبلغ من فرسان المعبد ، ولكن الأب دي تريكور رئيس هؤلاء الفرسان اعترض مؤنبا جوفانفيل لإبدائه مثل هذا الاقتراح ، وقد هدد بأنه إذا أخذ الملك ذلك المبلغ منهم بالقوة فسوف يأخذون لأنفسهم تعويضا من الأملاك التي للملك في عكا . فخطط جوفانفيل لهذا التهديد وطلب من الملك أن يأذن له بالذهاب إلى سفن الفرسان واغتصاب المبلغ المسلوب . فعين وصوله إلى هناك وجد خزانة مغلقة على سطح إحدى السفن ولما رفضوا أن يفتحوها له تناول أحد القلاع وكسرها بالقوة

(١) القرينى : المرجع السابق ١ - ٢ ص ٣٦٣ .

فانخلع القفل ، وتناول النقود التي بقي عليهم دفعها ، وعاد إلى الملك فسر سروراً عظيماً ودفعت الفدية إلى آخر درهم سراح الكونت « دي بواتيه » .
وفي مثل هذا المجال يطيب لنا أن نذكر أنه — خلال تحديد الفدية — وقع حادث ليس الأول من نوعه ولكنه يؤكد ما انطوت عليه نفس الملك من شرف ونبل وسمو ، وذلك أن السير فيليب دي منتفور أحد صيافة الملك قال له أن المسلمين قد أخطأوا في عدوزنة من الذهب فلم يأخذوها وأن هذا الخطأ قد عاد على الفرنسيين بعشرة آلاف قطعة ذهبية ، فغضب الملك لهذا غضباً شديداً وأمر السير فيليب — احتراماً للثقة التي أولاها إياه في تمثيله لدى الأعداء — أن يدفع إليهم عشرة آلاف قطعة في الحال . وصم الملك على أنه لن يبرح الشاطئ إن لم يدفع آخر درهم من الفدية المفروضة عليه . فلما سلمت بأكملها تم عندئذ تنفيذ القسم الذي قطعه على نفسه فأبحر على سفينته الخاصة إلى عكا في ٧ مايو سنة ١٢٥٠ (يوم السبت ٣ صفر ٦٤٨ هـ) .



دار ابن لقمان حيث استقر لويس التاسع أسيراً

وبينما كان الأمراء يتفاوضون مع الملك سأله حسام الدين عن عدد جنوده حينما نزل إلى دمياط فأجابه بأنهم كانوا تسعة آلاف وخمسمائة فارس ومائة

وثلاثين ألفاً من المشاة غير الخدم والعمال ، ولا شك أن هذا التعداد مبالغ فيه جداً فإما أن يكون الملك قد أراد تضخيم حملته ، وإما أن المؤرخين المسلمين بالغوا في تقدير عدد أعدائهم ليزيدوا من مكانة انتصارهم .

وعلى أى حال فإن تلك الحملة الصليبية الكبيرة التى نزلت إلى أرض مصر قتلت معظم رجالها وذكرت المصادر التاريخية أن الأسرى الذين أطلق سراحهم لم يزيدوا على اثنى عشر ألف رجل وعشر نساء ، وحتى هؤلاء لم يطلق سراحهم كلهم سريعاً بل إن بعضهم ظل راسفاً فى أغلال الأسر وقتاً طويلاً ، ومن المحتمل أن عدداً كبيراً من الجنود الصليبيين قد اعتنقوا الإسلام واستقروا بأرض مصر .

معاهدة الصلح (٥ مايو ١٢٥٠)

نصت المعاهدة بين الطرفين على الشروط التالية^(١)

- ١ — أن يرد الملك لويس مدينة دمياط إلى المصريين .
 - ٢ — أن يخلى الملك سبيل المسلمين الذين فى أسره .
 - ٣ — ألا يقصد سواحل البلاد الإسلامية مرة أخرى .
 - ٤ — أن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف دينار^(٢) فدية عن الأسرى المسيحيين .
- يقدم نصفها مقدماً قبل إطلاق سراح الملك ، والنصف الآخر بعد مغادرة مصر .
وتعهد المصريون من جانبيهم

- ١ — بأن يطلقوا الأسرى المسيحيين الذين وقعوا فى قبضتهم فى هذه المعركة ومن أسروا منذ عهد السلطان العادل أيوب وأن يرعوا المرضى من الفرنج الذين بدمياط وأن يحافظوا على معداتهم بالمدينة إلى أن تحين الفرصة لأخذها .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥ ، وانظر أيضاً :
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٦ ص ٣٦٩ ، العبر لابن خلدون ج ٣ ص ٣٧٣ .
(٢) تقدر قيمة الدينار حسباً جاء فى مالية مصر لعمر طوسون ص ٥ — ٦ بمبلغ ستين قرشاً وعلى هذا تقدر الفدية بحوالى ٤٨٠.٠٠٠ من الجنيهات المصرية الذهبية .

وأقسم الطرفان بالمحافظة على نصوص تلك المعاهدة لمدة عشر سنوات .
ومع ذلك فلم يحافظ الملك على احترام المعاهدة .

سفر الملك (٨ مايو ١٢٥٠ - يوم الأحد ٤ صفر ٦٤٨ هـ)

وحدث أن كانت سفينة تابعة لمدينة جنوه راسية بقرب الشاطئ تجاه النقطة التي مر بها الملك بعد الإفراج عنه . ولم يكن يبدو غير رجل واحد على ظهرها ، ولكنه في اللحظة التي وقع فيها بصره على الملك صفر بغمه نعمة خاصة وفي الحال وثب إلى الشاطئ ثم انون من حملة الأقواس وقد تسلحوا تسليحاً تاماً وقد حنوا أقواسهم وفوقوا سهامهم وبأسرع من لمح البصر ألقى لوح خشبي على ضفة النهر وعبره الملك إلى السفينة ثم تبعه شقيقه وتشاراس أوف أنجو وسير جينز وجوانفيل وبعض الآخرين .

وما تم النصر حتى سارت أنباؤه إلى القاهرة ومصر وشتى أنحاء القطر وأعلن للناس السرور والاعتباط وعادت قوات الجيش إلى القاهرة .

فلما كان يوم الاثنين الثالث عشر أنعمت شجرة الدر على الأمراء أرباب الدولة بالخلم السنية ووزعت الأموال على سائر الجند .

وللشاعر المصري جمال الدين بن مطروح قصيدة طريفة في وداع الحملة للصليبية فنقلها هنا :

قل للفرنسيس إذ جئته	مقال نصيح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أثيت مصر تبتقى ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقت الحين إلى أدم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
ألمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
إن يكن البابا بذاً راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح

فانخدوه كاهناً انه أنصح من شق لكم أو سطيع
وقل لهم ان أزمعوا عودة لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

هل خدمت الروح الصليبية ؟

تلك كانت نتيجة الحملة الخائبة ، وقد كانت الروح الصليبية في ذلك الوقت — تكابد طور النزع الأخير — فلا عجب أن عجلت هذه الحملة بذبولها . ذلك أن المملكة اللاتينية في الأرض المقدسة مالبثت بعد فترة وجيزة أن تقلص ظلها ثم زالت . . وكان من أهم أسباب زوالها النهائي نشاط سلاطين المماليك الأتراك في قتال الصليبيين وإمعانهم في العمل على طردهم من الشرق الوسيط . فلما مرت إحدى وأربعون سنة على نزوح لويس التاسع عن مصر ، كان السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاون قد احتل عكا في ١٨ مايو سنة ١٢٩١ وقضى على ما تبقى من مملكة الفرنج في سورية .

يَا عِدُوَّاهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِيْطِ الْحَبْلِ تُرْهِمُونَ بِهِ عَدُوَّكُمْ وَعَدُوَّكُمْ

تحليل معركة المنصورة

سنوجز أهم العوامل التي كانت سبباً لفشل الحملة الصليبية السابعة على مصر ، ويمكن تحليل هذه الأسباب إلى قسمين رئيسيين : عوامل استراتيجية وأخرى تكتيكية ، ونوجز الأسباب الأولى فيما يأتي :

١ - لم تدرس الخطة الكبرى للحملة ولم تبحث تفصيلاتها بعناية قبل الإقدام عليها ، فيها يشير الدهشة ، أنه لم يكن قد مضى أكثر من ثلاثين سنة على حملة صليبية سابقة بقيادة حنا دى برين (١٢٢١) ، حتى وصلت حملة أخرى اتبعت نفس الخطة ونزلت في دمياط . فكان الفشل نصيبها !

كان للصليبيين السيادة البحرية في شرقى البحر المتوسط ، وكان لا ينازعهم فيه الأسطول الأيوبي ، فتيسر لهم نقل القوات والعتاد إلى قبرص ثم قصدوا ساحل مصر ، ومع ذلك فقد خسروا الحرب في حملة ١٢١٨/١٢٢١ ، هذا إذا أغفلنا حملة الملك أمريك عام ١١٦٣/٦٩م لاختلاف الأحوال السياسية حينذاك ، فقد كانت مملكة بيت المقدس ما زالت قائمة ، وفي حاجة إلى حماية عسكرية وكان من الصعب أن ينقل منها بعض قواتها لمعاونته في حملته ضد مصر . ولم تكن هذه الأحوال موجودة في أثناء حملتي ١٢١٨ ، ١٢٤٩ ، ذلك لأن مملكة بيت المقدس كانت قد انكشيت وانطوت على الساحل السوري ، وتستطيع تلك أن تدافع عن نفسها ، وكان الدفاع عنها متيسرا إذا هاجت عكا أو صور مثلاً قوات دمشق أو بيت المقدس في أثناء الاضطلاع بالحملة على مصر . فالبحر من ورائها يعج بالسفن الصليبية ، فضلا عن المساعدات التي يمكن أن تمدّها بها البندقية أو جنوة . وعلاوة على هذا ، فقد كان قوام حملة لويس التاسع على مصر قوات وافدة من غربي أوربا ، وليس من قوات الممالك الصليبية المحلية في فلسطين والساحل السوري . وعلى أي حال لم يكن هناك ثمة خطر جسيم يهدد أمن تلك الممالك الصغيرة .

كانت مصر إذ ذاك تبدو فريسة للغزاة ، فهي بلاد ذات ثراء موفور على

من الدهور ، يحكمها سلطان يعتمد على قوات عسكرية مأجورة ، وتتكون من أخلاط الأتراك والأكراد والتركمان والمصريين والعربان ، وكان التنافر مستحكماً بين حكام مصر وسورية من الأيوبيين ، ويتقاسم البلدين عدة فروع من تلك الأسرة ، فنذ عام ١٢١٩ كان السلطان الملك الكامل يحكم في القاهرة والمعظم في دمشق ، ومع أن حسن التفاهم كان يسود العلاقات بينهما أحياناً ، فلم يكن من السهل أن يتفقا على تنفيذ خطة موحدة ضد العدو المشترك .

كانت خطة الصليبيين لغزو مصر مستقلة عن خطة الدفاع عن فلسطين سواء في عام ١٢١٩ بقيادة حنا دى برين أو في عام ١٢٤٩ بقيادة الملك لويس التاسع ، ولم يكن من المسير على قائد موهوب أن يفوز بالنصر إذا كان على رأس حملة حربية كتلك التي قادها حنا أو لويس التاسع . أما الحفاظ على الأرض بعد ذلك أى بعد القضاء على شكيمة القوات المدافعة فكان أمراً محتملاً . ومع ذلك فقد كانت التجربة أو المشروع يستحق أن يقام به وينفذ ..

ولكن المشكلة إذا لم تكن بالأمر الصعب أو المستحيل فإنها تحتاج إلى الدرس والعناية إذا اتخذنا القواعد الاستراتيجية العامة مرشداً . فإذا أراد العدو أن يقبض على مصر من رقبتها ، فينبغى عليه أن يعجل بالمسير للاستيلاء على القاهرة بعد أن يتخذ له قاعدة على ساحل البلاد . وهناك سييلان هاما يمحققان النجاح يوصلان إلى القاهرة مع مراعاة اجتناب المسالك المائية والترع الكثيرة التي تنتشر في الدلتا . فما هي طرق التقدم ؟ !

هناك طريقتان وأولهما :

١ - النزول إلى البر بالقرب من الاسكندرية والابتعاد ما أمكن عن الفرع الغربى للنيل كما فعل بونايرت في عام ١٧٩٨ ، ثم التوجه إلى دمنهور فالجيزة ، وعيب هذه الطريق أن مراحلها تقع كلها في الصحراء إلى أن تصل القوات الضاربة لتجد القاهرة أمامها ونهر النيل الكبير يفصلها عن بعضها ، وليس عبور النيل بالأمر اليسير ولا سيما بعدما يتعد الجيش عن قاعدته بالاسكندرية ويصبح في حاجة إلى إمدادات متواصلة .

٣ — الطريق الثانية قد تكون أفضل عن الأولى هي طريق الصحراء العربية الشرقية ، وذلك بالنزول عند موقع الفرما (شرقى بحيرة المنزلة) ثم المسير إلى الصالحية وبلبيس ومنها رأساً إلى القاهرة مبتعداً ما أمكن عن الفرع الشرقى للنيل ، ومن مزايا هذه الطريق أنها تجلب القوات المعتدية أمام القاهرة مباشرة ، وليس فيه ترع أو مسالك مائية تجبرها على العبور ، والمسافة التى سيقطعها القاتح حوالى مائة ميل تقريباً من (بلبيس) .

وليس فى هذه الطريق صعوبة تذكر سوى أن مراحلها الأولى تقع عبر أراضي صحراوية .

ونلاحظ أن معظم الحملات ضد مصر اختار قادتها هذه الطريق . . . فهو السبيل المفضل الذى سارت فيه جيوش قبيلز الفارسي وإسكندر المقدوني ، وانطوخيوس أبيفانس وعمرو بن العاص وسليم الأول العثماني . أما لورد ولسلي قائد الحملة البريطانية فإنه استفاد من قناة السويس واقتصد قرابة أربعين ميلاً فى مسيرة قواته ، وكانت هذه الطريق معروفة تمام المعرفة عند الصليبيين فقد سلكها أماريك عام ١١٦٨ حينما استولى على بلبيس ثم حاصر القاهرة ، وكان من المحتمل جداً أن تقع فى قبضته لولا أنه قبل مفاوضة خصمه وتسلم الجزية وعاد من حيث أتى إلى فلسطين .

ولذلك يدهشنا كثيراً أن يهمل حنا دى برين والملك لويس التاسع هذه الطريق ، وأن يختار كلاهما النزول عند دمياط . فالطريق من هذه الميناء إلى القاهرة يخترق صميم الدلتا المزدهمة بالترع والقنوات وفروع النيل الكبيرة إذ ذاك وعبور كل هذه الموانع الطبيعية ، فضلاً عن أن المصريين قد اختاروا عدة مواقع دفاعية منيعة لمقاتلة العدو وكسر شوكته وإضعافه حتى يصل القاهرة (إذا وصل) منهوك القوى . ولم يكن هناك أدنى شك فى فشل خطة الفرنج . وقد أدرك المصريون سبل الدفاع ، وعبأوا له كلما كان فى طاقتهم ليحرموا العدو ثمار النصر . ولم تنهض القوات المسلحة بواجب الدفاع وحدها بل أسهمت معها جموع الشعب المتحمسة .

الاستيلاء على دمياط

استولى حنا دى برين على دمياط عام ١٢١٩ م بعد حصار استمر حوالى ثمانية شهور ، فقد فى خلالها عدداً ضخماً من قواته وعتاده ، فلما بدأ المسير بقواته عبر الدلتا إلى القاهرة كانت مجاهدة ، فاضطر إلى الوقوف على شاطئ وترعة أشمون ، فى مواجهة جيش السلطان الكامل ، وقد حاول عدة مرات اختراق الجبهة ولكنه فشل ، وأخيراً أدركه اليأس حينما عرف أن الأرض التى تفصله عن قاعدته فى دمياط قد غمرتها مياه الفيضان ، بعد ارتفاع ماء النيل ، ثم قطع المصريون الجسور ، فكانت الطامة الكبرى . فأسرع إلى التقهقر إلى دمياط ، والمياه تحيط به من كل جانب ، والسلطان يضغط بجيشه للإطباق على قواته واضطر أخيراً إلى المهادنة والصلح ، فسمح له السلطان بالجلء وإخلاء دمياط .

أما موقف حملة لويس التاسع فكان كالاتى :

وصل السلطان من سورية مريضاً ، والأمراء يتنافسون على تولى العرش بعد وفاته . وأسوأ من ذلك أن دمياط سقطت فى قبضة الصليبيين بعد مناوشات غير عنيفة ، وفرار جزء كبير من حامية دمياط وهلع الأهالى بعد أن فقدوا الذين يتولون الدفاع عنهم !

ومع ذلك نرى الملك لويس يضيع حوالى ستة أشهر فى دمياط وهو ينتظر وصول بقية أسطوله وعتاده وإمداده ...

وفى خلال تلك الأشهر كان السلطان والقادة المماليك يبعثون القوات يعدون المواقع ويحشدون العتاد ، ويستنجدون بالأمراء وقيموني العراقي والموانع فى بنى وجه الأعداء ، وأخيراً بدأ لويس (نوفمبر ١٢٤٩) تقدمه . وكان ينبغى عليه أن يتقدم إلى الجنوب بسرعة قبل أن يستعد المصريون ويقدم الصيف ومعهم فيضان النيل السنوى ...

ولكن مباغتة الهجوم كان قد ضاع أثرها . . وفى إبان تلك الفوضى قام أحد قادة الملك لويس مقترحاً التقدم عن طريق الاسكندرية ! فكأنه لم تكن للقادة خطة موضوعة للحملة ! فضلاً عن جهلهم المطبق بجغرافية البلاد !

الأسباب التكتيكية :

١ — لعبت العوامل التكتيكية دورها في المعركة منذ بدأ الملك لويس تقدمه من دمياط ، واصطدامه بعدو لا يتزحزح قيد أنملة عن أرضه العزيزة .

ففى يوم ٢٠ نوفمبر بدأ جيش لويس المسير ببطء وبحذر متجهاً نحو فارسكور وشارمساح والهرمون ، وفى نفس الوقت كانت سفائنه تسير فى النيل بمحاذاة قواته ثم وقفت القوات (١٩ ديسمبر) أى أنه قطع حوالى خمسين ميلاً فى أربعة أسابيع .

وقفت الجنود لأن الملك وجد أمامه مانعاً مائياً منيعاً يقطع الطريق . فبالقرب من المنصورة (حينذاك) ينقسم فرع دمياط إلى فرعين ، أحدهما يتجه نحو دمياط ، والآخر يتجه شرقاً حتى يصب فى مستنقعات بحيرة المنزلة ، وأمام الفرع الآخر وقف الفرنسيون مضطرين . (ويطلق على هذا الفرع ترعة أشمون أو البحر الصغير) ، ولكن استمرت المناوشات بين الجانبين .

٢ — لجأ لويس إلى إقامة الأبراج ليعتمى خلفها أثناء عمل جسر ترابى يعبر عليه ترعة أشمون طناح ، ولكن قواتنا كانت واقفة له بالمرصاد ، فكانت تخرب أول بأول ما يقيم ، وكان المنتظر أن يكون للبرجين فائدة للصليبيين فى تحطيم الاستعدادات المصرية ، ولكن جرت الأمور على عكس ما كان منتظراً ، فقد تمكن المصريون من تحطيم البرجين بفضل استعمالهم النار الإغريقية التى فاجأوا بها العدو ، وأخذت من بهما من الجنود فى كل جانب ، حتى أصبحوا يرون الغنيمة فى الخروج منهما والفرار سالمين . واستطاعت القوات المصرية تكبيد العدو خسائر جمة ، فلما رأى الملك ما يقاسيه رجاله من الحن ، لم يجد سوى الصلاة ، عسى أن تدفع عن قواته الخطر الأكيد . وهنا يبدو لنا استخدام سلاح مفاجيء أمراً هاماً فى انتصار المصريين .

٣ — وبينما الملك يقامى هذه المتاعب أمام المعسكر المصرى لا يدري ماذا يعمل ، جاءه خائن ، قيل إنه بدوى وأرشده إلى مكان مخاضة على ترعة أشمون ،

تتبع إلى الشرق من المعسكرين المصرى والصليبي ، ويسهل عبورها (١) فصمم الملك على اجتيازها ليلاً على رأس طليعة كبيرة من الفرسان الذين يستطيعون عبورها ولم يتمكن المشاة من متابعتهم (٨/٧ فبراير ١٢٥٠) وكانت أوامر الملك صريحة ومفادها ألا يتقدم أحد ما أمامه . وفاجأ الصليبيون معسكر المصريين فافتحموه واختلطوا بمن كانوا فيه ، وأخذوا يعملون سيوفهم في رقاب القوم وهم بين اليقظة والنوم ، وعم الاضطراب المعسكر إذ لم يتوقع أحد مثل هذا الاقتحام المفاجئ . وكان الصليبيون قد نصبوا للأمير الجيش المصرى كميناً بين المعسكر والمنصورة وأقبل عليه فرسان الداوية فأصابوه بعدة ضربات وفقد الجيش قائده . . ثم ارتكب كونت دارتو خطأ جسيماً بهوره وإسراعه بفرقة الراكبة إلى داخل المنصورة ، واخترق طرقاتها ومسالكها الضيقة قبل أن يتمكن الملك لويس بقواته الأصلية اللحاق به ، فأحاط الأهالي بشراذم الأمير المتهور ، وكانت تفرقت في المدينة ، وقضوا تماماً على تلك الفرقة وقطعوا رجالها إرباً إرباً (٢) . ولما وصل لويس لم ينجح إلا في الوصول إلى مشارف المنصورة على حساب خسارة فادحة في فرسانه ، ومع ذلك فقد تمكن من اختراق طريق له حتى وصل إلى الضفة المقابلة لمعسكره الأصلي ، أى الشاطئ الجنوبي لبحر أشمون ، وتمكن مشاته من إنشاء الجسر الترابي الذي كانوا قد بدأوه منذ زمن وعبروا عليه ولحقوا بقوات الملك . وهكذا رأينا الصليبيين بالرغم من خسائرهم الجسيمة قد احتلوا موقعا طيباً جنوبي بحر أشمون ، ولكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من الانتفاع باستثمار نجاحهم الابتدائي . . فقد كان نجاحاً قصير الأجل . وتمسكوا بموقعهم الجديد ولم يتقدموا بل تباطأوا أسابيع أمام المنصورة وجحدوا وأصبحوا في معزل لا يستطيعون التقدم نحو المنصورة واستعادتها ولا يستطيعون التقهقر المنظم من حيث أتوا .

(١) تألفت هذه الطليعة من البارونات وأتباعهم من المعسكر وفرسان الداوية في المقدمة يتلوهم فريق كونت دارتو (شقيق الملك) .

(٢) اشترك الأهالي مع قواتهم المسلحة في القضاء على المعتدين فكانوا يرمونهم من نوافذ المنازل وأسطحها بكل ما تصل إليه أيديهم من الأمتعة المنزلية والحجارة وكان الفضل في هذا النصر للشعب .

ونشبت في عصر ٨ فبراير ١٢٥٠ معركة أخرى استطاع الصليبيون خلالها صد المماليك، ويعود الفضل في ذلك إلى شخصية الملك الذي رأى أن يقوم مع من تبقى من قواته بواجب حرس المؤخرة لقوات المشاة التي لم تكن قد عبرت بعد بحر أشمون . وقد استمرت هذه المعركة حتى الثالثة بعد الظهر وكان النجاح فيها حليف الملك .

وكان مشجعاً لهم وصول الإمدادات من صليبي سورية وقبرس وانضمامها إلى صفوف لويس في أثناء الأيام الثلاث التالية ، وما استحال معه على الأيوبيين أن تكون لهم السكة الراجعة ، واضطروا إلى الارتداد إلى المنصورة (١) . وإن لم يكن هذا الارتداد هزيمة للمصريين أو نصراً للفرنسيين . ولكن مما لا شك فيه أن خسر الجانبان الكثير في الرجال والعتاد ، ولا سبيل إلى انتشار قوات لويس إلا بالاستيلاء على المنصورة . ولكن ما كان أبعدهم عن تحقيق الهدف المنشود . فقد كان الأهالي على استعداد دائم لتعويض جيشهم كل ما يفقده ، بينما كان تعويضها عند الصليبيين أمراً عسيراً . وفصلاً لم يصلهم إمداد عدة أسابيع . وفي خلال تلك الأسابيع كانت الضربات تتوالى على الصليبيين بينما تقل الأقوات والمؤن دون أن يستطيع أحد القيام بأية حملة في الداخل على المدن المجاورة لضمان الأقوات ، ولذلك كلما طال الوقت كان ذلك في صالح المصريين الذين لم يغب عنهم هذا العامل الهام . فاستغلوا الأسابيع السبعة بما فيه إصلاح أحوالهم وإيقاع الضرر بالعدو ، وأخذوا في بناء السفن وجمع المجاهدين والذخيرة ، وكانت جميع هذه العوامل داعية إلى ترجيح كفة المصريين على الفرنسيين . وأمام كل هذه المتاعب المريرة بدأ الملك يفكر في الانسحاب إلى دمياط . ولكن هل يترك المصريون أعداءهم ينسحبون في أمان ونظام وهدوء .

٤ — الأسطول المصري :

عهد المصريون في أثناء تلك المرحلة من المعركة الكبرى إلى صنع السفن

(١) حسن حبشي: الشرق العربي بين شتى الرحي، ص ٨٨ .

وحملوها مفككة على الجمال إلى بحر المحلة وطرحوها فيه بعد أن شحنوها بالمجاهدين ، وكانوا يهدفون القيام بقطع السبيل على الصليبيين ، حتى يعجزوا عن تموين أنفسهم من دمياط . فإن وجود السفن المصرية في النيل وفرعه وشحنها بالمقاتلين يعرقل أية حركة لتموين العدو ، ونجح المصريون في ذلك إلى حد كبير ، فحينما قدم أسطول من دمياط يحمل المؤنة إلى الصليبيين عند البحر الصغير ، كفت له السفائن المصرية في الطريق حتى إذا شارفها باغته ، ونشب القتال بين الجانبين ، وحينذاك أقبل الأسطول المصري من ناحية المنصورة فانتزع المصريون النصر إلى جانبهم ، واستولوا على عدد كبير من السفن وقصد العدو حوالى ألف رجل منهم ما بين قتيل وأسير . وهكذا قطع هذا الأسطول النشيط خط الرجعة على العدو وأصبح في شبه عزلة تعيسة ، ثم توالى المعارك النهرية بين الفريقين وكان من أعنفها معركة يوم عرفات ٦٤٧ هـ — ٢٥ مارس ١٢٥٠ م ، حينما التقت شوالى المسلمين عند مسجد النصر بسفائن الصليبيين ، وقصد هؤلاء فيها اثنين وثلاثين سفينة من بينها بضع شوالى .

٤ - المجاعة والأمراض :

لم يقتصر الحال على نكبات الهزيمة . فقد فشت المجاعة وضعفت الروح المعنوية وانتشرت الأمراض والأوبئة بين الجند وكانت المجاعة أكبر عامل شجع المصريين على الاستمرار في القتال ومضايقة العدو وأخذ الموت يتخطفهم وهم في معسكراتهم بعد أن أنهكتهم المجاعة .

٥ - تعذر الانسحاب :

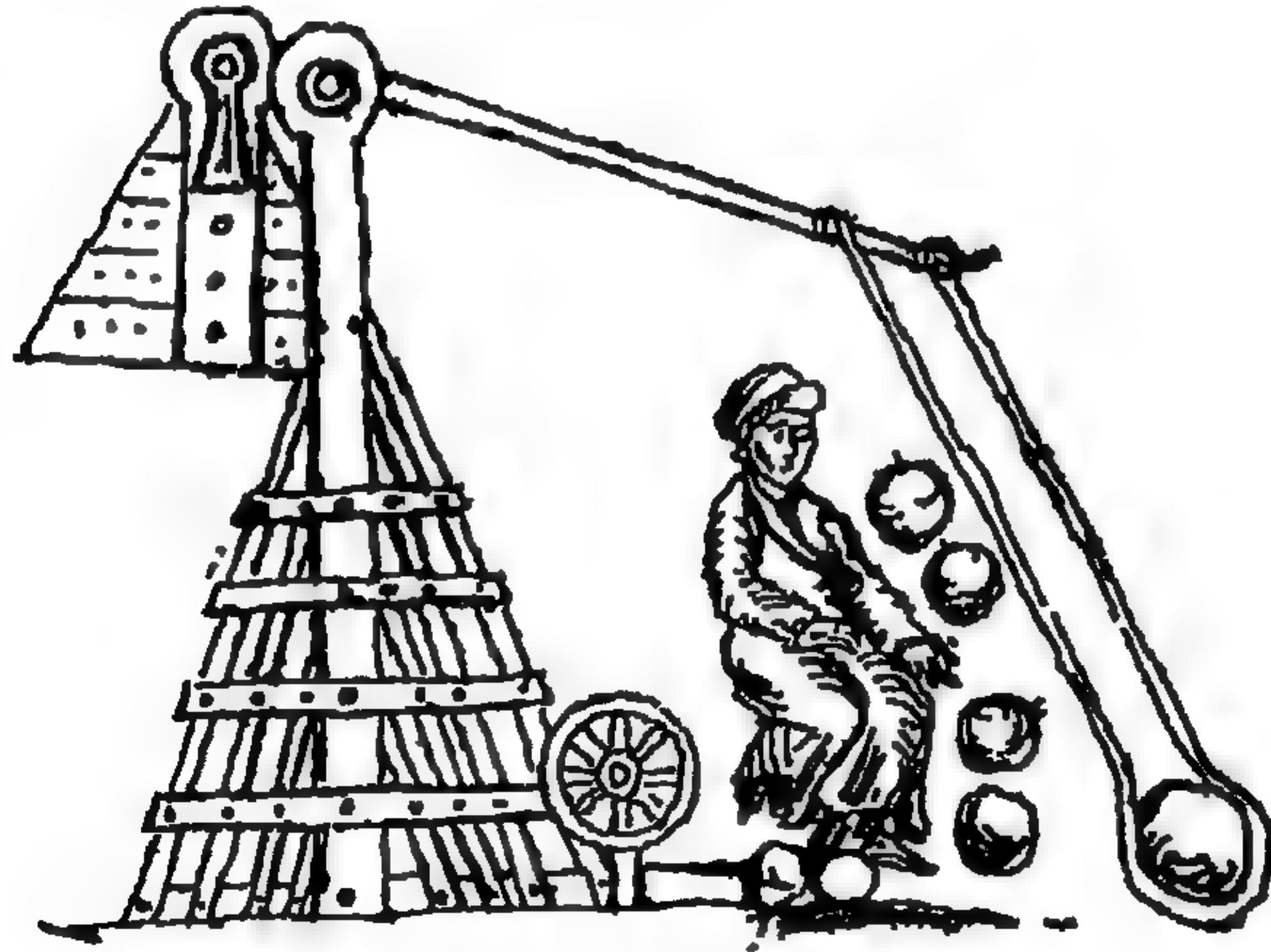
كل هذه المتاعب مجتمعة أرغمت الملك على الانسحاب والارتداد إلى دمياط ففكر في إحراق معداته الثقيلة وتدمير سفنه لكي لا ينتفع بها المصريون ، ولكن هل يترك المصريون هذا الجيش المهزوم يفر أمام أعينهم دون أن يتعقبوه وينالوا منه حتى يفنوه

وهذا ما ذكره المقرئى في وصف المرحلة الأخيرة من المعركة فقال إن

الصلبيين رحلوا بأسرهم من منزلهم يريدون دمياط ، وانحدرت سراكبهم في البحر قبالتهم فتتبعهم المصريون بعد أن عبروا الماء الفاصل بينهم وبينهم . ثم أحاطوا بالمؤخرة وأعملوا في رجالها القتل والأسر ، وبينما كانت خسارة المصريين طفيفة جداً لا تعدو مائة رجل ، خسر الصليبيون عشرة آلاف قتيلاً وأسروا منهم مائة ألف ، وإذا كان هذا العدد مبالغاً فيه ، ولكن لا شك أن الخسارة كانت جسيمة .

وهكذا اختتمت المرحلة الأخيرة من معركة المنصورة التي تم في خلالها أسر الملك لويس التاسع وكبار قاداته ثم تسليمه دمياط والجللاء عن البلاد بعد دفعه القدية عن نفسه وعن رجاله .

استحوذت مصر وجيشها على هذا النصر الحاسم دون الاعتماد على مساعدة من جاراتها أو حليف ، فقد اعتمدت على شجاعة أبنائها وحذق قادتها وصانعي عتادها الحربي ، وكانت مؤمنة كل الإيمان بأنها تزدود عن الحق والوطن .



صورة

ري الإيجار بالنجنيق مأخوذة من جامع التاريخ لرشيد الدين

خاتمة المعارك بين الأيوبيين والمماليك

معركة العباسية

غادر الملك لويس التاسع دمياط مهزوماً وقاصداً الأراضي المقدسة حيث أقام أربع سنوات، وهي تبدو مدة طويلة لا مبرر لها. ولكن الدوافع الحقيقية تكشف لنا سر هذه الإطالة، ونعني بذلك الصراع الخفي حيناً والظاهر أحياناً، الناشب بين رجال الدولة المملوكية والأيوبية في مصر والشام، وكان الملك لويس يطمح أن تشتد الجفوة بين مصر ودمشق، وأن تزيل إحداها الأخرى فيخلو له الجو حينذاك لتحقيق أهدافه وضرب القوة الإسلامية الباقية، ومما يدل على ذلك أنه (أي الملك) لم يجب برأى قاطع حين عرض عليه الناصر يوسف كبير أحفاد صلاح الدين الأيوبي وسلطان حلب الاتفاق معه ليكونا يداً واحدة ضد المماليك البحرية الذين تولوا السلطة في مصر، على أن يسلمه الناصر بيت المقدس^(١).

كانت حلب تحت حكم الناصر يوسف من الفرع الأيوبي، وقد ثار لإزالة بيته من مصر نتيجة مقتل توران شاه (٢٨ فبراير ١٢٥٠)، ولم يعد يعترف بالوضع الجديد الذي حدث، بل إنه رأى نفسه أولى من غيره بتولى الحكم. ولذلك كانت مهمة لويس في هذه الفترة هي ترقب الأمور لينضم إلى أحد الفريقين عساه يعوض ما خسره في حملته. ولم يفت الناصر أن يكتب إلى الملك لويس يسأله أن يقف إلى جانبه في صراعه ضد المماليك البحرية إلتقاماً منهم لقتالهم توران شاه ودارت المفاوضات بينهما، ولكن اضطر لويس إلى وقوف محايداً خوفاً على الفرنسيين الذين لا يزالون في أسر مصر من أن يفتك بهم المماليك، إذا علموا بهذا الاتفاق بينه وبين صاحب حلب، وكان رده أنه لا يستطيع الوقوف إلى جانبه.

(١) Joimville. Memoirs of the Crusades, p. 245 - 249

وانظر أيضاً حسن حبشي: الشرق العربي بين شقي الرحى: حملة القديس لويس على مصر والشام، ص ١٢٠.

كانت دمشق في ذلك الحين تحت سلطان أسرة كردية من المماليك الأيوبيين. تعرف بالقيمرية، فما اتصل بهم أن الحكم في مصر انتقل إلى شجر الدر التي ما لبثت أن تنازلت عنه لزوجها الجديد حتى أخذتهم سورة الغضب^(١) وفكروا في وجوب إرجاع الأمور إلى نصابها ، وأبوا أن يخرج الملك من الأسرة الأيوبية ، وبدأت تظهر حركة التمرد على إقامة شجر الدر في الحكم ، حين وصل رسول من قبلها إلى دمشق لاستخلاف من بهامن الأمراء ؛ فلم يجبه أحد ما من الأمراء القيمرية ، ولا الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة ، وكان توران شاه. قد أمره بها وهو في طريقه إلى مصر بعد موت والده .

تلفت الأمراء القيمرية في دمشق حولهم عساحم يجدون قوة يستعينون بها على تأديب المماليك البحرية الذين فتكوا بتوران شاه ، والذين أقروا أن يساق العرش إلى امرأة . وترتب على هذا الوضع أن امتنع الأمراء القيمرية عن الحلف لشجر الدر وكتبوا بذلك إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد صاحب حلب ، يحثونه على المسير إليهم ليسلموه دمشق . وطبيعى أن يرحب الناصر يوسف بهذه الدعوة ؛ فبادر بالزحف على دمشق ودخلها يوم ٩ يوليو ١٢٥٠ دون قتال بفضل خيانة أحد الأمراء القيمرية .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى مصر ، كثرت الاضطرابات ، فجدد الأمراء والمماليك الإيمان لشجر الدر التي بادرت إلى الزواج من الأمير عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانى بعد أن خلعت نفسها من الحكم ، بعد أن تولته ثمانين يوماً . ولكي يعمل المماليك على إرضاء الناصر يوسف في حلب ليكون الحكم في يد الأيوبيين ، رأوا أنه لا بد من إقامة شخص من بيت الملك مع المعز أيبك ، ليجتمع الجميع على طاعته ويطيعه الملوك من أهله ، فوق اختيارهم على صبي صغير ، اسمه الأشرف مظفر الدين موسى وله من العمر حوالى ست سنين ، شريكاً للملك المعز أيبك . فكانت المراسيم والناشير تخرج عن الملكين الأشرف موسى والمعز . ولم يرضى سلطان حلب بهذا الحل ، فاستولى على دمشق بفضل الأمراء

(١) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٢١

القيصرية أيضاً ، واجتمع حوله جميع البيت الأيوبي وقرروا الخروج إلى مصر لمحاربة المماليك البحرية . وقصد عساكر الناصر غزة ، فخرج الأمير فارس الدين أقطاي الجندار مقدم المماليك البحرية بألفى فارس ، وسار إلى غزة وقاتل أصحاب الناصر وهزمهم .^(١)

عند ذلك ، أخذ الملك الناصر صاحب الشام حينئذ لأخذ مصر ، فخرج من دمشق بعساكره . يوم الأحد النصف من شهر رمضان ، ومعه الملك الصالح إسماعيل بن العادل والملك الأشرف موسى بن المنصور وغيرهم من الأمراء ، فلما وردت أنباء هذا الاستعداد إلى القاهرة ، برز الأمير فارس الدين أقطاي مقدم البحرية بين عساكره الترك وسار بهم إلى الصالحية^(٢) .

وبعد أيام نزل الملك المعز أيك من قلعة الجبل فيمن بقي عنده من العساكر وسار إلى الصالحية ، وكان قد اجتمع بها عساكر الأمير أقطاي ، وترك بالقلعة الملك الأشرف موسى .

معركة العباسية :

وصل الملك بعساكره إلى كراع وهي قرية من العباسية . فتقارب ما بين العسكرين ، وكان في ظن كل أحد أن النصر إنما تكون للملك الناصر على المماليك البحرية لكثرة عساكره وليل أكثر عسكر مصر إليه . فعند ما نزل الناصر بمنزلة السكراع كان المعز أيك بعساكر مصر من الصالحية ونزل اتجاهه بسماط فركب الملك الناصر في العساكر ، ورتب ميمنة وميسرة وقلبا ، وركب الملك المعز ، ورتب أيضاً عساكره . وكانت الواقعة في الساعة الرابعة ، فاتفق فيها أمر

(١) المقرئى : السلوك . ص ٣٧٠ — ٣٧٣ : وابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة .

ج ٧ ، ص ٩ — ٩ .

(٢) صالحة مصر أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٧ م على طريق القوافل بين مصر ودمشق لتكون منزلة لعساكر الاسلام إذا خرجوا من مصر للجهاد في الأراضي المقدسة ، أو عادوا من الحرب إلى مصر وبني فيها جامعا وقصرا وسوقا ، وكان ينزل بها ويقيم فيها كما كان يفعل من جاءوا بعده ، وقد تألق اسم الصالحية في تاريخ مصر الإسلامى (أحمد رمزي من مقال له في مجلة نادى السيارات)

عجيب (هذا ما سجله المقرئ في السلوك ، صفحة ٣٧٤) قل ما اتفق مثله ، فإن الكسرة أولا كانت على عساكر مصر . . . ثم صارت على الشاميين : وذلك أن ميمنة عسكر الشام حملت هي والميسرة على من يازائها حملة شديدة ، خانكسرت ميسرة المصريين وولوا منهزمين ، وزحف الشاميون وراءهم ، وما لهم علم بما وقع خلفهم ، وانكسرت ميمنة أهل الشام ، وثبت كل من القلبين واقتتلوا وصر المنهزمون من عسكر مصر إلى الصعيد وقد نهبت أثقالهم ، وعند ما مروا على القاهرة خطب بها للملك الناصر ، هذا والناصر على منزلة كراع ليس عنده



الصراع بين المماليك والأيوبيين ومعركة العباسية عام ١٢٥٠

خبر ، وإنما هو واقف بسناجقه وأصحابه وخزائنه وأما ميمنة أهل الشام ، فإنها لما كسرت قتل منهم عسكر مصر خلقاً كثيراً في الرمل ، وأسروا أكثر مما قتلوا. وتعين الظفر للناصر وهو ثابت في القلب ، وتجاهه المعز أيبك أيضاً في القلب ، فخاف أمراء الناصر منه أن يفنيهم إذا تم له الأمر ، وخامروا عليه وفروا بأطلائهم

إلى الملك المعز : ومنهم الأمير جمال الدين أيدغدى ، والأمير جمال الدين أقوش ،
والأمير بدر الدين بكتوت . . . إلخ . فخارت قوى الناصر من ذهاب هؤلاء .
إلى المعز ، فحمل المعز بمن معه على سناجق الناصر ، ظننا منه أن الناصر تحتها ،
وكان الناصر لما فارقه الأمراء ، قد خرج من تحت السناجق في شزيمة قليلة ،
فخاب ما أملاه المعز أيبك وعاد إلى مركزه وقد قوى الشاميون بذلك ، وتبعوه
يقتلون منه وينهبون . . واستمر الصراع .

سُر الأمراء القيمرية بذلك ، وحلوا على المعز ليأخذوه ، فوجدوا أصحابهم
قد تفرقوا في طلب الكسب والنهب . فحمل المعز عليهم وثبتوا له ثم انحاز إلى
جانب يريد الفرار إلى جهة الشوبك (بالأردن) : ووقف الناصر في جبع من
أمرائه وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن ، فخرج عليهم المعز ، ومعه الفارس
أقطاي في نحو ثلاثمائة من البحرية ، وقرب منه . فخامر عدة ممن كان مع
الناصر ، ومالوا مع المعز والبحرية ، فولى الناصر فارا يريد الشام في خاصته وغلماؤه ،
واستولى البحرية على سناجقه وكسروا صناديقه ونهبوا أمواله !

هكذا بدد الملك المعز شمل خصومه من الأيوبيين وأمر المعظم توزان شاه
بن صلاح الدين وأخاه والملك الصالح عماد الدين اسماعيل والملك الأشرف صاحب
حمص وغيرهم من الأمراء القيمريين . . .

أما ميسرة عسكر المصريين وكان عليها الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني ،
فلما وقعت الكسرة عليها تفرق عنه أصحابه وكاد يؤخذ لولا أنه وقف معه من
ساعده على ركوب جواده ، فلحق بالمعز أيبك . . .

تمزق أهل الشام ، ومشوا في « الرمل » أياما . وسار الملك الناصر ومعه
بعض صحابه إلى دمشق . وأما عسكر الشام الذي كسر ميسرة المصريين فإنه
وصل إلى العباسية ونزل بها وضرب المخيم الناصري هناك ومعهم بعض الأمراء
وكانوا لا يشكون أن أمر المصريين قد زال ، وأن الملك الناصر مقدم عليهم
ليسيروا في خدمة إلى القاهرة ، فبينما هم كذلك إذ وصل إليهم الخبر بهروب
الملك الناصر وقتل معظم أمرائه وأسر ملوكه . . . فهم طائفة منهم أن يسيروا

إلى القاهرة ويستولوا عليها ، ومنهم من رأى الرجوع إلى الشام ، ثم اتفقوا على الرجوع .

وصلت القاهرة أنباء النصر ثم دخل المعز المدينة ومن خلفه الأسرى الأيوبيون ، وأقيمت معالم الأفراح وأخذت القاهرة وقاعة الجبل وقلعة الروضة بزخرفها عدة أيام . وبعد أيام أخذت في تنفيذ حكم الشنق بالأسرى الأمراء . . . وبعد أيام أخرى أخرج الملك المعز كل من دخل القاهرة من عسكر الملك الناصر إلى دمشق على حمير ، هم وأتباعهم ، ولم يمكن أحداً منهم أن يركب فرساً ، إلا نحو الستة أنفس فقط ، وكانوا حوالى الثلاثة آلاف رجل . . .

وفي ١٧ ذى الحجة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ ، سار الأمير فارس الدين أقطاي من القاهرة في ثلاثة آلاف مقاتل إلى غزة واستولى عليها .

زحف الأمير أقطاي

استولى أقطاي على الساحل ونابلس إلى نهر الأردن ورجع إلى القاهرة ، ثم سار الملك الناصر عسكراً من دمشق إلى غزة ليكون بها ، فأقاموا على تل العجول . فخرج المعز أيبك ومعه الأشرف موسى والفارس أقطاي وسائر المماليك البحرية ونزل بالصالحية ، فأقام العسكر المصري بأرض السانح قريباً من العباسية ، والعسكر الشامي قريباً من سنتين ، وترددت بينهما الرسل . وبعد مدة أزال المعز أيبك إسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وانفرد باسم السلطنة وسجن الأشرف واستولى على الخزائن ثم رتب المعز مملوكه الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر ، وأمر عدة من مماليكه ، فقتل شوكة البحرية وزاد شرهم ، ووصل كبيرهم الأمير فارس الدين أقطاي ملجأ لهم .

وفي خلال عام ١٢٥٢ كان يخيم الملك المعز وعساكره بالسانح ، وعساكر الشام في غزة ، والملك الناصر بدمشق . وفي خلال ١٢٥٣ م تقرر الصلح بين المعز أيبك والملك الناصر صاحب دمشق واتفقا على أن يكون للمصريين حتى الأردن ، وللناصر ما وراء ذلك ، وأن يدخل فيما للمصريين غزة والقدس ونابلس

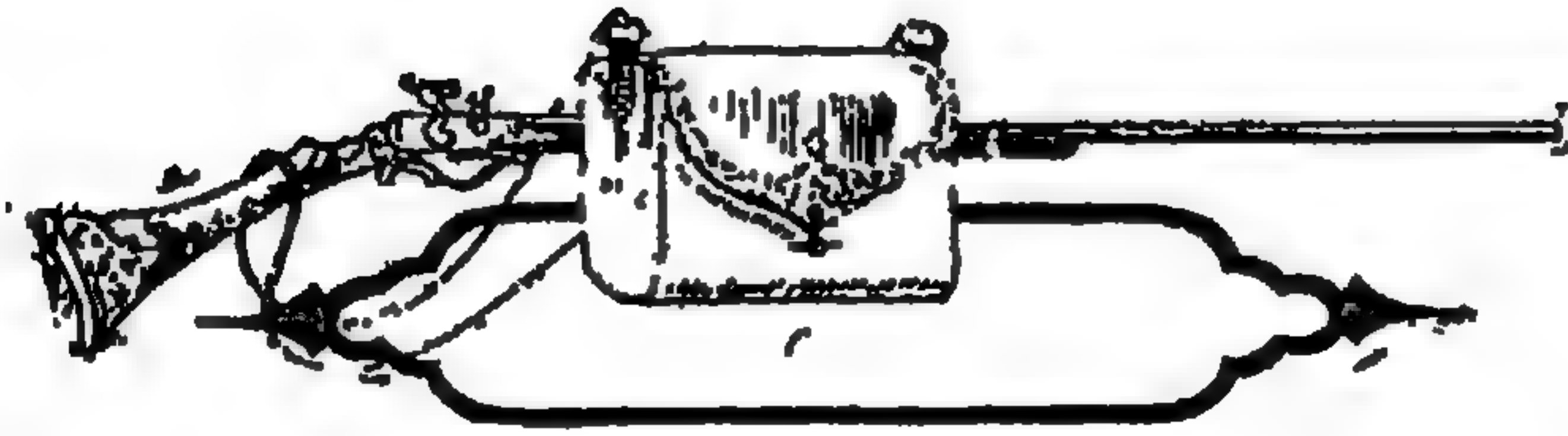
والساحل كله ، وأن يطلق المعز جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر ، وحلف كل منهما على ذلك وكتبت العهود . وعاد الملك المعز إلى قلعة الجبل . . . وفي أعقاب ذلك ، كانت المماليك البحرية يقوى شأنها بهمة فارس الدين أقطاي فكثر تعنتهم وتوثبهم على الملك المعز ، وهموا بقتله . . . ومنذ ذلك الحين أخذ أقطاي يتناول على الملك ، فقتل عليه ذلك ولاسيما بعد ما استولى الأمير على الأمور كلها . وفي عام ١٢٥٤ استفحل أمر قطاي وانحازت إليه البحرية . واضطر المعز إلى الاتفاق مع طائفة من ممالিকে على قتله ، فبعث إليه ليحضر إليه بقلعة الجبل ليأخذ رأيه في طائفة من الأمور . فعندما دخل من باب القلعة وصار إلى قاعة العواميد ، أغلق باب القلعة ومنع ممالিকে من العبور معه ، فخرج عليه جماعة قد أعدوا لقتله ، وهم قطز وبهادر وسنجر الغنمى ، فهبروه بالسيوف حتى مات . فوقع الصريخ في القلعة والقاهرة بقتله ، فركب في الحال نحو السبعائة فارس من أصحابه ووقفوا تحت أسوار القلعة ، وفي ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه ، وأنهم يأخذونه من المعز . وكان أعيانهم يبهرس البندقدارى ، وقلاوون الألفى ، وسنقر الأشقر . . . إلخ ، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمى بها المعز إليهم ، فسقط في أيديهم وتفرقوا بأجمعهم وخرجوا في الليل من القاهرة ، وحرقوا باب القراطين فعرف بعد ذلك بالباب المحروق ، وتفرقوا في أنحاء مصر والشام ثم جاء دور المعز . . .



ذكرنا أن شجر الدر كانت مستولية على أيك في جميع أحواله ، فلم يلبث أن سُم المعز أيك الحياة وخاف على نفسه من غائلتها ، وكان أن خطب المعز أيك ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها ، ففضبت شجر الدر ، فدبرت مؤامرة قتله . . . فلم يكن أيك يدخل الحمام في الليل حتى انقض عليه خمسة رجال أشداء أعدتهم شجر الدر ، فقتلوه سنة ١٢٥٧ م . ولم تنج شجر الدر من سوء المصير ، فقتلها مماليك أيك وألقوا بجثتها من سور القلعة إلى الخندق . . . إلى أن حلت في قفة ودفنت بعد عدة أيام !

ويعتقل أبيك، تولى الحكم السلطان المنصور على بن أبيك (١٢٤٧—١٢٥٠) حتى تم الأمر لقطز، فقبض على المنصور على وأخيه وأمهما، واعتقلهم جميعاً في برج القلعة، وتولى هو السلطنة بلقب المظفر في أبريل سنة ١٢٥٩. وكان ذلك بعد ما اجتاحت التتار بقيادة هولاكو بغداد (١٢٥٨)، وزحفوا بجحافلهم المخرّبة إلى الشام، فاستولوا على كبرى مدنها بعد ما أحرقوها ونهبوها، ثم أخذوا في تهديد مصر . . .

ولكن كانت مصر لهم دوماً بالمرصاد! وستقرأ ما فعله بمالك مصر مع التتار في كتاب تال إن شاء الله .



مراجع

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية
بالموصل . نشره وحققه د . عبد القادر أحمد طهيات ، القاهرة ١٩٦٣
- ابن مثنى : قوانين الدواوين ، القاهرة
- ابن واصل ، جمان الدين محمد : منفرج الكروب في أخبار بني أيوب ،
نشره وحققه د . جمال الدين محمد الشيال ، جزاء ، القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٧
- أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ،
القاهرة ، ١٩٤٧
- أبو المحاسن تفرى بردى : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبع
منه حتى الآن ١٢ جزءاً ، دار الكتب ، القاهرة (١٩٣٠ — ١٩٥٦)
- أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار . حققه وعلق عليه د . فيليب حتى ، مطبعة
جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٣٠
- بتلر وترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد : فتح العرب لمصر . لجنة التأليف
والتريجة والنشر ، القاهرة ١٩٣٣ Butler, A: The Couquest of Egypt
- د . جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط . مؤسسة
المطبوعات الحديثة . القاهرة ١٩٥٩
- د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٥٨
- د . حسن حبشي : الشرق الأوسط بين شتى الرعى ، مطبعة الاعتماد ،
القاهرة ١٩٣٨
- _____ : الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٧
- _____ : نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨
- _____ : مذكرات جوفانفيل ، القديس لويس ، حياته وحملاته على
مصر والشام . ترجمة وتعليق ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨

- د . حسنين محمد ربيع : النظم المسالية في مصر زمن الأيوبيين ، مطبعة
جامعة القاهرة ، ١٩٦٨
- د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة في تاريخ
الجهاد العربى فى المصور الوسطى ، جزءان ، مكتبة الأنجلو ١٩٦٣
- د . السيد الباز العرنى : مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢
- : مصر فى عصر الأيوبيين ، وزارة التربية والتعليم ،
القاهرة ١٩٥٩
- د . سيدة إسماعيل كاشف : الجيش والبحرية فى مصر من الفتح العربى إلى
بداية العصر الطولونى ، رسائل الثقافة
الحربية رقم ٤٨
- : مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام
الدولة الطولونية ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧
- : مصر فى عصر الأخشيديين ، القاهرة ، ١٩٥٠
- شمس الدين بن ظهير : كتات روضة الأديب ونزهة الأريب . حققه
د . محمد الحبيب الهيلة .
- د . عبد الرحمن زكى : السلاح فى الإسلام . مطبوعات الجمعية المصرية
للدراستات التاريخية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١
- : قلعة صلاح الدين وقلعة إسلامية أخرى ، مجموعة
الألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٩
- : معارك حاسمة دمياط والمنصورة ، مطبعة النيل ، القاهرة
- : السيف فى العالم الإسلامى ، دار الكتاب العربى ،
القاهرة ١٩٥٧
- : معركة المنصورة ، وأثرها فى الحروب الصليبية ،
إدارة الشؤون العامة ، القاهرة ١٩٦٠

- د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة (١٩٥٣ — ١٩٥٥)
- د . عطية مشرفة : نظم الحكم في مصر في العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٤
- د . علي بيومي : قيام الدولة الأيوبية في مصر ، دار الفكر الحديث للنشر ١٩٥٢
- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩١٣
- د . محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية . دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٧
- د . محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبي وعصره . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٢٧
- د . محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية (بالإنكليزية) ، ترجمها السيد محمد سعيد السيد منصور . رسائل الثقافة الحربية رقم ٣٩
- : حملة لويس على مصر وهزيمته في المنصورة . المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦١
- المقرئزي ، تقي الدين أحمد : السلوك لمعرفة دول الملوك : نشر د . محمد مصطفى زيادة طبع منه حتى الآن ستة أقسام ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٣٤
- : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار القاهرة
- ناصر خسرو : « سفر نامه » . نقله من الفارسية إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب . كلية آداب جامعة القاهرة ، ١٩٤٥
- د . نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى في عهد صلاح الدين ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤
- : جيش مصر في أيام صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٦
- النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب
- دائرة المعارف الإسلامية : (الطبعة الأولى)

BIBLIOGRAPHY

- Atiya, Aziz, S. : The Crusade : Historiography and Bibliography. Indiana, U. P. 1962.
- — — — Crusade, Commerce and Culture of Egypt., Indiana, U. Press, 1962.
- Creswell, K. A. C. : The Muslim Architecture of Egypt. 2 vols. Oxford, Clarendon Press, 1959.
- Davies, E. J. : The Invasion of Egypt by Louis I of France. Sampson Low, London, 1897.
- Gibb, H. A. R. : The Armies of Saladin. Cahiers d'histoire égyptienne, série III, fasc. 4 (May 1951), 304-20.
- Joinville, J. Sire de: History of Saint Louis. Trans. Evans, Oxford, 1938.
- Oman, Sir Charles : A History of the Art of War in Middle Ages, 2 vol. Methuen, London, 1924.
- Runciman, S. : A History of the Crusades. 3 vols., Cambridge U.P. 1926
- Smail, R. C. : Crusading Warfare., 1097-1193. Cambridge U. P. 1956, 1967.
- Johns, C. N. Palestine of the Crusades. A map of the country scale: 350,000 with historical introduction and gazetteer. Jerusalem, 1938.

المحتوى

صفحة

المقدمة

الفصل الأول : الجيش في عصر الولاة العرب ... ١ ... ٩—

مصر العربية . الجيش العربي في عصر الولاة .

الفصل الثاني : الجيش في عصر الطولونيين (٧٦٨—٩٠٥م) ... ١٠ ... ١٥—

الجيش الطولوني .

الفصل الثالث : الجيش في عصر الإخشيديين (٩٣٥—٩٦٩م) ١٦ — ٢٢—

الجيش الإخشيدى .

الفصل الرابع : الجيش في عصر الفاطميين (٩٦٩—١١٧١ م) ٢٣ — ٧٨—

الجيش الفاطمى في مصر — عناصر القوات الفاطمية — الجيش

كما وصفه ناصر خسرو — قادة الفواطم في مصر — السلاح

في العصر الفاطمى — السياسة الدفاعية في عصر الفاطميين —

أسوار القاهرة وأبوابها — الأصول المعمارية في الأسوار

الفاطمية — معارك الجيش الفاطمى — القرامطة — الفاطميون

والبيزنطيون — الصليبيون في بيت المقدس معركة عسقلان (١٠٩٩)

الصليبيون في مصر — معركة بلبس (١١٦٤) — معركة

الباين (١١٦٧) — حملة نور الدين الثالثة بقيادة شيركوه

(١١٦٨) — حملة أمورى وبيزنطية ضد مصر (١١٦٩) .

الفصل الخامس : الجيش في عصر الأيوبيين (١١٧١—١٢٥٠م) ٨٩ — ١٥٢—

عصر صلاح الدين — الجيش الأيوبي — السلاح في العصر

الأيوبي : الأسلحة الهجومية ، الأسلحة الدفاعية ، النار

اليونانية والبارود والنفط ، الأسلحة النارية — السياسة الدفاعية

صفحة

في العصر الأيوبي : قلعة صلاح الدين ، دعم أسوار القاهرة
قلعة صلاح الدين بسيناء ، قلعة جزيرة الروضة ، قلاع أيوبية
خارج مصر — قلعة بصرى ، قلعة دمشق ، قلعة جبل طابور —
معارك الجيش الأيوبي أيام صلاح الدين يوسف — البحر
الأحمر في سياسة صلاح الدين — معركة حطين الكبرى
تحرير بيت المقدس — معارك حصار عكا — معركة أرسوف

الفصل السادس: الجيش بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي (١١٩٣-١٢٥٠): ١٥٣-١٤٠

معركة دمياط — معركة غزة الأولى وغزة الثانية — حملة
لويس التاسع ومعركة المنصورة — اقتحام المنصورة
ومعركتها — معركة جديلة — عمليات الأسطول النهرية —
الملك الأسير — تحليل معركة المنصورة — الأسباب التكتيكية
والاستراتيجية — خاتمة المعارك بين الأيوبيين والمماليك —
معركة العباسية — زحف الأمير أقطاي — نهاية الأيوبيين .

٢٤١ — ٢٤٤

مراجع الكتاب :

٢٤٥ — ٢٤٧

المحتوى

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٩٧٠/٥٣٤٨

مطبعة
الكيلاني

THE EGYPTIAN ARMY

in

THE MOSLEM PERIOD

« [640 – 1250 A. D.] »

DR. ABD el RAHMAN ZAKY

CAIRO
U. A. R.



THE EGYPTIAN ARMY

in

THE MOSLEM PERIOD

« [640 - 1270 A. D.] »

DR. ABD el RAHMAN ZAKY

CAIRO
U. A. R.

